



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة مصطفى إسماعيل - معسكر -

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

تخصص: لسانيات عربية

رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه (ل. م. د) مؤسومة:

كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر"
لابن الأثير (ت606هـ) - دراسة معجمية -

إعداد الطالب:

صوان محمد

إشراف:

أ.د. قيادري قويدر

أعضاء لجنة المناقشة:

بن فطة عبد القادر	أستاذ التعليم العالي	جامعة معسكر..... رئيسا
قيادري قويدر	أستاذ التعليم العالي	جامعة معسكر..... مشرفا ومقررا
بابا أحمد رضا	أستاذ التعليم العالي	جامعة معسكر..... عضوا مناقشا
بلي عبد القادر	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران -1..... عضوا مناقشا
مبارك عبد القادر	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس... عضوا مناقشا
بومدين بوجمة	أستاذ محاضر "أ"	جامعة معسكر..... عضوا مناقشا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



شكر وتقدير

قال النبي ﷺ: "لا يشكر الله من لا يشكر الناس".

وقال أحمد هم:

علامة شكر المرء إعلان حمده *** فمن كتم المعروف منهم فما شكر

لذا كان لزاما علي تسجيل الشكر وإعلانه، ونسبة الفضل لى أهله وأصحابه، فالشكر موصول أذلا

لى صاحب الفضل بعد الله ﷻ، الاستاذ المشرف:

"أ.د. قيدراري قويدر"

الذي تفضل بقبول الإشراف على هذا العمل، وونما ترفقه، ولم يأل جهدا

في إسداء النصيح والإرشاف، طيلة فترة الإعداد

والشكر موصول ثانيا لى السادة الأساتذة وأعضاء لجنة المناقشة على تجشهم عناء القراءة

ولى جميع الأساتذة وأعضاء لجنة التكوين في الدكتوراه بجامعة مصطفى بسطيموي - معسكر -

ولى كل من ساهم في إنجاز هذا العمل من قريب أو بعيد

والحمد لله أذلا وأخيرا.



إهداء

لى قلوبى ومصدر الهامى، والدى الغالى الذى كان ولا يزال روءا لى يعيننى وينصرنى

لى من كان دعاؤها سر نجاحى، وحنانها بلسم جراحى... أتمنى الرؤوم

لى زوجتى الكريمة ...

لى قرة عينى وسر سعادتى... أبنائى: بشرى وميسون وحسام

لى إخوتى الكرام...

لى روح مجد النمن بن الأثير الطاهرة

لى كل من و سَعْتُمْ ذَاكِرتى ... ولم تَسْفِتُمْ مَذَكِرتى

إيكم جميعا أهدي ثمرة هذا العمل المتواضع.

مُقَدِّمَةٌ

مُقَدِّمَةٌ

تعدّ المعاجم العربية كنزاً من الكنوز الثمينة التي تحتويها الخزانة العربية، فهي التي حفظت علينا ثروتنا اللغوية من الضياع رَدْحاً من الزمن، ولا يكاد يستغني عن الرجوع إلى المعاجم دارس ولا باحث في اللغويات، أو متصدِّ لانتوال فنون العربية شعراً ونثراً، حتّى لا يخرج عن الأعراف اللغوية، وحتّى يكون في مُكَنَّتِهِ مسaireً روح العصر ومقتضيات الحضارة، حيث ظلّت المعاجم القديمة تشكّل مرجعاً أساساً للغة العربية عبر العصور، كونها صناعةً لغويةً ووسيلةً هدفها جمع اللغة ووصفها.

وإذا كان هذا شأن المعاجم العربية بصفة عامة، فكيف إذا تعلق الأمر بتلك التي عُنيت بجمع ما ورد من غريب في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ثم شرحه وتفسيره، خاصة إذا علمنا أنّ إرهاصات العمل المعجمي العربي كانت بداياتها انطلاقة من جمع غريب القرآن الكريم وغريب الحديث وغريب اللغة.

فقد كان التأليف في غريب القرآن النواة الأولى لتأليف المعاجم، وأول من نهض بهذا العمل عبد الله بن عباس رضي الله عنه، فهو أول من يعزى إليه أنه تكلم في غريب القرآن، ثم ألف بعده في هذا الفنّ أقواماً، فتعددت مؤلفاتهم حتى لقد بلغت في الكثرة مداها، ثم اتجه العلماء بعد ذلك إلى جمع الحديث النبوي الشريف، وشرح غريبه وتفسيره بعد أن مُنعوا من ذلك مدّة من الزمن.

وأول من ينسب إليه التّصنيف في فنّ غريب الحديث هو أبو عبيدة معمر بن المثنّى، وقيل غيره، ثم توالفت بعده التصانيف وكثرت التأليف، ويأتي في مقدّماتها كتاب "غريب الحديث" لأبي عبيد القاسم بن سلام ثم كتاب ابن قتيبة، ويأتي بعدهما مُصنّف الحربي والخطابي وأبو عبيد الهروي والزخشي وغيرهم كثير، إلى أن وصلت هذه السلسلة العلمية المباركة إلى واسطة العقد وترجمان الحديث مجد الدين

أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري (ت606هـ)، فجمع ما تناثر من فوائد في هذه الكتب في سِفْرٍ بديع، أسماه: "النهاية في غريب الحديث والأثر"، فرتّب مادته وهذّبها حتى أصبح هذا السِّفْرُ فيما بعدُ عمدةَ المشتغلين بالعلم على اختلاف درجاتهم ومعارفهم وتخصّصاتهم.

ولابن الأثير جهود معجمية أخرى غير هذا الكتاب، جلّها في غريب الحديث، لعلّ أبرزها كتاب "الشافى في شرح مسند الشافعى"، وكتاب "جامع الأصول في أحاديث الرسول"، وكتاب "منال الطالب في شرح طوال الغرائب"، وهي جهود معتبرة في حقل المعجمية تستدعي الوقوف عندها ودراستها، من أجل ذلك رأيت من الضروري أن تكون هذه الجهود المعجمية موضوع هذه الرسالة، واخترت من هذه الأعمال معجم "النهاية في غريب الحديث والأثر"، لأنه أجودها تبويبا وأحسنها ترتيبا، وأدقها شرحا، وأوضحها تفسيرا، وأتراها شواهدا، وأضبّطها توثيقا، فجاء موضوع هذا البحث موسوما: كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير (ت606هـ)، دراسة معجمية. فحاولت أن أُجْرِي عليه مقارنة معجمية تعرف من العطاء المعرفي اللغوي للسانيات الحديثة، من حيث الجمع والوضع، وأهمّ الوظائف المعجمية المنوطة بالصناعة المعجمية الحديثة.

ولقد حاولت من خلال هذه الدراسة أن أجيب عن بعض الإشكاليات، وهي:

ضمن أي نوع من أنواع المعاجم يمكن تصنيف معجم "النهاية"؟ وما حظّه من النظرية المعجمية الحديثة من جهة الجمع والوضع والوظائف المعجمية المختلفة؟ وما القيمة المضافة التي جاء بها هذا المعجم مقارنة بمعاجم غريب الحديث التي سبقته؟ وما أثره فيما جاء بعده من كتب اللغة وغيرها؟

وحقّ يضطلع هذا البحث بما أنيط به ارتأيتُ أن أُقيّم عمودَه على مقدمة ومدخل وأربعة فصول وخاتمة ومسرود، أمّا المدخل فتناولت فيه بعض المصطلحات والمفاهيم التي تتعلق أساسا بالمعجم والمعجمية، حيث وقفت عند مفهوم المعجم وشروطه وأنواعه، ثم عزّجت على مفهوم المعجمية بشقّيها: النظري والتطبيقي وكذا أسسها الحديثة وأصولها في التراث المعجمي القديم، كما تناولت مصطلح غريب

الحديث والأثر بشيء من الشرح والتفصيل، لأجعل من ذلك كله دعامةً لأعرض عليها جهود ابن الأثير في كتاب النهاية في ضوء اللسانيات الحديثة.

وأما الفصل الأول؛ فقد خصصته للحديث عن أهمية غريب القرآن وغريب الحديث وأثرهما في الصناعة المعجمية العربية القديمة، وقسمته إلى ثلاثة مباحث، قمت في المبحث الأول باستقراء تاريخي وتحليلي لكتب غريب القرآن، وكذلك فعلت في المبحث الثاني مع كتب غريب الحديث، مع التركيز أكثر على غريب الحديث كونه حاضنة موضوع بحثنا، لأختتم هذا الفصل بالحديث عن أهمية كتب الغريب وأثرها في الصناعة المعجمية العربية.

وأما الفصل الثاني؛ فكان عنوانه: الصناعة المعجمية العربية القديمة من حيث نشأتها وتطورها وخصائصها، وقد قسّمته إلى مباحث ستة تناولت في المبحث الأول اللغة العربية بين السماع والرواية والتدوين، ثم تحدثت في المبحث الثاني عن بواكير النشاط المعجمي عند العرب، ثم ظهور الرسائل اللغوية في المبحث الثالث، ثم ناقشت مسألة تطور عملية التأليف في المعاجم العربية في المبحث الرابع، لأقف عند بعض الهنات التي وقعت فيها معاجمنا العربية في المبحث الخامس، وختمت هذا الفصل بتخصيص المبحث الأخير منه للحديث عن ظهور المدارس المعجمية، واقعها ومعايير تقسيمها.

وكان من الطبيعي أن أبدأ بحثي هذا بالحديث في الفصل الأول عن معاجم غريب القرآن الكريم ومعاجم غريب الحديث ومعاجم غريب اللغة لتقدمها زمنياً في التصنيف على كثير من المعاجم اللغوية العربية التي وقفت عندها في الفصل الثاني.

وأما الفصل الثالث، فقد وسمته "ابن الأثير وكتابه النهاية في غريب الحديث والأثر"، وهو بمثابة فصل تمهيدي للفصل الرابع، قسمته إلى مبحثين اثنين، تحدثت في المبحث الأول عن عصر ابن الأثير وحياته بما له علاقة بإنتاجه العلمي، وتناولت في المبحث الثاني التعريف بكتاب

"النهاية في غريب الحديث والأثر"، حيث وقفت عند عنوانه وما جاء في مقدمته، وأشارت إلى أهميته، ودوافع تأليفه، وثناء العلماء عليه، وذكرت طبعاته المختلفة، وسبب اختياري لطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لدولة قطر الشقيقة، بتحقيق أحمد بن محمد الخراط، كما تحدثت في هذا المبحث عن أثر كتاب "النهاية" في كتب العربية، لأختمه بتعداد بعض المآخذ التي ذكرها محققو الكتاب، والتي كنت قد وقفت على بعضها أثناء مدارستي لهذا الكتاب.

ثم انتقلت إلى الفصل الرابع والأخير وهو الأهم في بحثي هذا، حيث قمت بدراسة كتاب "النهاية" دراسة معجمية في ضوء اللسانيات الحديثة، وقسمت هذا الفصل إلى خمسة مباحث، حُصِّص المبحث الأول منه للحديث عن مبدأ الجمع في كتاب "النهاية" بركنيه: المصادر المعتمدة والمستويات اللغوية، وخصصت المبحث الثاني للحديث عن مبدأ الوضع في كتاب "النهاية" بركنيه: الترتيب وطرائق الشرح والتعريف، أما المبحث الثالث فقد تناولت فيه أبرز الوظائف المعجمية في كتاب "النهاية"، الصوتية والصرفية والنحوية ومختلف الظواهر اللغوية، وجعلت المبحث الرابع للحديث عن منهج ابن الأثير في الاستشهاد، وأما آخر مبحث فقد تناولت فيه منهج ابن الأثير في ضبط النص المعجمي وطرائقه المختلفة.

ثم أتيت في الخاتمة على ذكر أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة، وضمنتها بعض التوصيات التي لها علاقة مباشرة ببحثي هذا.

وكنت قد ذيلتُ هذا البحث بمسارد خصصتها للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأبيات الشعرية، مع فهرس لموضوعات البحث، لما في ذلك من تيسير للمراجع وتسهيل للمطالع.

وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز الجهود المعجمية لابن الأثير في كتاب النهاية في غريب الحديث في ضوء المقاربة المعجمية الحديثة.

وأما عن المنهج المتبع في هذه الدراسة؛ فقد اقتضت طبيعة الموضوع الاعتماد على المنهج الوصفي، وما يتطلبه من مناقشة وتحليل وتعليق بغية الوصول إلى الحقيقة العلمية بتجرد وموضوعية، ذلك لأن هذا البحث إنما هو توصيف لمستوى من مستويات الدرس اللساني عند علم من أعلام الدرس اللغوي العربي القديم، في أحد مصنفاته في ضوء النظرية المعجمية الحديثة، ولا شك أن ذلك يستدعي توظيف المنهج الوصفي التحليلي، وإلى جانب هذا المنهج اعتمدت في دراستي هذه على المنهج التاريخي، وتظهر معالمه في تتبع مسار المعجمية العربية منذ نشأتها على اختلاف مدارسها ومناهجها، ونقدها بكل حياد وموضوعية، إلى غاية وصولها إلى مرحلة النضج والكمال، يتخلل ذلك المنهج الاستقرائي، الذي ساعدنا في جمع أكبر قدر من المعلومات المرتبطة بها، وقراءة مختلف المتغيرات في مضامينها، ومناهجها، كما ساعدنا في تتبع واستقراء الظواهر المعجمية في كتاب "النهاية".

واعتمدت في بحثي هذا على عدة مصادر ومراجع، منها القديمة والحديثة، أولها: كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير الجزري موضوع بحثنا، بطبعاته المختلفة باختلاف محققيه، بدءاً بطبعة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف القطرية، من تحقيق أحمد بن محمد الخراط، وهي الطبعة المعتمدة في البحث، ثم طبعة دار إحياء التراث العربي ببلنجان، من تحقيق محمود الطناحي وطاهر الزاوي، وطبعة مؤسسة الرسالة ببيروت، من تحقيق رضوان مامو، إضافة إلى طبعات أخرى.

ومن أهم مصادرنا في هذا البحث: كتاب "في اللغة والأدب، دراسات وبحوث" لمحمود الطناحي، وكتاب "مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي" لخلمي خليل، وكتاب "مناهج التأليف المعجمي عند العرب، معاجم المعاني والمفردات" لصاحبه عبد الكريم مرداوي، وكتاب "المعجم العربي، نشأته وتطوره" لحسين نصّار، وغيرها من المصادر والمراجع.

أما عن الدراسات السابقة؛ فهناك عدة دراسات وبحوث تناولت كتاب "النهاية" في بعض المباحث المعجمية ولكنها لا ترقى إلى دراسة معجمية مكتملة الأركان لهذا الكتاب في ضوء اللسانيات العربية الحديثة، ومن تلك الدراسات: "المعيار الصوتي لغرابة الحديث" في كتاب النهاية، دراسة في بنية الكلمة" لعمر عبد المعطي، وهي دراسة جاءت لتكشف عن موضوع غرابة الحديث صوتياً، حيث وقف صاحب الرسالة عند قضايا ومباحث صوتية عديدة كان قد أثارها ابن الأثير في معجم "النهاية"، وخلاصة ما في هذه الدراسة أنها تعالج وظيفة من بين وظائف مختلفة يؤديها المعجم، لذا تبقى هذه الدراسة قاصرة عن الإحاطة بجميع جوانب الدراسة المعجمية الحديثة، وهنا تكمن الإضافة التي قدمها بحثنا.

وهناك دراسة أخرى لعلّي السحيباني بعنوان: "التأويل في غريب الحديث من خلال كتاب النهاية لابن الأثير"، وتحدّث فيها صاحبها عن قضية التأويل لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وفي سائر أبواب العقيدة، في كتب غريب الحديث مركزاً على كتاب "النهاية" لابن الأثير، وهي دراسة تتعلق بجانب من جوانب الكشف عن المعنى، ولا يمكن لهذه الدراسة أن تزاخم دراستنا في موضوعها، إلا في زاوية ضيقة من زواياها المتعددة.

وأما كتاب "ابن الأثير المحدّث ومنهجه في كتاب النهاية" لأميمة رشيد بدر الدين، وإن كان حصولنا عليه متأخراً جداً، فهو في أصله رسالة دكتوراه، تمت مناقشتها في جامعة دمشق عام 1414هـ، ثم طبع عام 1435هـ، أي بعد مُضي إحدى وعشرين سنة، ومع ذلك طبعت الرسالة كما هي، دون تحديث للمعلومات، فكثير من الكتب المخطوطة التي كانت صاحبة الكتاب قد اعتمدت عليها قد تم تحقيقها وطبعها، وكان من نتائج ذلك أننا لما عدنا إلى إحالاتها على بعض الكتب وجدنا سقطاً في النقل، كثيراً ما أخلّ بالمعنى، هذا من جانب، ومن جانب آخر، وإن كانت المؤلف قد لامست كثيراً من الظواهر اللغوية في كتاب "النهاية" كحديثها عن بعض المباحث النحوية

والصرفية والبلاغية، إلا أنّ هذه الدراسة ركزت على ابن الأثير المحدّث وليس ابن الأثير اللغوي المعجمي شأن موضوع بحثنا، فتحدثت عن علوم الحديث كالنسخ والمنسوخ، والجرح والتعديل، والحديث المدرج، والمضرب، وكتابة الحديث، وغيرها من المباحث الحديثية، وأهملت البحث في طرائق الشرح والتعريف في معجم "النهاية في غريب الحديث والأثر".

وهناك دراسات سابقة أخرى وقفنا على عناوينها في مقدمة أحد المراجع، بعنوان "أحاديث كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، تخريج ودراسة"، وهي رسالة ماجستير من إعداد الطالب: محمد رجب بالجامعة الإسلامية بغزة، ولم نظفر بها رغم بحثنا الحثيث عنها، وهناك رسائل جامعية أخرى يبدو أنّها لازالت حبيسة أدراج المكتبات الجامعية التي نوقشت فيها، ولم تنشر بعد، ونعدّها منها: رسالة ماجستير بعنوان: "الظواهر اللغوية في كتاب النهاية لابن الأثير"، إعداد الطالب صالح كاظم داود بجامعة بغداد، ورسالة ماجستير بعنوان: "المسائل النحوية والتصريفية في كتاب النهاية لابن الأثير، جمعا ودراسة"، إعداد الطالب: عبد الله بن محمد الأنصاري، وكتاب "الظواهر اللّهجية في كتاب النهاية لابن الأثير"، إعداد الطالب: فتحي محمد شاهين. والذي يظهر من عناوين هذه البحوث أنّها عُنيّت بدراسة الظواهر اللغوية في كتاب النهاية لابن الأثير، على حساب جوانب الدراسة المعجمية الأساس.

وإذا رمّت الحديث عن الأسباب الكامنة وراء كتابة هذا البحث؛ فإنّ أبرزها شغفي بعلوم الحديث واللغة، حيث كانت لي تجربة سابقة في رسالة الماجستير مع الاستشهاد بالحديث النبويّ في إثبات القواعد النحوية، وكنت قبل ذلك قد تناولت في مذكرة الليسانس موضوعا في المعجمية العربية، ثمّ جاءت رسالة الدكتوراه لتجمع بين الحديث النبوي وقضايا المعجم العربي، وهذا دافع آخر جعلني أخوض غمار هذا الموضوع وأسبر أغواره، ألا وهو العناية بمآثر الأوّلين من الدّارسين العرب، والوقوف عند آثارهم فهما وتحليلا، ودراسة وتمحيصا، وهذا في حدّ ذاته عمل من أجلّ الأعمال، خاصّة

إذا تعلق الأمر بعلم بُورِك من فوق سبع سماوات، بضاعته مشكاة النبوة وحديث المصطفى ﷺ، حديث أعجز الفصحاء وأعيى البلغاء، فكانت النيةُ توجيةَ الجهود إلى شحذ الهمم، والحثُّ على الاعتراف من ميراث النبوة، ولا يخفى ما في ذلك من صدِّ للرتانة، ودفعٍ لعادية التحريف وغائلة اللحن، والزجِّ بالنفس إلى الانصياع للفصيح من الكلام، وإلى خير ما قيل في الأنام، بعد كلام العزيز العلام.

فكانت هذه الدوافع مجتمعةً سببا قويا، ومحفازا وجيها لِمُدْرسة هذا الكتاب، لما حوى من فوائد جمّة، ومعارف غزيرة ثرة، حتى أقف عن قرب على الجهود التي بذلها صاحب الكتاب في مصنّفه هذا، كونه أحد المعاجم العربية القديمة التي كان لها الأثر البارز في عديد المصنّفات التي جاءت بعده في اللغة وفي غيرها.

أما عن أهمية هذه الدراسة، فلا شكّ أنّها تستمد قيمتها من طبيعة الموضوع المعالج، فالدراسة التي تجعل من كتاب في علم غريب الحديث والأثر موضوعا لها هي على قدر كبير من الأهمية، ذلك لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم كما قال ابن الجوزي. كما أن إخضاع كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" -الذي يعدّ النهاية في بابه- لمقاربةٍ معجميةٍ حديثةٍ هو في حدّ ذاته إسهامٌ في إرساء معالم النظرية المعجمية العربية الحديثة.

ثمّ إنّ هذا الكتاب يمثل مدرسة معجمية مهمّة في تاريخ التأليف المعجمي عند علماء اللغة، وهي مدرسة الترتيب الهجائي وفُقّ الحرف الأول، وقد سبقته مدارسٌ اعتمدت مناهج مختلفة في الترتيب، فيأتي كتاب "النهاية" ليمثّل حلقة من سلسلة منتظمة، اجتهدت في جمع التراث اللغوي وفُقّ منهج معيّن، يستدرك الصعوبات التي تكتنف سائر المناهج الأخرى.

وأخير وليس آخرا، أتوجه بالشكر الجزيل إلى المشرف الأستاذ الدكتور قيداري قويدر على صبره الجميل وتوجيهاته المثمرة، كما الأساتيد الأجلاء، أعضاء لجنة المناقشة، كل باسمه

وجميل وسمه، لتفضلهم بقبول مناقشة هذا العمل وتحشيمهم عناء قراءته، وإبداء ملاحظاتهم وتوجيهاتهم، جعل الله ذلك في ميزان حسناتهم.

وبعد؛ فإني قد بذلتُ في بحثي هذا من الوسع غايته، ومن الجهد منتهاه، والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن أكون قد قدّمتُ ما يشفع لي في الانتساب إلى هذه اللّغة.

فإنْ أصبْتُ فلا عُجْبٌ ولا غرر وإنْ نقصتُ فإنَّ النَّاسَ ما كملوا
والكاملُ اللهُ في ذاتٍ وفي صفةٍ وناقصُ الدَّاتِ لم يكملْ له عملٌ

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه ط.د. محمد صوّان بعمي موسى، في غرة يوم الخميس 01 فبراير 2024م
الموافق لـ: 20 رجب 1445هـ



مدخل
مصطلحي
ومفاهيمي

- مفاهيم حول المعجم والمعجمية
- مصطلح غريب الحديث والأثر

1. المعجم:

1.1. معنى كلمة (معجم) واشتقاقاتها:

كلمة معجم جاءت من مادة (ع ج م)، وتدل في لغة العرب على معنيين اثنين: المعنى الأول: وهو الإبهام والغموض وعدم البيان. جاء في لسان العرب لابن منظور (ت711هـ): "الأعجم الذي لا يُفصح ولا يبين كلامه، وإن كان عربيَّ النَّسَب. ورجلٌ أعجميٌّ: إذا كان في لسانه عجمة، وفي التنزيل العزيز: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾¹". وفي هذا يقول عدنان الخطيب: "إذا كان الأوائل قد قالوا- كما في الصَّحاح- استعجمَ علينا الكلامُ أي استبهم، وأعجمَ كلامه: إذا ذهب به إلى العجمة، فمن المقبول أن يقول أحدنا اليوم: فلان يستعجم في شعره ونثره؛ إذا كان يُحوج قارئه إلى الاستعانة بمعجم"³.

المعنى الثاني: وهو الإفصاح والبيان، فإذا ما زيدت الهمزة على الفعل "عجم" فقول: "أعجم"؛ دل ذلك على السلب والنفي والإزالة، حيث تقول في اللغة: أفذيت عينَ الصَّيِّ إذا أزلت ما بها من قذى. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾⁴، وفيه أيضا: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾⁵، القاسط من: قَسَطَ، أي: ظلم، والمقسط من: أَقْسَطَ، أي: عدل أو أزال الظلم. وعليه؛ فإن معنى أعجم: أزال العجمة أو الإبهام أو الغموض. وجاء في المعجم الوسيط: عَجَمَ الحرفَ والكتابَ يَعْجُمُ عَجْمًا: أزال إبهامه بالنقط والشكل⁶.

أما في الاصطلاح؛ فتعني كلمة معجم كتابا يضم بين دفتيه مفردات لغة ما، ومعانيها واستعمالاتها في التراكيب المختلفة، وكيفية نطقها، وكتابتها، مع ترتيب هذه المفردات، ويعرفه عليّ القاسمي بأنه "كتاب يحتوي على كلمات ترتب عادة ترتيبا هجائيا مع شرح لمعانيها، ومعلومات

1- سورة النحل: 103.

2- لسان العرب، ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم)، تحقق: عبد الله عليّ الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة،

مادة: عجم، مجلد4، ص2825.

3- المعجم العربي بين الماضي والحاضر، عدنان الخطيب، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، 1994م، ص14، 15.

4- سورة الجن: 15.

5- سورة المائدة: 42.

6- ينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2004م، ص586.

أخرى ذات علاقة بها"¹. وجاء في المعجم الوسيط ما نصّه: "المعجم: ديوان لمفردات اللّغة مرتب على حروف المعجم"². وهو عند رشاد الحمزاوي: "مادة إحصائية دقيقة شاملة لمفردات أي لغة من اللغات، أو أيّ موضوع من مواضيعها، والمعجمي من يقوم على جمع مفردات اللغة، وتصنيفها من حيث دلالتها، وبنيتها وأصولها"³. وسُمّي هذا النوع من الكتب بهذا الاسم إمّا لأنه مرتّب على حروف المعجم، وإمّا لأنه قد أزيل منه أيّ إبهام أو غموض⁴. وأشار أحد الباحثين إلى كونه "كتاباً يضمّ أكبر عدد من مفردات اللغة مقرونة بشرحها وتفسير معانيها، على أن تكون المواد مرتبة ترتيباً خاصّاً، إمّا على حروف الهجاء، أو الموضوع، والمعجم الكامل هو الذي يضم كل كلمة في اللغة مصحوبة بشرح معناها واشتقاقها وطريقة نطقها، وشواهد تبين مواضع استعمالها"⁵.

وتجمع كلمة (معجم) جمع مؤنث سالماً على (معجمات)، وهذا محل اتفاق بين جميع اللغويين. وهناك جمع آخر لهذا اللفظ وهو (معاجم) الذي يعدّ جمع تكسير، أقرّه بعضهم ورفضه آخرون، وقد اتخذ مجمع اللغة العربية بالقاهرة مؤخراً قراراً بصحة هذا الجمع⁶.

ومما ينبغي الإشارة إليه، أن المعجميين لم يكونوا السّبّاقين إلى إطلاق اسم (معجم) على كتبهم اللغوية التي تعالج تفسير الألفاظ والمفردات أو تحشدها في موضوعات وأبواب، بل اختار كل مؤلّف لمعجمه اسماً خاصاً فهذا العين، وذاك الجمهرة، والآخر الجمل، وغيره تهذيب اللغة... إلخ، وإنما كان أوّل من اختار هذا المصطلح هم علماء الحديث، فقد أطلقوا هذه الكلمة على الكتاب الذي يجمع أسماء الصحابة ورواة الحديث المرتب ترتيباً هجائياً، وإلا فإنّ إطلاق لفظ "معجم" على هذه الكتب التي تجمع بين دفتيها ألفاظ العربية وفق ترتيب معيّن إطلاقاً متأخراً⁷.

¹ - علم اللغة وصناعة المعجم، عليّ القاسمي، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، ط2، 1991م، ص3.

² - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص586.

³ - المصطلحات اللغوية الحديثة، رشاد الحمزاوي، م. و. للكتاب، الجزائر، ط9، 1987م، ص227.

⁴ - ينظر: صناعة المعجم الحديث، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 2009م، ص19، 20.

⁵ - مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1979م، ص38.

⁶ - ينظر: البحث اللغوي عند العرب، أحمد عمر مختار، دار عالم الكتب، القاهرة، ط6، 1988م، ص164، 165.

⁷ - ينظر: البحث اللغوي عند العرب، أحمد عمر مختار، ص17.

2.1. أنواع المعاجم¹:

يختلف تحديد أنواع المعاجم باختلاف المعايير التي اعتمدها العلماء في ذلك، ومن تلك المعايير والأسس التي تصنّف المعاجم على هَدْيٍ منها؛ أَلْفِينَا:

أولاً- نقطة الانطلاق: وينبثق عن هذا المعيار نوعان من المعاجم: معاجم المعاني ومعاجم الألفاظ. أمّا معاجم المعاني، وتسمى أيضا المعاجم المبوبة أو معاجم الموضوعات، فهي التي تجمع الألفاظ الدائرة في فلك واحد، وحول موضوع واحد، ويدخل في فصول هذا النوع من المعاجم كلّ الرسائل والكتب اللغوية التي اتخذت المعاني وسيلتها في رصد الكلمات، متناولة مظاهر لغوية عامة مثل الأضداد والمثلثات، والقلب والإبدال والقصر والمدّ، أو في صفات الأشياء مثل تلك الرسائل التي تناولت خلق الإنسان، وخلق الفرس، والخيل، والإبل، والشّاء، والنحل، والنبات، والشجر، والزرع، والنبات، والمطر، والسحاب... إلخ، لتشكل هذه الرسائل مجتمعة -فيما بعد- مدوّنة الغريب المصنف لأبي عبيد (ت224هـ)، ومن بعده متخير الألفاظ لابن فارس (ت395هـ)، ثمّ معجم المخصص لابن سيده (ت485هـ)، وغيرها من المعاجم المبوبة.

ويظهر الفرق بين الرسائل اللغوية ومعاجم المعاني في أن الرسائل اللغوية أسبق في الظهور من معاجم المعاني، بل إنّ الرسائل اللغوية هي المصدر الأساس في بناء معاجم المعاني، ومن الفروق أيضا أن الرسائل اللغوية أقل مادة من معاجم المعاني، إذ تختص الأولى بتناول موضوع واحد في مؤلف واحد، قد يكون هذا الموضوع حول الإنسان أو الحيوان أو النبات أو غير ذلك من الموضوعات، في حين؛ تحاول معاجم المعاني أن تستوعب أكبر قدر ممكن من الرسائل اللغوية بين دفتي كتاب واحد، ويشتركان في اعتمادهما الترتيب الموضوعي في عرض المادة اللغوية.

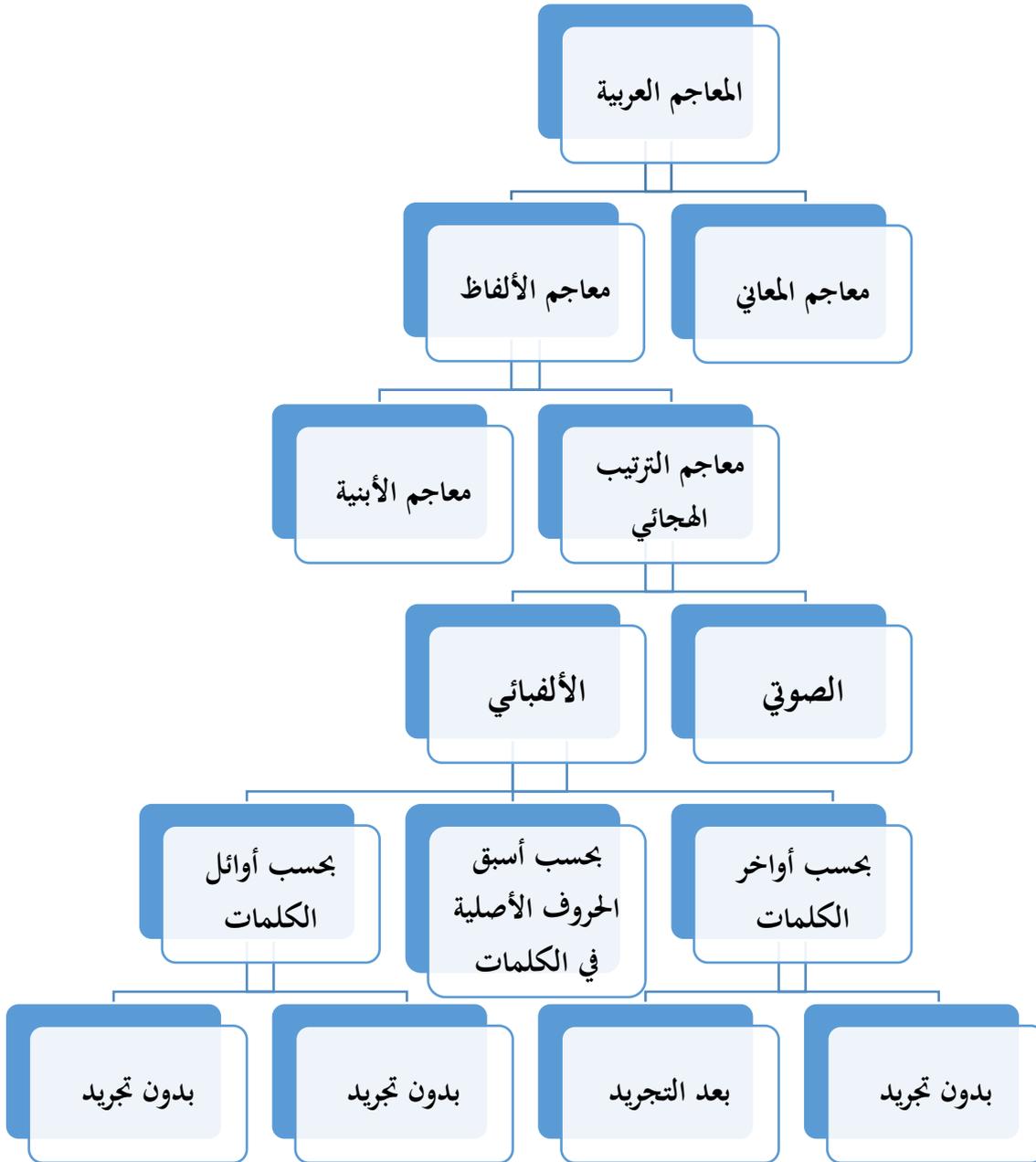
وأما معاجم الألفاظ، وتسمى المعاجم الهجائية أو المجنسة، فهي التي تشرح ألفاظ اللغة وكيفية ورودها في الاستعمال، حتى يستعين بها الباحث في معرفة معنى ما يصادفه من الغريب، ومن أمثلتها: معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، وكتاب الجمهرة لابن دريد (ت321هـ)، وغيرها.

ثانياً- طريقة الترتيب: يبدو أنّ ما ورد من معاجم في التراث العربي قد استنفذ كل الطرق الممكنة في الترتيب، يقول أحمد مختار عمر: "وقد كان مجال تنافسهم واضحا بالنسبة للقسم الأول -يقصد معاجم الألفاظ- حيث

¹ - ينظر: المعاجم اللغوية بدءاً منها وتطورها، إميل يعقوب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1981م، ص15-19.

وُجدت في داخله طرق متعددة بخلاف القسم الثاني - معاجم المعاني - حيث لم يوجد فيه إلا طريقة واحدة، وما أظنهم كانوا سيكتفون بهذه الطريقة الواحدة لو أمكن - عقلا - الاهتداء إلى طريقة أخرى¹.

ويمكن التمثيل لطرائق الترتيب التي اعتمدها معاجمنا العربية بالمخطط الآتي²:



الشكل رقم (01): معاجم الألفاظ وطرائق ترتيبها.

¹ - البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 175.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 177.

ثالثاً-العموم والخصوص: حيث قسموا المعاجم إلى: معاجم عامة: وتعنى بتغطية مفردات اللغة العامة المشتركة مع تغطية كبيرة للمفردات التخصصية الشائعة¹. ومعاجم خاصة، أو معاجم المصطلحات: وهي التي تهتم بمحصر مصطلحات علم معين، وشرح مدلول كل لفظ أو مصطلح حسب استعمال أهله له، وتنقسم بدورها إلى أنواع شتى منها: معاجم المترادفات، المتضادات، معاجم التصريف الاشتقاقي، معاجم التعبيرات السياقية، الكلمات الأجنبية أو المعرّبة، ومعاجم النطق، والمعاجم المتعلقة بشخص أو نص معين، أو مجموعة من الأشخاص أو النصوص، ومعاجم اللهجات، ومعاجم مصطلحات العلوم والفنون.²

رابعاً-عدد اللغات: حيث تنقسم المعاجم إلى معجم أحادي اللغة ومعجم ثنائي اللغة أو متعدد اللغات³.
خامساً-أعمار المستعملين: تتنوع المعاجم بتنوع المراحل العمرية لمستعملها.

سادساً-الحجم: تتنوع المعاجم بحسب الحجم إلى معجم جيب ومعجم وجيز ووسيط وكبير، وذلك بناء على مقاييس عدة منها التدرج في المراحل العمرية بالنسبة للصغار، وبحسب الغرض من الاستعمال، ونوع المستعمل بالنسبة للكبار.

سابعاً-الفترة الزمنية: هناك نوعان من المعاجم بالنظر إلى الفترة الزمنية التي يغطيها المعجم: معاجم تزامنية، وهي التي تصف الرصيد اللغوي للغة ما، في مرحلة زمنية محددة، ومعاجم تاريخية، وتنقسم بدورها إلى قسمين:

معاجم تاريخية عامة: وتعنى بتطور الكلمة على مرّ العصور من حيث المعنى والمبنى منذ بداية دخولها اللغة إلى حين إنجاز المعجم، مع الاستعانة بالشواهد التي تدل على مختلف الاستعمالات التي مرت بها الكلمة. ومعاجم تأصيلية تأثيلية اشتقاقية، وتركز اهتمامها على أصول ألفاظ اللغة، خلافاً للأولى التي تبحث في أصل المعنى.

ثامناً-منهج الدراسة الدلالية لمواد المعجم: وتنقسم إلى معاجم معيارية وأخرى وصفية.

¹ - ينظر: صناعة المعجم الحديث، أحمد مختار عمر، ص 39.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 39، 40.

³ - ينظر: المعاجم العربية في ضوء الدراسات المعجمية الحديثة، أحمد عمر مختار، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1998م، ص 31.

تاسعا-شكل المعجم¹: حيث يمكن إخراج المعجم بطريقة تقليدية في شكل معجم ورقي مطبوع، أو في صورة إلكترونية، أو يقدم في شكل صوتي من خلال برمجية الحاسوب لتحويل الرموز الكتابية إلى كلام مسموع.

3.1. شروط تأليف المعجم:

لا بد لأي معجم يجمع مفردات اللغة ويشرحها أن يتوافر فيه شرطان رئيسان هما: الشمول والترتيب. أ-الشمول: رغم استحالة الإحاطة بكل مفردات اللغة، إلا أنه ينبغي للمعجمي أن يسعى في أن يكون معجمه شاملا، بحيث يستوعب معظم المفردات المستعملة في اللغة، بغية تحقيق الفائدة وتعميمها. ب-الترتيب: وهو نظام يلتزم به المعجمي في توليفه لمعجمه، وهو نوعان: خارجي يعني بترتيب المداخل انطلاقا من حروفها وفق منهج مخصوص (صوتي، ألفبائي...)، وداخلي يعني بترتيب المشتقات في المادة الواحدة.

2. المعجمية وعلم المعاجم:

1.2. مفهوم المعجمية: المعجمية مصطلح شامل لكل جزئيات العمل المعجمي دراسة وصناعة. وهي تخصص علمي لساني شهد تناميا في السنوات الأخيرة، وكانت "آخر ما ظهر في العلوم اللسانية الحديثة، لما توافر لها من آليات التنظير والتطبيق التي تستحق العناية"². ويذهب جلّ اللسانيين المحدثين إلى أن مباحث المعجمية تنفرع إلى قسمين كبيرين:

ـ الأول: نظري، ويصطلح عليه المعجمية النظرية (Lexicology)

ـ الثاني: تطبيقي، ويصطلح عليه المعجمية التطبيقية (Lexicography)

1.1.2. المعجمية النظرية (Lexicology): ويعرفها ((J.Dubois)) بأنها "دراسة للوحدات المعجمية والمفردات في اللغة، وعلاقتها بالمكونات الأخرى للغة؛ الصوتية والتركيبية، خاصة

¹ - ينظر: صناعة المعجم الحديث، أحمد مختار عمر، ص 61، 62.

² - المعجمية؛ مقارنة نظرية ومطبقة، مصطلحاتها ومفاهيمها، محمد رشاد الحمزاوي، الشركة التونسية للنشر، تونس، دط،

2004م، ص 18.

مع الاستخدامات الاجتماعية الثقافية والنفسية¹، ويصطلح عليها الدكتور علي القاسمي بـ: (علم المفردات أو علم الألفاظ)، "ويهتم هذا العلم بدراسة الألفاظ من حيث اشتقاقها وأبنيته، ودلالاتها، وكذلك بالمترادفات والمشاركات اللفظية والتعابير الاصطلاحية والسياقية، وهكذا، فعلم المفردات يهيئ المعلومات الوافية عن المواد التي تدخل في المعجم"²، وحذا حذوه إبراهيم بن مراد الذي أشار إلى أنّ "مبحثها الأساس هو الألفاظ من حيث هي ألفاظ ذات دلالات، وذات صلات ببعضها، وأصول المنحدرت منها، وعائلات اشتقاقية تنتمي إليها"³.

2.1.2. المعجمية التطبيقية (Lexicography): وتعرف بعلم صناعة المعاجم، وهي "فنُّ تحرير وإنشاء وتصنيف وطباعة المعاجم"⁴، وموضوعها "البحث في الوحدات المعجمية من حيث هي مداخل معجمية تجمع من مصادر ومستويات لغوية ما، ثم توضع في كتاب - هو المعجم المدوّن - بحسب منهج في الترتيب وفي التعريف معيّن"⁵. ويعرفها الجيلالي حلام بأنها "علم يختص بصناعة وتأليف المعاجم، ويعنى بجمع الرصيد المفرداتي، ووصفه وترتيبه وفق نظام أَلفبائي أو موضوعي، وتعريف المداخل وتوضيحها"⁶، ويرى عليّ القاسمي أنّ الصناعة المعجمية "تتضمن على خمس خطوات رئيسة هي: جمع المعلومات والحقائق، واختيار المداخل، وترتيبها طبقاً لنظام معين، وكتابة المواد، ثم نشر النتائج النهائي"⁷، وهذا النتاج هو المعجم أو القاموس بالمفهوم الذي سبق ذكره.

وخلاصة الجمع بين هذه التعريفات أنّ علم المعاجم علم نظري، يدرس المعنى المعجمي وما يتّصل به من جهات الدلالة وعلاقتها، أما صناعة المعاجم، أو كما ينعته البعض بـ: فنّ كتابة المعاجم؛ فهي تقنية تعتمد مناهج مختلفة في جمع مادة المعجم ووصفها وترتيبها باعتبارها أحد فروع

¹ – Jean Dubois et autres, Dictionnaire de Linguistique et Science du Langage, Larousse – Bordas /Her, Paris, 1999, p281.

² - المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، عليّ القاسمي، مكتبة ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ص 20.

³ - المعجم العلمي العربي المختص حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م، ص5.

⁴ - المعجمية العربية، ابن حويلي الأخضر ميدني، دار هومة، الجزائر، 2010م، ص72.

⁵ - المصطلحية وعلم المعجم، إبراهيم بن مراد، مجلة المعجمية، تونس، ع8، 1992م، ص6.

⁶ - المعجمية العربية، الجيلالي حلام، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، ط1، 1997م، ص6.

⁷ - علم اللغة وصناعة المعجم، عليّ القاسمي، ص1.

علم اللغة التطبيقي. وأما مصطلح المعجمية؛ فيستعمل ليشمل كلاً من المصطلحين السابقين: علم المعاجم وصناعة المعاجم.

ومّا ينبغي الإشارة إليه، أنّ من اللّسانيين الغربيين والعرب من يخلط بين الصناعة المعجمية وعلم المعاجم، ويتصور أنّهما علم واحد، غير أنّ الحاصل خلاف ذلك تماماً، يقول رشاد الحمزاوي: "المُعجمية -بضم الميم- مصطلح عربي وضعناه، ونعني به ما هو معروف بالإنجليزية: (Lexicology)، ويفرّق بينها وبين المَعجمية -بفتح الميم- التي تؤدي معنى ما يسمى بالإنجليزية (Lexicography)¹، لكن هذا لا ينفى تلك العلاقة الوطيدة بينهما، فهما علمان متكاملان متداخلان، لا يكاد يستغني أحدهما عن الآخر، فمن الجليّ أنّ الصناعة المعجمية تعتمد على علم المفردات لكنهما ليسا شيئاً واحداً"².

2.2. إشكالية المقابل العربي للمصطلح الأجنبي:

إنّ أول ما يصادف الباحث إذا ما أراد الولوج في المعجمية العربية بصفة عامة، هو مشكل تعدد المصطلحات التي تنتظم هذا الفنّ، والتي من شأنها أن تحدث عنده نوعاً من الاضطراب واللّبس و تنأى به عن الجوهر إلى الهامش، ولعلّ مردّ ذلك كلّهُ إلى اختلاف اللغويين العرب في ترجمة المصطلحين الأجنبيين (Lexicology) و (Lexicography) ونقلهما إلى العربية، حيث تستعمل الدراسات العربية كمقابل لمصطلح (Lexicology) أحد المصطلحات الآتية: المُعجمية، علم المعجم، دراسة المفردات، علم متن اللغة، علم المفردات، علم الألفاظ، المفرداتية...، وخصّصت الدراسات كمقابل لمصطلح (Lexicography) أحد المصطلحات الآتية: صناعة المعاجم، المعجمية التطبيقية، المَعجمية (بفتح الميم)، المعجمية، القاموسية...، فكلّ باحث ارتضى لنفسه مقابلاً لهذين المصطلحين³.

1- المعجمية: مقارنة نظرية ومطبقة، مصطلحاتها ومفاهيمها، محمد رشاد الحمزاوي، مركز النشر الجامعي، تونس، دط، 2004، ص18.

2- علم اللغة وصناعة المعجم، عليّ القاسميّ، ص1.

3- ينظر للاستئناس: جدولاً مفصلاً لمقابلات هذين المصطلحين عند أشهر المعجميين العرب، أورده أحمد حابس في مقال بعنوان "صناعة المعاجم وعلم المفردات، دراسة في أبستمولوجيا المصطلح" تم نشره في مجلة اللسانيات واللغة العربية جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، ع 02، 2006م، ص114، 115.

ولا شك أنّ التعدد في دوالّ المفهوم الواحد يوحي بعدم استقرار المصطلح، وهذا راجع إلى اختلاف الباحثين في صناعة المصطلح وتوليده، رغم توافقهم في تصور العلاقة التي تربط بين المفهوم والمصطلح الذي يعبر عنه، لذلك نرى أنه آن الأوان للمعاجم العربية المتخصصة في مثل هذه القضايا أن توخّد المصطلحات في مصطلح واحد يكون الإجماع عليه دونما تردد، سعياً منها لإرساء أسس علم المعجمية.

ولتلافي مثل هذا الواقع الذي يكون فيه الاختلاف في الاجتهاد في وضع المصطلح قد تمكن وترسخ، ويتعسر معه الجمع والتوفيق؛ اقترح أحد الدارسين أن "تبادر مكاتب التنسيق لتدرأ الارتجال في وضع المصطلح، فتتولى الجمع والعرض على المجامع والجامعات، لتقول هذه الهيئات رأياً فيها وتجتهد، ثم تنسق هذه الآراء وتعرضها على المتخصصين الثقات تمهيداً لإضافتها إلى المعجمات... وعرضها على مؤتمرات التعريب لإقرارها"¹.

وبعد اطلاعنا على الاختلاف الحاصل في وضع المصطلح، فإننا نرى أنه ليس يكون قبلاً أو ذيوغاً إلا للمصطلح الأصح والأنسب، ومزود ذلك إلى دقة اللغة العربية وقدرتها على استيعاب هكذا مفاهيم، وليس يفصل بيننا وبين ذلك إلا الزمان وكثرة الاستعمال، وهو منزع جنح إليه على القاسمي وهو يناقش هذه المسألة في إحدى كتاباته.

3.2. أسس المعجمية الحديثة وأصولها في التراث المعجمي العربي القديم:

فنّ المعاجم فنٌّ يتطور بتطور الزمن، وقد خطا خطوات فسيحة في القرنين الأخيرين، فأضحى علمًا مستقلاً بذاته، له علماءؤه ورواده وضوابطه ومصطلحاته، وتوالت الإبداعات والإصدارات في هذا الفن، حيث إنه مع "بداية عصر النهضة، وتوافر الطباعة، والرغبة في صنع معاجم تخدم الأهداف، وتتجنب عيوب المعاجم القديمة - كما زعموا- لاحت في الأفق نهضة معجمية قوية، وجاءت المعاجم العربية الحديثة تلبية للمتطلبات الدراسية والنشاطات الأدبية واللغوية والثقافية"².

¹ - دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، شحادة الخوري، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، ط3، 1992م، ص176.

² - من القضايا المعجمية العربية، عفيف عبد الرحمان، الأردن، منتدى مجمع اللغة العربي الرباط:

<http://www.m-a-arabia.com/vb/showthread.php?t=14959>

ورغم أن صناعة المعاجم تطورت تطورا ملحوظا مع مطلع عصر النهضة، إلا أن جذور المعجم العربي الحديث في التأليف العربي أصيلة وقديمة، نابعة من حاجة وهدف، ذلك لأن المتتبع لحقل المعجمات يجد أنها مرّت بمراحل عدة إلى أن وصلت إلى مرتبة الصناعة، حيث شهدت تتابعا وتواليا منذ وقت مبكر، لا يكاد يتجاوز القرن الثاني الهجري، واستمرت إلى يوم الناس هذا، بل وتنوعت بشكل يندر أن تراه في معاجم لغات أخرى، ومع تتابعها وتنوعها، فإنه لا يكاد يغني بعضها عن بعض.

ثم إن نظرةً متفحصةً في معاجمنا العربية الحديثة تدلنا على أن أكثرها -على الأقل إلى غاية منتصف القرن العشرين- قامت في مبدئها العام على نقل اللاحق عن السابق، أي: إن أصحابها اعتمدوا على المعاجم القديمة، ذلك لأنها "لم تتعرض إلى اللغة المعاصرة، أي المولّد من الألفاظ إلا قليلا، رغم وقوع هذا المولّد على قياس كلام العرب، مثل السيارة والباخرة والقطار وغير ذلك"¹، والسبب في ذلك اعتماد نظرية الاحتجاج التي باتت عاملا بارزا في قصور المعاجم العربية، فقد وجد المعجميون المحدثون "المادة اللغوية مجموعة مُعدّة تحت أيديهم، فما كان عليهم إلا أن يوجّدوا أسسا جديدة، يقيمون عليها معجماتهم"².

ويؤكد لنا هذا مدى تأثير المعجم العربي الحديث بالمعاجم العربية القديمة، وهو أمر طبيعي، بحكم أن "سلامة كل لغة إنما تكون بالمحافظة على إرثها المميز لها عن غيرها، كنوع تأليف الكلام وطريقة إيراده، وخصوصية أساليبه، وروعة بيانه مع غرابة إيجازه، ثم بزحزحتها عن الجمود، والأخذ بها نحو التطور مع علو همّة أهلها المتكلمين بها، ليجدوا فيها المرونة المواتية لهم في التعبير عن أفكارهم، ومستحدثات حضارتهم، وبدائع تطوراتهم"³، وهو ما نكاد نلمسه في تلك المحاولات المعاصرة في صناعة معجم عربي حديث ولو بشكل نسبي، حيث ظهر ذلك جليا في كتابات أحمد فارس الشدياق (ت1887م)، وإبراهيم اليازجي (ت1906م)، وعبد الله البستاني (ت1930م)، وأحمد رشيد (ت1948م) وغيرهم.

¹ - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمان الحاج صالح، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2012م، ج2، ص136.

² - المعجم العربي، حسين نصار، ص340.

³ - ينظر: تطور المعجم العربي، من مطلع القرن التاسع عشر حتى عام 1950م، حكمت كشلي، دار المنهل اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 2002م، ص373، 374.

4.2. المعجمية وعلاقتها بالعلوم المجاورة:

رغم أنّ "المعجمية علم متميز عن غيره وله أهميته، ولكن نؤمن أيضا بأنّ هذا العلم يمكن أن يجد مكانته داخل مجموعة أوسع من العلوم"¹، فهو بلا ريب؛ يمتد إلى الفروع اللسانية الأخرى ليشاركها القضايا والمسائل البنائية والمعنوية التي تحتمها الأوضاع المختلفة للكلمات.

ومن المسلمّ به عند اللسانيين المحدثين أنّ المفردات هي قوام المعجم، وأنّ المفردة دليل لغوي يتكون من وجهين: الدال الذي يمثل المبنى، والمدلول الذي يمثل المعنى، والدال يتكون من توليف صوتي وبنية صرفية، والمدلول متكوّن من المعنى أو المفهوم الذي يربط الدال بمرجع ما خارج اللغة.

فإذا كانت نظرية المعجم هي نظرية المفردات، وإذا كانت المفردة في جوهرها أصوات مع بنية صرفية مع دلالة، فإن علم الأصوات وعلم الصرف وعلم الدلالة - وهي من فروع علم اللغة- تصبح من مكونات النظرية المعجمية²، يفسر ذلك ما ذهب إليه حلمي خليل، حيث يرى أن علم المعاجم "علم يهتم بدراسة المفردات أو الكلمات في لغة معينة أو عدة لغات من حيث المبنى والمعنى، أمّا من حيث المبنى فهو يدرس طرق الاشتقاق والصيغ المختلفة، ودلالة هذه الصيغ من حيث وظائفها الصرفية والنحوية، وكذا العبارات الاصطلاحية وطرق تركيبها، أما من حيث المعنى، فهو يدرس العلاقات الدلالية بين الكلمات مثل الترادف والمشارك اللفظي وتعدد المعنى وغير ذلك"³.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن حياة المفردة لها ارتباط وثيق بعلوم إنسانية غير علوم اللغة التي ذكرناها، نعدّ منها علم النفس والفلسفة وعلم الاجتماع، والتاريخ والحاسوب وغيرها من العلوم، من هنا بات علم المعاجم، وبهذا التوصيف، يشكل همزة وصل بين هذه العلوم على اختلافها وتنوعها.

أ- المعجمية وعلم اللسانيات:

تتجلى العلاقة بين المعجمية وعلم اللسانيات من خلال توظيف المعجمية للنظريات اللسانية الحديثة بفرعها النظري والتطبيقي، حيث "اعتبر علماء اللغة المعجم مؤخرًا - نظرًا لأنه يختص بمعالجة الجانب العملي للغة- فرعًا من فروع علم اللغة التطبيقي، ويبيّن هارتمان (R.R.K. Hartmann)

¹ - منهجية المعجمية، جورج ماطوري، تر: عبد العلي الودغيري، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، دط، ص111.

² - ينظر: مقدمة لنظرية المعجم، إبراهيم بن مراد، مجلة المعجمية، تونس، ع 09-10، 1994م. ص59.

³ - مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، دط، 2003م. ص13.

هذه الصلة قائلاً: "إذا أمكن تفسير علم اللغة التطبيقي على أنه يقدم حلولاً وأطراً لمشكلات اللغة فذلك ينطبق على المعجمية، ويصبح المعجمي واحداً من علماء اللغة التطبيقيين"¹.

وكما يرتبط المعجم باللسانيات التطبيقية، فهو لا يستغني عن اللسانيات النظرية، يقول هارتمان: "إن تأليف معجم يقتضي فكرة عن الكلمة، وعن استعمالها في الخطاب التبادلي، والعلم الذي يساعد على ذلك هو علم اللغة، ولذا؛ فإن كثيراً من الكتابات المعجمية قد ارتبطت بنظريات علم اللغة بعامة، ونظريات الدلالة المعجمية بوجه خاص"²، ويكون ذلك بتضمين المعجم للمعلومات الصوتية والصرفية والنحوية التي تزيد من توضيح المادة المعجمية وضبطها داخل المعجم، وعناية اللسانيات بالمعجم نابعة من حاجة كل دارس في مجال اللغة، وكل متصدّد لانتقال فنونها شعراً ونثراً إلى المعجم، حتى لا يخرج عن الأعراف اللغوية، وحتى يكون في مكنته مسaire روح العصر، ومقتضيات الحضارة؛ حيث باتت المعاجم تشكل مرجعاً أساساً للغة العربية عبر العصور، كونها صناعة لغوية، ووسيلة هدفها جمع اللغة ووصفها.

ب- المعجمية وعلم الأصوات:

علم الأصوات علم لغوي محض، يبحث في الخصائص المميزة للأصوات الإنسانية³، وهو علم وثيق الصلة بالمعجم، حيث تقوم غالبية المعاجم بتقديم المعلومات الصوتية للمداخل المعجمية، من خلال تبيان طريقة تلفظ هذه المداخل، لأن التلفظ جزء أساسي في الوصف اللغوي الذي تهتم به المعاجم، وهذا راجع إلى الأهمية البالغة التي أصبحت تكتسيها الكلمة المنطوقة في عصر الراديو والهاتف والتلفاز والمسجّل⁴، وهو ما يؤكد العلاقة الوطيدة بين المعجمية وعلم الأصوات (الفونولوجيا).

ج- المعجمية وعلم الصرف:

إن الاشتغال باشتقاق الألفاظ وتبيان أبنيتها هو من صلب العمل المعجمي، حيث إن كل المعاجم القديمة إنبتت على الجذور، وقضية إرجاع المشتقات إلى جذورها قضية صرفية خالصة. كما

¹ - Lexicography. a Contrastive Survey, R-R-K Hartmann, in annual review of applied linguistics, Vol.5, Cambridge, 1984, p132

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 132.

³ - ينظر: مقدمة لنظرية المعجم، إبراهيم بن مراد، ص 59.

⁴ - ينظر: علم اللغة وصناعة المعجم، عليّ القاسمي، ص 49.

أن المعاجم العربية حافلة بالمسائل الصرفية، الأمر الذي يؤهلها لأن تكون مراجع لعلم الصرف جنباً إلى جنب مع الكتب التي صنفت في هذا الفن، بل ربما وجدت فيها من دقائق علم الصرف ما لم تجده في غيرها من المصنفات المتخصصة في هذا العلم، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة.

ومن مظاهر تأثير المعجمية بعلم الصرف طريقة ترتيب الجذور والأصول، كونها مداخل معجمية وفق مناهج الترتيب المعروفة، والتي تمت الإشارة إليها سالفاً، كما أنك تجد بعض المعاجم تقوم بترتيب الكلمات في كل مدخل وفق أصول صرفية، كما هو الشأن في المعجم الوسيط، حيث أشار واضعوه في مقدمته إلى تلك المنهجية في الترتيب، من ذلك تقديمهم للأفعال على الأسماء، و كذلك تقديم المجرد على المزيد من الأفعال، وتقديم الفعل اللازم على الفعل المتعدي¹، وملاحظ ذلك التأثير متناثرة في ثنايا المعاجم العربية، وهي بادية لكل دارس، ك معالجة بعض المعاجم لدلالة البنية الصرفية للكلمات، كما هو الشأن بالنسبة لحروف الزيادة وغيرها من البنى الصرفية، وضبط عين الفعل المجرد في الماضي والمضارع، وذكر صيغ جنس اللفظ مذكر هو أم مؤنث، وبيان صيغ جمع التكسير وغيرها من الصيغ الصرفية.

د- المعجمية وعلم النحو:

النحو والمعجم فرعان مهمّان من فروع اللغة، وتتغير علاقة المعجم بالنحو من نظرية لغوية إلى أخرى، فهذا نعوم تشومسكي (Noam Chomsky) مثلاً؛ يرى أن النحو مشتمل على المعجم، ويرى بلوم فييلد (Bloomfield) أن المعجم في حقيقة الأمر ما هو إلا ملحق للنحو، ويرى آخرون أن الفصل الحدي بين المعجم والنحو في بعض العمليات أمر ضروري².

ولقد جرت الأعراف المعجمية بأن يصدر المعجم بكلمة مختصرة في نحو اللغة، لذلك يشترط علم اللغة الحديث على المعجمي أن يكون ملماً بنحو اللغة التي يتناولها، ومردّ ذلك إلى أنّ للكلمة في المعجم معنيين: معنى عامّاً في ذاتها، ومعنى خاصّاً تتحمّله في حال ورودها في السياقات والتراكيب المختلفة، وهنا تظهر أهمية النحو في تحديد معاني الكلمة التي تعدّ من صلب عمل المعجمي، وعليها مدار بحثه.

¹ - ينظر: مقدمة المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ص 29.

² - ينظر: مقدمة لنظرية المعجم، إبراهيم بن مراد، ص 33 وما بعدها.

هـ- المعجمية وعلم الدلالة:

علم الدلالة هو أحد فروع علم اللغة، جاء في تعريفه أنه "العلم الذي يدرس المعنى"، أو هو "الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى" أو هو "ذلك العلم الذي يدرس الشروط الواجب توفرها في الرمز حتى يكون قادرا على حمل المعنى"¹.

وعلاقة الدلالة بالمعجم قديمة قدم الدراسات اللغوية، لصلة الدلالة بالمعنى، وصلة المعنى بالتعريف المعجمي، وكما هو مقرر، فإن "المعنى يقع في بؤرة اهتمام المعجمي لأنه يعد أهم مطلب لمستعمل المعجم"²، يؤكد ذلك ما ذهب إلى بعض الباحثين حين قسموا علم الدلالة إلى نوعين: **دلالة معجمية**، وتهتم ببيان معاني المفردات، ويسمونها بعضهم المعاني المعجمية، وهي التي تسجل معاني الألفاظ في أصل الوضع، وتمثل نقطة البداية للدلالات الأخرى التي تضيف إليها ما تكتسبه من معان تتصل بالاستعمال، ومن خلالها تتبدى علاقة المعجم بعلم الدلالة، و**دلالة بنيوية**: مرتبطة بالتركيب، وتهتم ببيان معاني الجمل والعبارات، ويسمونها بعضهم المعاني النحوية.³

وأضاف بعضهم نوعين آخرين للدلالة وهما الدلالة الصوتية؛ وتظهر في القيمة التعبيرية للأصوات، ذلك لأن "للحرف في اللغة العربية إيجاءً خاصاً، فهو إن لم يكن يدل دلالة قاطعة على المعنى؛ يدل دلالة اتجاه وإيجاء، ويثير في النفس جواً يهيئ لقبول المعنى ويوجه إليه ويوحى به"⁴، ومن القضايا المتعلقة بهذا النوع من الدلالة النبر والتنغيم وغيرهما. ونوع رابع هو: الدلالة الصرفية، وتؤخذ هذه الدلالة من صيغ المفردات وأبنيتها، بحيث تحمل الصيغ المختلفة الناجمة عن الاشتقاق دلالات متنوعة، كاسم الفاعل، واسم المفعول وصيغ المبالغة، وأسماء المكان وأسماء الزمان وغيرها.

من هنا؛ يظهر جلياً أن علم الدلالة لا يمكن فصله عن غيره من فروع اللغة، فهو غاية الدراسات الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية، ومن أجل ذلك تفرعت الدلالة إلى دلالة صوتية

¹ - علم الدلالة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1996م، ص11.

² - المعجم والدلالة- نظرة في طرق شرح المعنى، أحمد مختار عمر، مجلة المعجمية، تونس ع12-13، عام 1997م، ص135.

³ - ينظر: الكلمة في اللسانيات الحديثة، عبد الحميد عبد الواحد، مؤسسة حورس الدولية، مصر، ط1، 2016م، ص203.

وينظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص6، 7.

⁴ - فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دار الفكر ط2، 1964م، ص261.

ودلالة صرفية ودلالة نحوية (تركيبية) ودلالة معجمية، فإذا أردنا أن نحدد معنى الحدث الكلامي، فلا بد أن نقوم بملاحظة الجانب الصوتي الذي قد يؤثر في المعنى، كما هو الشأن مع التنغيم والنبر. ومما ينبغي مراعاته هو البنية الصرفية للكلمة، وكذا بيان المعاني المفردة للكلمات، ومن ثم دراسة الوظيفة النحوية لكل كلمة داخل الجملة¹.

و- المعجمية وعلم المصطلح:

علم المصطلح أو المصطلحية "علم حديث يبحث في العلاقة بين المفاهيم العلمية والألفاظ اللغوية التي تعبر عنها، وهو علم مشترك بين علوم عدة أبرزها علم اللغة، والمنطق والمعلومات وعلم الوجود وعلم المعرفة، وحقول التخصص العلمي"². أمّا عن صلته بالمعجمية فقد اختلف الباحثون في ذلك، حيث يعدّ فريق منهم المصطلحية علماً مستقلاً بذاته لما يراه من اختلاف بينه وبين علم المعجم، ويرى فريق آخر الفصل بين الاثنين فصلاً مصطنعاً، وأنّ في المصطلحية امتداداً للمعجم³، والصواب أن المذهب الأول أقوى وأولى.

والتحقيق في المسألة يظهر أن **المصطلحية** فرع عن علم المعجم، ويطلق عليه إبراهيم بن مراد اسم **المعجمية المختصة**، ذلك لأن علم المعجم يتكون من فرعين كبيرين: **المعجمية العامة** وقوامها الألفاظ العامة، و**المعجمية الخاصة**، وقوامها المصطلحات، وفيها مبحثان أحدهما نظري يوافق ما يسمى (**Terminology**)، وموضوعه البحث في المصطلحات من حيث مكوناتها ومفاهيمها، ومناهج توليدها، وثانيهما تطبيقي يوافق ما يسمى (**Terminography**)، وموضوعه البحث في المصطلحات من حيث مناهج تقييسها، ومناهج تكتيزها جمعاً ووضعا⁴، لذلك يعدّ علم المصطلح من أبرز الروافد التي تأخذ منها المعاجم مادتها، حيث يرى ابن حويلي أن المعاجم "تعد جانباً تطبيقياً

¹ - ينظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 12-13.

² - علم اللغة وصناعة المعجم، عليّ القاسمي، ص (ل) من المقدمة.

³ - المصطلحية وعلم المعجم، إبراهيم بن مراد، ص 5.

⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص 6.

لعلم المصطلح"¹، الأمر الذي يؤكد متانة الرابطة بين العلمين، فإذا كان المصطلح هو مفتاح العلوم، فإن المعجم هو مستودعها، فلا علم من دون مصطلحه، ولا تخصص من دون معجمه.

وهناك علوم أخرى غير التي ذكرنا هي على علاقة وثيقة بعلم المعجمية، تتحدد علاقتها بما بحسب طبيعة هذه العلوم، وما تقوم عليه من أصول وأسس نظرية، منها علم التاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم الحاسوب وغيرها.

وأخيراً، ينبغي التنبيه إلى أن النظرية اللسانية العربية عاجلت المعجم كمستوى لساني مستقل بذاته، وحددت له قوانينه وأسس النظرية انطلاقاً من نظرية الوضع والاستعمال، أما عن تعالق المعجمية مع غيرها من العلوم فلا يعني البتة عدم استقلالها بنفسها، بل إن تشعب مجالات المعجمية بشقيها النظري والتطبيقي، وزيادة العلوم وتطورها، هو الذي جعل الباحث المعجمي يغوص فيها ويوسع نظره حولها من أجل جمع المادة المعجمية وشرحها وترتيبها وفق منهجية واضحة، وكنتيجة لتعالق المعجمية مع غيرها من العلوم، فقد أصبح "كل علم يصنع لنفسه معجماً خاصاً"².

3. مناحي الدراسة المعجمية:

قام التأليف المعجمي منذ الخليل بن أحمد الفراهيدي على ركنين أساسيين هما: **الجمع والوضع**، وهما مصطلحان قديمان ذكرهما ابن منظور في مقدمة لسانه، حيث قال: "وإني لم أزل مشغولاً بمطالعة كتب اللغات والاطلاع على تصانيفها، وعلل تصانيفها، ورأيت علماءها بين رجلين: أمّا من أحسن جمعه فإنه لم يحسن وضعه، وأمّا من أجاد وضعه، فإنه لم يُجدّ جمعه"³. وأصبح هذان المصطلحان اللسانيان قارئين يستعملان في الوصف اللساني الحديث لتأليف المعاجم، ولا فرق في هذا بين المعجم العام والمعجم الخاصّ، فكلاهما يشتركان في هذين الركنين، وإن اختلفا في عناصر التطبيق.

1- المعجمية العربية في ضوء البحث اللساني والنظريات التربوية الحديثة، ابن حويلي الأخضر ميدني، دار هومة، الجزائر، 2010م، ص 77.

2- قاموس اللسانيات (عربي-فرنسي، فرنسي-عربي) مع مقدمة في علم المصطلح، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، دط، 1984م، ص 12.

3- مقدمة لسان العرب، ابن منظور، ص 11.

1.3. الجمع: أو ما يصطلح عليه اليوم بالمتن المعجمي أو المادة المعجمية، وهو جمع الرصيد المفرداتي الذي يجعله المعجمي قوام قاموسه، حيث يفرض عليه تحديد المادة التي يجب أن يستوعبها معجمه، وذلك باتباع خيارات عدة، منها ضبط حجم المعجم، ومراعاة قدر المصطلحات الفنية والتقنية منه، وحظّ المستويات اللغوية المختلفة (الفصيح، المولد، العامي، المعرب، الدخيل...) التي يجب إدراجها، وخاصة نصوص الاستشهاد التي يستند إليها للتعريف بمختلف معاني الكلمة الواحدة في سياقات متعددة¹، وأهم عناصره اثنان هما:

1.1.3. المصادر التي تُعتمد في جمع الوحدات المعجمية: وهي "المظانّ التي يرجع إليها المعجميّ لجمع المادة اللغوية التي يريد إثباتها في القاموس الذي يتبني تأليفه"²، ويصطلح على هذه المادة المعجمية المسحبة الأولية التي منها يتم انتقاء المتن المعجمي بالمدونة³، وهي في مفهوم اللسانيات الوصفية الحديثة: مجموع المداخل اللغوية التي يتكون منها القاموس، ويعرفها عليّ القاسمي بأحدا: "مجموعة من النصوص تمثل اللّغة في عصر من عصورها، أو في مجال من مجالاتها، أو في منطقة جغرافية معينة، أو في مستوى من مستوياتها، أو في جميع عصورها ومجالاتها ومناطقها ومستوياتها"⁴، وهي عند رشاد الحمزاوي "مجموعة معينة من النصوص المكتوبة أو المقولة، أو مجموعة من المراجع المختارة، تؤخذ سندا لوضع أسس لغة ما أو معجم، أو مؤلف في موضوع من المواضيع، وغايتها منهجية تضبط حدود الموضوع زمانا ومكانا وميدانا"⁵.

وأبرز هذه المصادر التي استقت منها المعاجم العربية القديمة مادتها، على الأقل إلى غاية القرن الرابع الهجري هي: القرآن الكريم وقراءاته المختلفة، والحديث النبوي الشريف، والشعر العربي الفصيح، لاسيما الشعر الجاهلي، وشعر صدر الإسلام، والمأثور من كلام فصحاء العرب، وأقوال أئمة العربية المتقدمين، بالرواية عنهم مشافهة، أو النقل من مؤلفاتهم، وأما عند المحدثين، فيضاف إلى المصادر

¹ - ينظر: من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا، رشاد الحمزاوي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1986م، ص 141

² - من المعجم إلى القاموس، إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2010م، ص139.

³ - ينظر: القاموسية العربية الحديثة بين تنمية الفصحى وتحديث القاموس والتأريخ للمعجم، عبد العلي الودغيري، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2019م، ص41.

⁴ - ينظر: علم المصطلح، عليّ القاسمي، ص 701.

⁵ - من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا، رشاد الحمزاوي، ص 139.

السابقة: الهيئات والمؤسسات العلمية العاملة في مجال المعجم والمصطلح والترجمة، وكذلك الأدباء والشعراء المحدثون، ووسائل الإعلام والصحافة.¹

2.1.3. المستويات اللغوية التي تنتمي إليها المفردات المعجمية: ونعني بها درجات استعمال المادة اللغوية، ويتم اختيار المناسب من الرصيد المجموع من المصادر، إلا الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجم العين؛ فقد نهج نهجا استقصائيا، كان يرمي من خلاله إلى محاصرة كل ما تستعمله العرب من كلمات ما أمكنه إلى ذلك سبيلا، فكانت غايته استيعاب كلام العرب كون معجمه أول معجم عربي وضع للناس، أما غيره مثل الأزهري في تهذيبه والجوهري في صحاحه، فقد قسموا الكلمات إلى أربعة مستويات: **فصيح ومولّد وعمّي وأعجمي مقترض.**

* **فصيح:** وهي المادة اللغوية الفصيحة التي تخضع لنظرية الاحتجاج، تؤطرها حدود مكانية وأخرى زمانية، وضعها علماء العربية الأوائل:

أمّا الحدود المكانية؛ فقد تم الاقتصار فيها على مجموعة من القبائل العربية التي نُقلت اللغة عنها وهي: قيس وأسد وقيم وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، وتقع كلها في وسط الجزيرة العربية، يقول السيوطي: "والذين عنهم نُقلت اللغة العربية، وهم افتندي، وبنهم أخذ اللسان العربي، هم قيس وقيم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتّكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم"².

وأمّا الحدود الزمانية؛ فهي إلى غاية النصف الثاني من القرن الهجري، "فكان آخر من يحتج بشعره إبراهيم بن هرمة (150هـ)، الذي ختم به الأصمعي الشعر، أمّا أهل البادية فقد استمر العلماء يدونون لغاتهم، حتى فسدت سلاتقهم في القرن الرابع الهجري"³.

* **مولّد:** وهو اللفظ الذي استعمله الناس قديما بعد عصر الرواية والاحتجاج، ويعرفه حلمي خليل بأنه "كلّ خروج على استعمال العرب الذين يحتج بكلامهم طبقا لمعايير الزمان والمكان والجنس

¹ - ينظر: الدلالة المعجمية عند العرب، دراسة نظرية وتطبيقية، ربيعة براق، رسالة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012م، ص 262.

² - الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين السيوطي، تحقق: عبد الحكيم عطية، دار البيروني، ط2، 2006م، ص 47.

³ - من تاريخ النحو، سعيد الأفغاني، دار الفكر، ص 19، 20.

التي أرسّتها نظرية الاحتجاج، سواء كان هذا الخروج في اللفظ أو المعنى أو النحو أو التصريف أو فيها جميعاً¹.

* **عامي**: وهو "ما نطق به العامة على غير سنن الكلام العربي، والعامية هي لغة العامة خلاف الفصحى"².

* **أعجمي مقترض**: هو ما أدخل العربية من اللغات الأخرى، واشتروا فيه استعماله في نصّ فصيح كالشعر الجاهلي.

أما عن مواقف واضعي المعاجم من هذه التصنيفات الأربع، فمنهم من تناولها كلها كما فعل الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتابه "العين" حيث تجد المستويات الأربعة، بل وأضاف إليها ما دَوَّنه عن عامة عصره من ساكنة البصرة والكوفة، وحتى أهل مصر والشام، وهذا من قبيل المستعمل، أما مَنْ جاء بعده؛ فقد أخذوا بالفصحى أولاً، ثم الأعجمي بشرطه ثانياً، وأسقطوا العامي والمولّد ولم يعترفوا بهما.

وكان من شأن علماء اللغة أن اقتصروا على الفصحى من الألفاظ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، حيث "كان الملتزمون بنقاء اللغة وصفائها يتمسكون باللغة الفصحى ما تيسر لهم ذلك، فقد قيّدوا كلماتها دون غيرها، وشرحوها في معاجمهم الكثيرة"³، فهذا الجوهري يقول في مقدمة صحاحه: "فإني قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة التي شرف الله منزلتها، وجعل علم الدين والدنيا منوطاً بمعرفتها"⁴، وهذا ابن دريد يقول عن جمهرته: "وإنما أعرناه هذا الاسم، لأننا اخترنا له الجمهور من كلام العرب، وأرجأنا الوحشي المستنكر"⁵، حتى أضحي المتمعن في المعاجم العربية القديمة يلحظ من أسمائها غرض أصحابها، وطريقة جمع مادتها، من فرط ما توحى بذلك أسماؤها.

¹ - مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، ص 116.

² - ينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص 629.

³ - تكملة المعاجم العربية، رينهارد دوزي، تر: محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، العراق، دط، 1980م، ج 1، ص 14.

⁴ - تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقق: محمد تامر، دار الحديث، القاهرة، 2009م، ص 16.

⁵ - جمهرة اللغة، (أبو بكر محمد بن الحسن)، دار المثقّى، بغداد، ط 1، 1344هـ، ص 41.

2.3. الوضع: ويقابله في اللسانيات الحديثة مصطلح **المعالجة القاموسية**، وهو منهج متبّع لمعالجة المفردات المجمعّة معالجة قاموسية، يُعنى بكيفية وضع المفردات المختارة في الأثر المكتوب، ويقوم على ركنين أساسيين هما:

1.2.3. الترتيب: وهو المنهج المعجمي المتبع في تبويب المداخل وتنظيمها داخل القاموس، وتفصيل تتابعها، حتى يسهل على القارئ العثور على كل منها بسهولة ويسر¹. يقول عليّ القاسمي: "نعني بترتيب مداخل المعجم الطريقة أو المنهج الذي يتبعه المعجمي في تنظيم الثروة اللفظية المختارة من مورفيمات (وحدات صوتية)، وكلمات وتعابير اصطلاحية وسياقية وعرضها في المعجم بحيث يستطيع القارئ، أو مستعمل المعجم المطلع على تلك المنهجية العثور على بغيته بسهولة وسرعة"².

والترتيب نوعان:

أ-ترتيب خارجي: ويسمى الترتيب الأكبر، ويتعلق الأمر بترتيب المداخل وفق طريقة من طرائق الترتيب القائمة على الحروف الهجائية أو غيرها، وتختلف طريقة ترتيب المادة المعجمية من معجم لآخر، فمنها ما يعتمد على الطريقة الألفبائية، وهي بدورها أنواع عدة، ومنها ما يعتمد على طريقة الموضوعات والأبواب والحقول المعرفية³، وهذه الطرق مجتمعة اعتمدها المشاركة منذ ق 8م، والغريون منذ ق 17م، ولا يزال الأمر جاريا بها إلى اليوم.

ب-ترتيب داخلي: ويسمى الترتيب الأصغر، ويكون بترتيب المعلومات الواردة تحت المدخل الواحد ترتيبا خاصا، وهذا النوع من الترتيب هو الذي عدته معاجنا العربية القديمة، فإذا تصفحت معجما منها وجدت خلطا للأسماء بالأفعال، والثلاثي بالرباعي، والمجرد بالمزيد...، مما يجعل الكشف عن كلمة ما يتطلب مراجعة للمادّة كلها، من أولها إلى آخرها.⁴

2.2.3. التعريف: وهو الهدف المنشود من وراء صناعة المعاجم، ونعني به شرح المفردات، ويكون بالإخبار عن الخصائص الذاتية والخصائص العلاقية التي تكوّن للمفردات⁵، بحيث يتم إيراد كلّ

¹ - ينظر: القاموسية العربية الحديثة، عبد العليّ الودغيري، ص 41.

² - المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، عليّ القاسمي، مكتبة لبنان - ناشرون-ط1، 2003م، ص 45

³ - ينظر: القاموسية العربية الحديثة، عبد العليّ الودغيري، ص 41.

⁴ - ينظر: البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 295.

⁵ - المعجم العربي بين النظرية والتطبيق، إبراهيم بن مراد، جامعة منوبا، تونس، دط، 2009م، ص 10.

المعلومات الضرورية حول كلّ مدخل (صوتية، صرفية، تركيبية، دلالية، تاريخية، تأثيلية، وغيرها). وللتعريف ثلاثة أنواع رئيسة، هي: **التعريف اللغوي، والتعريف المنطقي، والتعريف المصطلحي**¹.

ورغم إدراك المعجميين العرب لفوائد التعريفين المنطقي والمصطلحي، إلا أنهم أعرضوا عنهما، ومالوا إلى التعريف اللغوي غالباً، لأن المعجم في نظرهم قائمة من الكلمات والأسماء وليس مجموعة من الذوات والأشياء، فقد كان همهم تعريف الكلمات لا الذوات، وإن كان واقع الحال يفرض على المعجميين بين الفينة والأخرى عدم "تحاشي الحديث عن الأشياء وهم بصدد تعريف الكلمات، كما لا يمكنهم تجاهل المفاهيم التي تعبر عنها تلك الكلمات، ونتيجة لذلك، فإن التعريفات المعجمية لا يمكن إلا أن تكون خليطاً من أنواع مختلفة من التعريفات التي يوصي بها الفلاسفة واللغويون والمصطلحيون"².

وبناء على ذلك، سيقصر حديثنا على **التعريف اللغوي**، ويطلق عليه **التعريف المعجمي**، لأنه يستخدم عادة في المعاجم العامة، أو **التعريف اللفظي**، لأنه يتعلق بمعاني الألفاظ، حيث يعيد معنى اللفظ المعرف بألفاظ أخرى، أو **التعريف الاسمي**، لأنه يعرف الأسماء لا الأشياء، أو **التعريف العلاقي**، إشارة إلى العلاقات بين ألفاظ العبارة الواحدة. وهو من اختصاص اللسانيين، ويرمي هذا النوع من التعريف إلى إيضاح معنى الكلمة في سياقاتها اللغوية المختلفة، فكلمة (عين) مثلاً لها عدة معانٍ، تتغير بتغير السياق الذي ترد فيه، فتأتي مرة بمعنى (العين الباصرة)، وتارة بمعنى (عين الماء)، وأخرى بمعنى (عين الإبرة)، وهكذا³.

ولمحاورة المعنى وتقريبه إلى المتلقي، استعان المعجميون العرب بجميع الوسائل اللسانية والمعجمية، أبرزها:

- **التعريف بالمرادف**: ومثاله: (تعريف الغضنفر: الأسد)، و(تعريف المداد: الحبر).
- **التعريف بالضد**: أو النقيض، ومثاله: (تعريف الكبير: ضد الصغير).
- **التعريف الاشتقائي**: ويكون بذكر أحد المشتقات، فتعريف الحريري: (من يبيع الحرير)⁴.

¹ - المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، عليّ القاسمي، ص 73.

² - المرجع نفسه، ص 75.

³ - ينظر: علم المصطلح، عليّ القاسمي، ص 789.

⁴ - المرجع نفسه، ص 790.

- **التعريف الموسوعي:** قد لا يكتفي المعجمي بالمعنى اللغوي لاسم الشيء، بل يضيف شيئاً من خصائصه، ومثاله: (تعريف نبات الخردل: نبات عشبي حريف من الفصيلة الصليبية، ينبت في الحقول وعلى حواشي الطرق تستعمل بذوره في الطب، ومنه بذور يتبل بها الطعام).

- **التعريف بالسياق:** السياق في الاصطلاح هو: "النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم، وكلّ ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام"¹، وهو أحد الوسائل المهمة التي تساعد في شرح المعنى. وأشهر أنواع السياق اثنان: **لغوي وغير لغوي**. أما **السياق اللغوي**؛ فهو ما يصاحب اللفظ ممّا يساعد على توضيح المعنى². وهو المستفاد من عناصر مقالية داخل النص³، فالكلمة لا تملك وجوداً مجرداً لذاتها، إنما يتحقق وجودها بوضعها في سياقات لغوية مختلفة، وأما **السياق غير اللغوي**، فهو اصطلاح فيّ يعنى بدراسة الكلام في المحيط الذي يقع فيه، وهو "المستفاد من العناصر غير اللغوية التي تصاحب النص"⁴، ويشمل هذا السياق العبارات الاصطلاحية التي تتردد في ظروف اجتماعية معينة⁵.

4. مصطلح غريب الحديث والأثر:

1.4. معنى الحديث النبوي الشريف لغة واصطلاحاً:

- **الحديث لغة:** الحديث: الجديد. جاء في لسان العرب: الحديث نقيض القديم⁶. وجاء في المعجم الوسيط: حَدَّثَ الشَّيْءُ حَدوثًا وحَدَاثَةً، نقيضُ قَدُمٍ... وحَدَاثَتُهُ: كالمه، وحَدَّثَ: تكلم وأخبر،

¹ - دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان (بتصرف)، ترجمة: كمال بشر، ط: مكتبة السباب، القاهرة، ص 62.

² - المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث. محمد أحمد أبو الفرج، ط دار النهضة العربية، 1966م، ص 116.

³ - دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، عبد الفتاح البركاوي، ص 30.

⁴ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁵ - ينظر: علم اللغة بين التراث والمعاصرة، عاطف مذكور، دار الثقافة، القاهرة، 1987م، ص 243.

⁶ - لسان العرب، ابن منظور، مجلد 2، ص 796.

وحدّث: روى حديث رسول الله ﷺ، وتحادث القوم: تحدّثوا¹. ويجمع على أحاديث على غير قياس، لأن واحد الأحاديث أحذوثة، ثم جعلوه جمعا للحديث².

- الحديث اصطلاحا: يختصّ الحديث بما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة³. وهذا التعريف هو المشهور عند علماء الحديث، وأضاف إليه بعضهم "أقوال الصحابة التي تروي أفعاله أو أحواله، أو ما وقع في زمانه، وربما اشتملت كتب الحديث على أقوال التابعين أيضا كالزهري وعروة وعمر بن عبد العزيز"⁴.

وعلم الحديث: هو علم يُعرف به أقوال رسول الله ﷺ، وأفعاله وأحواله⁵. وهو عند عز الدين ابن جماعة (ت819هـ): "علم بقوانين يعرف بها أحوال السند والمتن"⁶، وهو عند أبي الفضل ابن حجر (ت852هـ): "معرفة القواعد المعرّفة بحال الراوي والمروي"⁷.

2.4. معنى الأثر لغة واصطلاحا:

الأثر لغة: العلامة، والأثر: بقية الشيء، والجمع آثار وأثور، والأثر: ما خلفه السالفون، والأثر: الخبر المروي والسنة الباقية، ويقال: أثار الحديث: بمعنى رويته، ويسمى المحدث أثريا نسبة للأثر، ومن معاني الأثر أيضا: الميزة والقرينة والدليل والاتباع⁸.

الأثر اصطلاحا: الأثر هو القول المروي عن النبي عليه السلام ويسمى (المرفوع)، أو عن الصحابي ويسمى: (الموقوف)، أو عن التابعي ويسمى: (المقطوع)، وبعضهم يقصره على الموقوف وما دونه. يقول الإمام السيوطي: "وعند فقهاء خراسان تسمية الموقوف بالأثر، والمرفوع بالخبر، وعند المحدثين

¹ - المعجم الوسيط، ص 159.

² - ينظر: علوم الحديث ومصطلحاته، لصبحي الصالح، دار العلم للملايين-بيروت، ط15، (1984م)، ص3.

³ - علم أصول الفقه، لعبد الوهاب خالاف، دار الغد الجديد، ط1 (2009م)، ص39.

⁴ - ينظر: في أصول النحو، لسعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، ط2، (1957م)، ص41.

⁵ - تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر)، دار ابن الجوزي، ط1، 1431هـ، ص69.

⁶ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁷ - المصدر نفسه. الصفحة نفسها.

⁸ - ينظر: لسان العرب لابن منظور، ص25، وينظر: المعجم الوسيط، ص05، وينظر: تدريب الراوي، ص73.

كل هذا يسمى أثراً¹. وقد يرد الحديث بمعنى السنّة أو الخبر أو الأثر والخلاف في المسألة حاصل منذ القدم².

3.4. معنى "الغريب" لغة واصطلاحاً:

- الغريب لغة: جاء في معجم العين: الغربة الاغتراب من الموطن، والغريب: الغامض من الكلام³. وجاء في لسان العرب: الغرّب: الذهاب والتنحّي عن الناس، وقد غرّب عنّا يغرّب غرّباً وغرّب وأغرّب وأغرّب وأغرّبته وأغرّبته: نحاه. وفي الحديث أنّ النبي ﷺ أمر بتغريب الزاني سنة؛ إذا لم يحصن، وهو نفيه عن بلده. والغرّبة والغرّب: التّوى والبعد. ويقال غرّب في الأرض وأغرّب؛ إذا أمعن فيها، ورجلٌ غريب: بعيد عن وطنه، والتغريب: النفي عن البلد، والتغرّب: البعد. والغريب: الغامض من الكلام⁴. وفي المعجم الوسيط: غرّب الكلام غرابة: غمّض وخفّي، فهو غريب، وأغرّب في كلامه: أتى بالغريب البعيد عن الفهم⁵.

وللإمام الخطابي (ت388هـ) كلام نفيس في بيان معنى الغريب والغرابة، حيث يقول في مقدمة كتابه "غريب الحديث": "الغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد من الفهم، كالغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن، المنقطع عن الأهل، ومنه قولك للرجل إذا نحّيته وأقصيته: اغرّب عني: أي ابعّد، ومن هذا قولهم: نوى غرّبةً: أي بعيدة، وشأؤ مغرّب، وعنقاء مُغرّب: أي جائية من بعد، وكل هذا مأخوذ بعضه من بعض، وإنما يختلف في المصادر، فيقال غرّب الرجل يغرّب غرّباً: إذا تنحّى وذهب، وغرّب غرّبةً: إذا انقطع عن أهله، وغرّبت الكلمة غرابة، وغرّبت الشمس غروباً"⁶.

والملاحظ مما سبق أنّ معنى لفظة غريب يتراوح بين البعد والغياب والغموض والخفاء، ثم إنّ الغريب من الكلام يقال به على وجهين: أحدهما أن يُراد أنّه بعيد المعنى غامضه، لا يتناول

1- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، السيوطي، ص73.

2- ينظر: علوم الحديث ومصطلحه، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، 1984م، ص11.

3- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الرشيد، بغداد، دط، ج4، ص410، 411.

4- لسان العرب، ابن منظور، مجلد5، مادة (غرب)، ص3225.

5- المعجم الوسيط، ص647.

6- غريب الحديث، الخطابي (أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم)، تحق: عبد الكريم العزباوي، دار الفكر، دمشق،

1402هـ، ج1، ص70.

الفهم إلا عن بُعدٍ ومعاناةٍ فكر، والوجه الآخر أن يراد به كلامٌ من بُعدتٍ به الدائر، ونأى به المحلُّ من شواذِّ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغرَبناها، وإنما هي كلام القوم وبيانهم"¹.

وخلاصة ما يمكن الخروج به مما سبق "أنَّ الغريب من الكلام هو المرحلة الثالثة من مراحل تطور معنى الغرابة التي كانت تدل على البعد مطلقاً، ثم استعملت في البعد عن الأهل، وأخيراً في البعد عن الفهم"².

- الغريب اصطلاحاً: إن ما يعيننا في الاصطلاح هو غريب الكلام، ويكاد يوافق معناه اللغويّ، وينقسم الكلام من حيث فصاحته وبلاغته إلى قسمين:

أ- قسم يعاب عليه صاحبه، ويعدّ من خوارم الفصاحة وعيوب الكلام، ويكون الكلام فصيحاً إذا "تخلص من أربعة عيوب: تنافر الحروف، وغرابة الاستعمال، ومخالفة القياس الصرفي، والكراهة في السَّماع"³، ويقصد بغرابة الاستعمال "كون الكلمة غير ظاهرة المعنى، ولا مألوفة الاستعمال عند العرب الفصحاء، لأن المعوّل عليه في ذلك استعمالهم"⁴.

ب- قسم آخر لا يوصف بذلك، بل يعدّ من أسباب قوة الكلام وحسنه وفصاحته، إذ إنّ أكثر ألفاظ الغريب تدور على كلام أهل الفصاحة والبيان.⁵ ومنه غريب القرآن وغريب الحديث، قال التّهانوي (ت1158هـ) بعد أن ذكر دلالات مصطلح الغريب ودرجاته: "ومنه غريب القرآن وغريب الحديث، وهذا غيرُ محلّ بالفصاحة"⁶.

أمّا من حيث تخصص مادّته؛ فإن الغريب ينقسم إلى ثلاثة أقسام: غريب القرآن وغريب الحديث وغريب اللغة، وزاد بعضهم غريب الفقه، وإن قلّ التصنيف فيه كونه نابعا من القرآن والسنة، فهذان الأصلان بداية ونهاية لجميع المباحث والعلوم الشرعية بما فيها الفقه.

1- غريب الحديث، الخطابي، ص71.

2- الغرابة في الحديث، عبد الفتاح البركاوي، مطبعة أبناء وهبة محمد حسان، 1987م، ص9.

3- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص7.

4- المرجع نفسه، ص9.

5- ينظر: النهاية لابن الأثير، ومعه التذيل والتذنيب للسيوطي، رضوان مامو، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط1، 2013م، ص6.

6- كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي التّهانوي، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان، بيروت، ج2، ص1250.

أ- غريب القرآن: ونعني به الألفاظ القرآنية التي حَفِيَ معناها عن القارئ والمفسّر، فتحتاج إلى توضيح معانيها بما جاء في لغة العرب وكلامهم¹.

ب- غريب اللغة: هو كل ما بُعِدَ عن الفهم وقلّ استعماله في اللغة؛ شعرها ونثرها، ولم يُدْرَ على أفواه العامة كما دار على أفواه الخاصّة، وصنف فيه غير واحد من علماء اللغة.

ج- غريب الحديث: يعرفه ابن الصّلاح (ت643هـ) بقوله: "هو ما وقع في متن الحديث من لفظة غامضة، بعيدة عن الفهم لقلّة استعمالها"²، وهو عند السّخاوي (902هـ): "ما يخفى معناه من المتون لقلّة استعماله ودورانه، بحيث يبعد فهمه ولا يظهر إلا بالتفتيش في كتب اللغة"³، ونصّ الإمام الزّبخشري (538هـ) على أنّه "كشّف ما غرب من ألفاظه واستبهم، وبيان ما اعتاص من أغراضه واستعجم"⁴.

فأنت ترى مما سبق أنّ هذا الفنّ - أقصد غريب الحديث - يُعنى بشرح وتفسير الغامض من ألفاظ الحديث النبوي الشريف، لقلّة استعمالها، أو لكونها بلغات أخرى، ونحن نزعم في حدود ما اطلعنا عليه، أنه ليس يخرج أحد ممن صنف في غريب الحديث عن مثل هذه المعاني في تعريف الغريب، ثم إنّ هذا الفن أصبح علما قائما بذاته، لتتسع دائرته فيما بعد فيشمل شرح ما ورد من الألفاظ الغريبة في كلام الصحابة والتابعين من بعدهم.

4.4. بين مصطلحي "غريب الحديث" و"الحديث الغريب":

ينقسم غريب الحديث إلى قسمين:

أ- الغريب من جهة السند، وهو ما يصطلح عليه عند المحدثين بالحديث الغريب، ويعرفه الحافظ ابن حجر العسقلاني (852هـ) بقوله: "هو الحديث الذي ينفرد بروايته شخص واحد في أيّ موضع

1- ينظر: معجم مصنفات القرآن الكريم، عليّ شواخ إسحاق، دار الرفاعي، الرياض، ط1، 1404هـ، ج3، ص291.

2- معرفة علوم الحديث، ابن الصّلاح (عثمان بن عبد الرحمان الشهرزوري)، تحق: نورالدين عتر، دار الفكر، دمشق، سورية، دط، 1986م، ص272.

3- فتح المغيب بشرح ألفية الحديث، السخاوي (محمد بن عبد الرحمن)، تحق: عبد الكريم الخضير وآخرون، دار المنهاج، الرياض، ط1، 1426هـ، 45/3.

4- الفائق في غريب الحديث، الزبخشري (جار الله محمود بن عمر)، تحق: محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دط، 1414هـ، 12/1.

وقع التّفرد به من السّند¹، سواء كان تفرّد الراوي في أول السّند أو في أثنائه أو في آخره، ومعنى أن تكون الغرابة في أول السّند: أن ينفرد بالحديث واحدٌ روايةً عن جماعةٍ، ومعنى أن تكون في أثنائه: أن ترويّه جماعةٌ ثم ينفرد به عنهم واحدٌ ثم ترويّه عنه جماعة، ومعنى أن تكون في آخره: أن تروي الحديث جماعةً عن واحدٍ دون غيره².

ومن أشهر الأحاديث الغريبة حديث «إنما الأعمال بالّنيات...» الذي رواه عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ دون غيره من الصحابة، ثم تفرد بروايته عن عمر علقمة ثم رواه عنه منفرداً محمد ابن إبراهيم، رواه عنه منفرداً أيضاً يحيى بن سعيد، ثم انتشر الحديث من بعد ذلك انتشاراً عظيماً، ورغم شهرة هذا الحديث على الألسن، إلا أنه غريب اصطلاحاً، أي من حيث السند. والحديث الغريب منه الصحيح ومنه الضعيف، والغالب على الأحاديث الغرائب أنها تكون ضعيفة، كما أن الغالب في غرابتها يكون في طبقة الصحابة³، وينتمي هذا الفنّ إلى علوم الحديث.

ب- الغريب من جهة المتن، وهو ما يصطلح عليه بغريب الحديث، وهو "من المهمات المتعلقة بفهم الحديث والعمل به، لا بمعرفة صناعة الإسناد وما يتعلق به"⁴، وهو كما أسلفنا؛ تلك الألفاظ الغامضة التي ترد بين الفينة والأخرى في متون أحاديث المصطفى ﷺ، وقد انبرى لشرحها وبيان معانيها جلة من العلماء الفحول، كأبي محمد بن قتيبة (ت276هـ)، والإمام الحري (ت285هـ)، والخطابي (388هـ)، والزحشري (ت583هـ)، وابن الأثير (ت606هـ)، وغيرهم كثير، وسيأتي العوّج عليهم في قابل، "وعلم غريب الحديث إلى علوم اللغة ينتمي وينتسب"⁵، وإن كان يتناول حديث رسول الله ﷺ، فهو في النهاية ألفاظ عربية.

5.4. إشكالية تصنيف كتب غريب الحديث:

ضمن أيّ نوع من المعاجم يمكن تصنيف كتب غريب الحديث؟ وبعبارة أخرى، هل هي معاجم عامة أم خاصة؟ سؤال قد يعترض الباحث في حقل المعجمية، وقبل الإجابة عنه، ينبغي

¹ - نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، ابن حجر العسقلاني، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، ص203.

² - ينظر: شرح المنظومة البيقونية، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 1429هـ، ص89.

³ - المرجع نفسه، ص89.

⁴ - ينظر: الباعث الخفي شرح اختصار علوم الحديث، لابن كثير (ت774هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ص162.

⁵ - ينظر: مقدمة غريب الحديث، القاسم بن سلام الهروي، تحق: محمد شرف، المطابع الأميرية، القاهرة، 1984م، ص51.

أن يُعَلَّمَ - كما تقدّم - أن المعجم ينقسم إلى قسمين: "معجم عامّ، وهو الذي يضم مجموعة الوحدات المعجمية التي تكوّن الرصيد اللغوي العام لمجموعة بشرية ما"¹، ومعجمٍ مختصّ، وهو "مدوّنٌ مشتمل على جزء -قلّ أو كثر- من مصطلحات علم من العلوم، أو فنّ من الفنون"².

ومن الواضح أن المعجم المختص فرع عن المعجم العام، غير أن الجهود تكون محصورة في فنّ فرعي مستقل بمادته وأهدافه، ولغته ومنهجه، يقوم على أساس من الانتقاء، قد يخرج إلى جمع مفردات خاصة بميدان معين، أو لغة شخص أو مفرداته، أو أسلوبه في الكلام، كأن يكون شاعرا أو فيلسوفا أو حكيما، أو مصطلحات علمية أو فنية.³

وعلى هذا الأساس، يمكن اعتبار كتب غريب الحديث النبوي من المعاجم المختصة، رغم أنّ هذا المصطلح حديث النشأة مقارنة بتاريخ ظهور معاجم غريب الحديث، وإن كانت كتب الغريب لغوية ابتداء، إلا أنّها اكتسبت خصوصية النبوة، خاصة إذا علمنا أن ألفاظا وعبارات صدرت عن النبيّ عليه السلام لم يُسبقْ إليها على عربيته، بيّد أنه أفصح من نطق بالضاد. وممن عدّ كتب الغريب معاجم مختصة، حلمي خليل، وعبد الكريم مرداوي، وعبد العليّ الودغيري وغيرهم.

ولعلّ أحسن ما قيل في هذه المسألة، ما ذهب إليه إبراهيم بن مراد، حين قسم المعاجم المتخصصة إلى قسمين: معاجم مختصة علمية، وتشمل مصطلحات مختلف العلوم كالطب والصيدلة والنبات، ومختلف التقنيات، ومعاجم مختصة فنية، وتشمل مصطلحات الفقه والحديث والقراءات القرآنية، والعقائد والتصوف والكلام وعلوم اللسان وغيرها، ورجّح أن المعاجم المختصة الفنية وسَطُ بين معاجم اللغة العامة، والمعاجم المختصة العلمية، وهي إلى المعاجم اللغوية العامة أقرب، وبها ألصق، لأن كثيرا من ألفاظ هذه المعاجم قد اشتملت عليه معاجم اللغة العامة.⁴

¹ - دلالة المصطلح العلمي بين التوسيع والتضييق، زكية دحماني، مجلة المعجمية، تونس، 2008م، ع 24، ص 143.

² - مسائل في المعجم، إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، ص 80.

³ - ينظر: المعجمية العربية، ابن حويلي الأخضر ميدني، ص 103.

⁴ - ينظر: المعجم العلمي العربي المختص حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، إبراهيم بن مراد، ص 8.

الفصل الأول

أهمية كتب غريب القرآن والحديث، وأثرها في الصناعة المعجمية العربية القديمة

المبحث الأول: كتب غريب القرآن، استقراء تاريخي وتحليلي.

المبحث الثاني: كتب غريب الحديث، استقراء تاريخي وتحليلي.

المبحث الثالث: أثر كتب غريب القرآن والحديث في الصناعة

المعجمية العربية القديمة.

اقترن مصطلح "الغريب" بالدراسات اللغوية العربية منذ نشأتها، إذ تناول اللغويون تحت هذا المصطلح ما كان غامضاً من الكلام بعيداً عن الفهم، عُيِبَ معناه عن كثير من الناس ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة، إمّا بالعودة إلى المعاجم اللغوية، أو شرحه على يد عالم من علماء اللغة، وهو عند الزجاجي (ت377هـ): "ما قلّ استماعه من اللغة، ولم يدُر في أفواه العامة، كما دار في أفواه الخاصة، كقولهم: صكمتُ الرَّجُلَ أي: لكمتُه، وقولهم للشمس: يوخ، وقولهم: رجل ضروري: للكيس، وقولهم للقصير الغليظ: ظُرب... وأما اللغة المستعملة سوى الشاذ والنوادر، فهم فيها شرع واحد"¹.

وتوسع العلماء في أنماط الغريب، فوقفوا إلى جانب غريب اللغة عند غريب القرآن، وغريب الحديث، وسنحاول في هذا الفصل دراسة كل نمط على حدة، مع التركيز أكثر على غريب الحديث لأنه موضوع بحثنا في هذه الرسالة.

المبحث الأول: كتب غريب القرآن، استقراء تاريخي وتحليلي.

1. غريب القرآن:

مفتاح علوم القرآن هو تفسيره، وتفسيره هو بيان معانيه، وله طرائق مختلفة، في مقدّمها معرفة معاني ألفاظه ومفرداته، وفي القرآن الكريم ألفاظ يشترك في إدراك معناها العام والخاص، وألفاظ أخرى لا يكاد يقف على معناها إلا عالم بالعربية وأساليبها، وهذا النوع من الألفاظ اصطلاح العلماء على تسميته بالـغريب، يقول أبو حيان الأندلسي: "لغات القرآن العزيز على قسمين: قسم يكاد يشترك في معناه عامة المستعربة وخاصتهم؛ كمدلول السماء والأرض وفوق وتحت، وقسم يختص بمعرفته من له اطلاع وتبحّر في اللغة العربية، وهو الذي صنّف أكثر الناس فيه وسمّوه: غريب القرآن"².

¹ - الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزجاجي، تحق: مازن مبارك، دار النفائس، بيروت، ط3، 1399هـ، ص92.

² - تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، أبو حيان الأندلسي، تحق: سمير المجذوب، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ، ص40.

وليس المراد بالغرابة في ألفاظ القرآن أنها منكرة أو نافرة أو شاذة، فإن القرآن منزّه عن هذا جميعه، وإّما المقصود باللفظة الغريبة هاهنا؛ هي التي تكون حسنةً مستغرّبةً في التّأويل، بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس¹، كيف ذاء، وقد قال الوليد بن المغيرة -أحد صناديد قريش- يصف القرآن وهو يخرج من في النبي عليه السلام غضا طريّاً: "والله؛ إنّ لِقوله الذي يقول لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنّه يعلو وما يُعلَى، وإنّه ليحطم ما تحته"²، وبعد؛ فإن المقصود بغريب القرآن هو ما خفي معناه من ألفاظه لقلّة استعمالها.

ولعلّ منشأ الغرابة في تلك الألفاظ، جاء تبعاً لتوسّع رقعة البلاد الإسلامية؛ فبعد أن فُتحت الأمصار، واختلط العرب بغيرهم من الأجناس كالفرس والروم والأحباش والنبط والسريان؛ امتزجت الألسن وتداخلت اللغات، ودبّت العجمة إلى اللسان العربي، فاحتاج الناس في أوضاع كهذه إلى من يفسّر لهم ألفاظ القرآن الكريم ويشرح غريبه، فتزاحم الرجال من أهل العلم على تبيان ما خفي من معانيه، وما استشكل من مفرداته.

ثمّ إنّ القرآن نفسه جمع ألفاظا غير قليلة من لغات القبائل، منها ما وافق لغة كنانة، أو لغة طيء، أو لغة عمان، أو لغة جرهم، وغيرها من القبائل، ووافقت ألفاظاً أخرى لغاتٍ شتى من غير العربية، كلفظ "الطّور" الذي وافق اللغة السريانية³، يقول عبد السميع أحمد عن القرآن: "فهو الذخيرةُ الخالدةُ، صان اللغة نقية صافية في مفرداته وأساليبه، وكان أصفى مرآة لأرقى اللهجات العربية على الإطلاق، وهو منتهى الفصاحة ومنار البيان، وهو مع ذلك حافل بما يعدُّ غامضاً على الكثير، خاصة من دخلوا حديثاً في الدين، أو اتصلوا بلغة العرب أيّما اتصال، ومن ثمّ عُني

¹ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2003م. ص 61.

² - صحيح السيرة النبوية، الألباني (محمد ناصر الدين)، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، ط1، 1421هـ، ص158.

³ - ينظر: معاجم غريب القرآن مناهجها وأنواعها، عوض بن حمد القوزي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 78،

جزء: 4، (2003م)، ص992.

الصحابة ومن بعدهم بتفسير ألفاظه وشرح غريبه، وتسابق الرجال في ذلك المضمار، وأبدعوا وخلفوا ذخيرة طيبة تعد الباكورة الأولى في حفظ الثروة اللغوية وتدوينها¹.

2. أهمية معرفة غريب القرآن والإحاطة به:

إنّ لعلم غريب القرآن الأهمية البالغة لدى المفسرين، فمعرفة غريب القرآن بهذا الفنّ ضرورية؛ وإلا فلا يحلّ لهم الإقدام على كتاب الله تعالى؛ هذا قال بدر الدين الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن" نقلا عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس (ت179هـ)، حيث قال: "لا أوتى برجل يفسر كلام الله، غير عالم بلغة العرب إلا جعلته نكالا"، ونقل عن مجاهد بن جبر المكي (ت104هـ) قوله: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله؛ ما لم يكن عالما بلغات العرب"².

ومن ناقش هذه القضية؛ الإمام السيوطي حيث يرى أنه على الخائض في هذا الفنّ التثبت، والرجوع إلى كتب أهل الغريب، وعدم الخوض بالظنّ، وحثه في ذلك أن الصحابة، وهم العرب العرباء وأصحاب اللغة الفصحاء، ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم، توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها، فلم يقولوا فيها شيئا، وساق رحمه الله أمثلة على ذلك، منها أن أبا بكر الصديق سئل مرة عن قوله تعالى: ﴿وَفَلَكِهَةٌ وَأَبَّأٌ﴾³، فقال رضي الله عنه: "أيّ سماء تظلني أو أيّ أرض تقلني؟ إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم"، وعن ابن عباس أنه قال: "كنت لا أدري ما معنى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾"⁴، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: "أنا فطرتهما"، يقول: أنا ابتدأتها"⁵.

وقال الراغب الأصفهاني (ت412هـ) في هذه المسألة: "أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات القرآن

¹ - المعاجم العربية، دراسة تحليلية، عبد السميع محمد أحمد، دار الفكر العربي، القاهرة، دط، 2007م، ص13.

² - ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الميراث، القاهرة، ط3، 1404هـ، ج1، ص292.

³ - سورة عبس: 31

⁴ - سورة الشورى: 11

⁵ - ينظر: الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحق: مركز الدراسات الإسلامية، السعودية، 1426هـ، ج3، ص731.

في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه... وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع"¹، وتابعه على ذلك من المحدثين عبد الحميد الفراهي (ت1349هـ) في كتابه "مفردات القرآن"، حيث قال: "لا يخفى أن المعرفة بالألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى في فهم الكلام... فمن لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أغلق عليه باب التدبر، وأشكل عليه فهم الجملة، وخفي عنه نظم الآيات والسور، ولو كان الضرر عدم الفهم لكان يسيراً، ولكنه أكثر وأفظع، وذلك بأن المرء قلماً يقف على جهله، بل يتجاوز موقفه، فيتوهم من اللفظ ضد ما أريد به، فيذهب إلى خلاف الجهة المقصودة"².

ومما سبق؛ تراءى لنا تلك العناية الفائقة التي أولاها السلف من علماء هذه الأمة علم غريب القرآن، حتى يفهم كتاب الله على مراد الله، ثم إن أهمية الغريب لم تقتصر على علوم القرآن فقط، بل تعدتها إلى باقي علوم الشريعة من فقه وأصول وغيرها، وتزداد الحاجة إليه عند المفسرين، بل يشترط في المفسر أن يكون ملماً بهذا الفرع من العلوم، كما أنّ معرفة الغريب مسلك إلى تدبر القرآن، والتدبر كما قرر أهل العلم هو مرتبة أعلى من التفسير، ونعني به الغوص على المعاني الكامنة في آي الذكر الحكيم وتثويرها. ومن أهمية العلم بالغريب أيضاً الوقوف على الثروة اللغوية التي يزخر بها القرآن، كونه أخذ من كل لغة من لغات العرب بطرف.

3. التأليف في غريب القرآن:

يعد التأليف في غريب القرآن النواة الأولى للدرس اللغوي، حيث كان أول ما وجّه العلماء من عناية إلى القرآن الكريم، وفي طليعة هؤلاء العلماء عبد الله بن عباس (ت68هـ) رضي الله عنهما، فقد أثر عنه إجاباته عن أسئلة نافع بن الأزرق أحد زعماء الخوارج، تضمنت معاني

¹ - المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، السعودية، 1430هـ، ج1، ص4.

² - مفردات القرآن، عبد الحميد الفراهي، تحق: محمد أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2002م، ص95.

مئتي كلمة من غريب القرآن الكريم، شرحها بشواهد من الشعر¹، "وأول من يُعزى إليه كتاب في غريب القرآن هو عبد الله بن عباس رضي الله عنهما"²، واختلفوا في نسبته إلى ابن عباس، يقول حسين نصّار: "وأظنّ أنّ هذا الكتاب كان يضم بعض الأقوال التي أدلى بها ابن عباس في تفسير الغريب من ألفاظ القرآن، وأنّه لم يكن هو الذي دونها في كتاب، وإنما بعض رواة هذه الأقوال، فإنّ أحدا من مترجمي ابن عباس لم ينسب إليه مثل هذا الكتاب، وإنما نسبوا إليه الأقوال الكثيرة في التفسير وحده، مروية لا مدونة"³.

ويرى أحد الباحثين أنّ الكتب المنسوبة إلى ابن عباس رضي الله عنهما كان بعضها على الأقل من تأليفه هو⁴، بينما يرجح آخرون، وفي مقدمتهم حسين نصّار، أنّها من تدوين الرواة كما ذكرنا آنفاً، على غرار ما صنعه الإمام السيوطي حين نقل كثيرا من أقوال ابن عباس في غريب القرآن مروية عن ابن جرير عن المثني عن ابن صالح عن عليّ بن طلحة، كما أن كتاب "اللغات في القرآن" لابن عباس قد وصل إلينا برواية إسماعيل بن عمرو بن راشد الحداد عن عبد الله بن الحسين المقرئ بإسناده إلى ابن عباس، الأمر الذي يجعلنا نكاد نجزم أنه وإن لم تصحّ نسبة كتاب الغريب لابن عباس؛ فهو من مرويات تلامذته عنه⁵، وذكر بروكلمان أنه كانت نسخة منه في برلين قبل الحرب العالمية الثانية⁶.

ومهما يكن من أمر، فلا شك أنّ مرويات ابن عباس رضي الله عنهما كانت اللبنة الأولى التي مهّدت للتأليف في علم غريب القرآن في وقت مبكر، وهيأت المادة الخام لمن رام التأليف في هذا

¹ - ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ص 848 وما بعدها.

² - المعجم العربي، نشأته وتطوره، حسين نصّار، دار مصر للطباعة، مكتبة مصر، الفجالة، ط 2، 1968م، ص 39.

³ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - ينظر: تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، تر: عرفه مصطفى، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ط 1998م، ج 8، ص 34.

⁵ - ينظر: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، محمد حسين آل ياسين، مكتبة الحياة، بيروت لبنان، ط 1، 1980م، ص 147.

⁶ - تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، تر: عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1961م، ج 1، ص 33.

العلم فيما بعد، كيف لا وقد ظفر ابن عباس ببركة دعاء النبي الكريم له بالتفقه في الدين، والبراعة في التأويل حين دعا له يوماً فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»¹، فنال بذلك لقب ترجمان القرآن، وحرر الأمة عن أهلية واستحقاق.

وتواصلت الجهود في العناية بغريب القرآن ومعانيه بعد ابن عباس (ت68هـ)، فظهرت كتب في الفترة الزمنية التالية له والسابقة لظهور كتاب "العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي، كانت لها قيمة لغوية معجمية لا ينبغي نكرانها، منها "معاني القرآن" لعلي بن عبد الله بن عباس (ت117هـ)، وجاء بعده مصنف "غريب القرآن" لأبي سعيد أبان بن تغلب البكري (ت141هـ)، وكتاب "تفسير القرآن" لمحمد بن السائب الكلبي (ت146هـ)، وكتاب "التفسير في متشابه القرآن" لأبي الحسن مقاتل بن سليمان البلخي (ت150هـ).

ولعلّ هذا ما يجعلنا نجزم أن التأليف في غريب القرآن لم يتأخر عن النصف الأول من القرن الثاني للهجرة²، بل إنه مما لا شك فيه أنّ هذه الشروح والتفاسير التي عنيت بغريب القرآن ومعانيه منذ القرن الهجري الأول كانت تهيئة أساسية للمعجمية العربية، ودورها في تكوين المعجمية العربية يشبه دور القراءات القرآنية في تكوين النحو العربي³.

ثم توالى الكتب بعد ذلك، وممن أفرد هذا الفرع من العلوم بالتصنيف بعد هؤلاء نفر خلق كثير، منهم مؤرخ السدوسي (ت195هـ)، وأبو محمد اليزيدي (ت202هـ)، والنضر بن شميل (ت203هـ)، وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت210هـ)، والأخفش الأوسط (ت215هـ)، وأبو عبيد القاسم ابن سلام (ت224هـ)، ومحمد بن سلام الجمحي (ت231هـ)، وابن قتيبة (ت276هـ)، وثعلب (ت291هـ)،

¹ - مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقق: شعيب الأرنؤوط وفريقه، ج4، ص225، رقم: 2397. (قال شعيب: إسناده قوي على شرط مسلم).

² - ينظر: المعجم العربي، حسين نصار، ص39، 40.

³ - المعجم العلمي العربي المختص حتى منتصف ق11هـ، إبراهيم بن مراد، ص22.

وأبو طالب المفضل بن سلمة (ت308هـ)، وأبو بكر بن دريد (ت321هـ)، وأبو زيد أحمد البلخي (ت322هـ)، ونفطويه (ت323هـ)، ومحمد بن عزيز السجستاني (ت330هـ)، وغيرهم.¹

لكن أغلب هذه التصانيف مفقود، ولم يصلنا منه شيء، ولعلّ أبرز ما وصلنا منها - وهو مطبوع متداول بين أيدي الناس - ما هو آتٍ²:

- مسائل نافع بن الأزرق لابن عباس (ت68هـ).
- غريب القرآن لأبي عبيدة (ت210هـ)
- معاني القرآن للأخفش سعيد بن مسعدة (ت215هـ).
- تفسير غريب القرآن لابن قتيبة (ت276هـ)، وقد ذكر صاحبه في مقدمته منهجه وغرضه منه.
- إعراب القرآن ومعانيه للزجاج (ت311هـ).
- نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز لمحمد بن عزيز السجستاني (ت330هـ).
- كتاب الغريبين في القرآن والحديث لأبي عبيد الهروي (ت401هـ).
- العمدة في غريب القرآن لمكي بن محمد القيسي (ت437هـ).
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ت502هـ).

4. مناهج التأليف في كتب غريب القرآن:

إن كثرة المؤلفين في علم غريب القرآن اقتضت اختلاف مناهجهم في التأليف، وهم وإن اختلفت مناهجهم فإنّ مشرّهم واحد؛ ألا وهو ما صحت روايته من لغة العرب شعرها ونثرها، وفي ذلك يقول ابن عباس: "الشعر ديوان العرب، فإذا خفي عليهم الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغتهم؛ رجعوا إلى ديوانهم فالتمسوا معرفة ذلك"³.

¹ - ينظر: الفهرست، ابن النديم (محمد بن إسحاق)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دط، ص52، 53.

وينظر: المعجم العربي، نشأته وتطوره، حسين نصار، ص40.

² - ينظر: المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن الكريم، عبد العزيز السيروان، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط1، 1986م، ص12.

³ - البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج1، ص294.

وكان من شأن أصحاب غريب القرآن أن ساروا في ترتيب مؤلفاتهم على طريقتين:

الطريقة الأولى: ترتيب الألفاظ الغريبة بحسب ترتيب السور ابتداء من سورة الفاتحة إلى غاية سورة الناس؛ كما فعل ابن قتيبة في غريبه، وعلاء الدين المارديني المعروف بابن التركماني (ت750هـ) في كتابه "بهاجة الأريب في بيان ما في كتاب الله من الغريب"، وابن الهائم (ت815هـ) في كتابه: "التبيان في غريب القرآن"، وغيرهم.

الطريقة الثانية: ترتيب الألفاظ ترتيباً ألفبائياً بحسب أوائل الحروف، ظهر هذا النظام مع أبي بكر السجستاني (ت330هـ) في كتابه "نزهة القلوب"، لكنه لم يفرق بين الحروف الأصلية والزائدة، ثم استوى هذا النوع من الترتيب على سوقه مع الراغب الأصفهاني (ت502هـ) في كتابه "مفردات ألفاظ القرآن"، حيث فرق فيه بين الحروف الأصلية والزائدة، كما راعى فيه الترتيب الألفبائي، مبتدئاً بالحرف الأصلي للكلمة ثم الذي يليه وهكذا... حيث أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه فقال: "وقد استخرت الله في إملاء كتاب مستوفى فيه مفردات ألفاظ القرآن على حروف التهجي، فنقدم ما أوله الألف ثم الباء على ترتيب حروف المعجم معتبراً فيه أوائل حروفه الأصلية دون الزوائد"¹، ممّا أتاح لطلابه مكنة الوصول إلى مراده بسهولة ويُسرٍ. ومُنَّ اقتفى أثره، وسار على نهجه عبد الرحيم ابن الحسين العراقي (ت806هـ) في كتابه: "ألفية في تفسير ألفاظ القرآن"، وآخرون.

5. مرادفات لمعنى غريب القرآن:

إن من يطّلع على المصنفات التي عنيت بشرح ألفاظ القرآن يجد أنّها تحمل أسماء مختلفة منها غريب القرآن وأمثله كثيرة سبق ذكرها، ومعاني القرآن ككتاب "معاني القرآن" للفراء (ت207هـ)، ومجاز القرآن ككتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة (ت209هـ)، ومشكل القرآن ككتاب "الفوائد في مشكل القرآن" للعزّ بن عبد السلام (ت660هـ)، وكتاب "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة، وإعراب القرآن ككتاب "إعراب القرآن" لأبي جعفر النحاس (ت337هـ)، والوجوه والنظائر

¹ - المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص 5.

ككتاب الدامغاني (ت478هـ)، لكن هل هذي الأسماء مجتمعةً يقصد بها معنى الغريب، أم أنها تختلف اسما ومعنى؟

يرى بعض الدارسين أنه بعد إمعان النظر وإعمال الفكر في هذه المؤلفات، أنها جميعا تخدم ميدانا واحدا هو غريب القرآن ومناهجه¹، ومن هؤلاء محمود الطناحي، حيث قال: "إن أغنى هذه القرون تأليفا في غريب القرآن القرنان الثالث والرابع الهجريان، ولكن لا تأتي عنواناتها صريحة بذكر كلمة غريب، فقد يأتي بعضها باسم (معاني القرآن)، وبعضها باسم (إعراب القرآن)، وبعضها باسم (مجاز القرآن) وكل هذه التسميات ترجع إلى شيء واحد هو شرح اللفظ القرآني، والاستدلال له من كلام العرب وأشعارهم"².

بينما يرى آخرون أنها مختلفة، فمثلا مصطلح "غريب" يطلق - كما أسلفنا - على الألفاظ التي يُشكّل معناها لقلّة استعمالها، أما مصطلح "معاني" فيطلق على الألفاظ التي يكثر استعمالها لكن فيها معان دقيقة، أو ما تعلق بمعاني الآيات، أما مصطلح مشكل القرآن فيقصد به ما التبس معناه من الآيات القرآنية واشتبه على كثير من المفسرين، فلم يعرف المراد منها إلا بالطلب والتأمل، وقد يعبر بعض أهل العلم عن المشكل بالمتشابه على أنهما مصطلحان يؤدي كل منهما معنى الآخر، يقول ابن قتيبة: "ومثل المتشابه المشكل، وسمي مشكلا لأنه أشكل أي: دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله"³، ويقول الإمام أبو إسحاق الشاطبي (ت790هـ): "ومعنى المتشابه: ما أشكل معناه ولم يبيّن مغزاه"⁴.

ومن أسباب اختلاف أسامي وعناوين كتب الغريب أنها تعنى بجوانب أخرى تتعلق في جملتها بالمعنى، كالصرف والنحو، يقول الإمام الفراهي: "إنّ الكتب الأولى التي صنفت في هذا المجال

¹ - ينظر: غريب القرآن رجاله ومناهجهم من ابن عباس إلى أبي حيان، عبد الحميد السيد طلب، جامعة الكويت، 1986م، ص491.

² - النهاية لابن الأثير (مقدمة المحقق)، تحق: محمود الطناحي وظاهر الزاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج1، ص10.

³ - تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عيد الله بن مسلم بن قتيبة، تحق: أحمد صقر، المكتبة العلمية، 1973م، ص102.

⁴ - الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، دط، دت، ج2، ص233.

لم تكن مقصورة على تفسير ألفاظ القرآن فحسب، بل كانت تضم بالإضافة إلى ذلك مباحث النحو والصرف والقراءات، وتفسير ما أشكل من معاني الآيات، ومذاهب العرب في القول على اختلافها في التوسع في إيراد تلك المباحث بحسب اهتمام مؤلفيها وثقافتهم¹.

ومن تلك الأسباب أيضا الاختلاف في المصطلحات، وعدم استقرارها على حال، وإن كان مدلولها واحدا، خاصة وأن علوم القرآن وعلوم اللغة عموما كانت في بدايتها، ويدل على ذلك صنيع أبي عبيد الهروي (ت401هـ) في مصنفه "الغريبين"، فتجده مثلا عند شرحه لغريب اللفظ يستعمل في تفسيره للآيات هذه الكلمات (مجازه كذا)، (تفسيره كذا)، (معناه كذا)، (غريبة كذا)².

من هنا، يتبدى لنا أنه رغم اختلاف عناوين هذه المصنفات، فإنّ الاهتمام فيها منصب على تفسير غريب القرآن، وأن المعنى القائم بعرف أصحابها هو الغريب، فهذه العناوين مجتمعة تحمل بين طياتها شرحا للكلمة الغريبة في القرآن، والاستدلال عليها وتوضيح معناها، والحقيقة أن هذه الأسماء مترادفة أو كالمترادف في عرف المتقدمين³. ويؤكد هذا ما ذهب إليه عبد الكريم حسين السعداوي إذ يقول: "والذي أراه أن هذه التسميات (غريب القرآن ومعانيه ومجازه ومشكله) تقع كلها في مصافّ الفصاحة والبلاغة، وهي تقصد تفسير كتاب الله، والكشف عن معانيه، وأن هذا التداخل في الدلالة أو الترادف في التسمية كان بسبب أن هذه المصطلحات لم تتحدد بعد في تلكم العصور، وإنما كانت دلالاتها عادة تنضوي تحت معنى لغوي عام، وما أطلق على كتب المعاني والمجاز والغريب من هذه الأسماء لا يقع إلا في دائرة الصحيح لاحتوائها هذه المضمونات في التسمية، فالمجاز والمعاني والغريب هي تعددية لباب تفسيري واحد"⁴.

¹ - مفردات القرآن، عبد الحميد الفراهي، تحق: محمد الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، ط2002، م1، ص47.

² - ينظر: كتاب الغريبين (مقدمة المحقق)، أبو عبيد الهروي، تحق: محمود الطناحي، مطابع الأهرام التجارية، 1970م، ج1، ص10.

³ - ينظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، تحق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1978م، ص رقم ج.

وينظر: تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، أبو حيان الأندلسي، ص 25، 26.

⁴ - أنماط التأليف في غريب القرآن منذ النشأة حتى الوقت الحاضر، عبد الكريم حسين السعداوي، جامعة الكوفة، (1999م)، ص 14.

6. الاحتجاج بالقرآن الكريم:

القرآن الكريم هو كلام الله المعجز، المنزل على محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته¹، ولا خلاف بين العلماء في الاحتجاج بالقرآن الكريم والاستشهاد به في جميع علوم اللسان: لغة ونحوا وصرفا وبلاغة، فألفاظه "هي لبّ كلام العرب وزيدته وواسطته، وكرائمه وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء، وإليها مفرع حذاق الشعراء والبلغاء، وما عداها كالكشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة"².

وقد نقل السيوطي (ت911هـ) إجماع أهل اللغة على أنّ القرآن الكريم بكلّ قراءاته المتواترة والشاذة أصحّ كلام يُحتجّ به، حيث قال: "أما القرآن، فكل ما ورد أنه قُرئ به جاز الاحتجاج به في العربية، سواء كان متواترا، أو آحادا أم شادا"³، كما نصّ سيويوه (ت180هـ) على "أنّ القراءة لا تُخالف، لأنها السنة"⁴، وقال الفراء (ت207هـ) مبرزاً منزلة النصّ القرآني في الاحتجاج: "والكتاب أعرب وأقوى في الحجّة من الشعر"⁵، وقال ابن خالويه (ت370هـ): "قد أجمع الناس جميعاً أنّ اللّغة إذا وردت في القرآن، فهي أفصح مما في غير القرآن، لا خلاف في ذلك"⁶، لكنهم اختلفوا في معيار الأخذ بالقراءات القرآنية المختلفة، والقراءات القرآنية كما عرفها الزركشي هي: "اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف، أو في کیفیتها من تخفيف وتثقيل وغيرها"⁷، فاحتج الكوفيون بها كلّها،

¹ - ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني (عبد العظيم)، دار الفكر-بيروت، ط1، 1996م، ج1، ص15.

² - البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص17، 18.

³ - ينظر: الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين السيوطي، ص39.

⁴ - الكتاب، سيويوه (عمرو بن عثمان)، عالم الكتب، بيروت، 1985م، ج1، ص148.

⁵ - معاني القرآن، الفراء (يحيى بن زياد)، تحق: أحمد يوسف نجاتي وآخرون، دار السرور، بيروت، لبنان، ج1، ص14.

⁶ - المزهري في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي (جلال الدين) تحق: محمد جاد المولى وآخرون، المكتبة العصرية، بيروت، 1986م،

ج1، ص213.

⁷ - البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ج1، ص318.

في حين اشترط البصريون موافقتها لوجه من أوجه العربية، فأخضعوها للقياس، وردّوا بذلك بعضاً منها بدعوى عدم تواترها حيناً، ولحن القراء فيها حيناً آخر.

وذهب ابن خالويه إلى أن الرّاجح في القراءات كلها، متواترها وآحادها وشادّها؛ أنّها حجّة، وأنّ ما قيل في منع تلاوة القراءة الشاذة لا يعني منع الاحتجاج بها في النحو، فهي على شدوذها أقوى سنداً، وأصحّ سماعاً من كلّ ما أُحتجّ به من كلام العرب¹.

وقد ردّ المتأخرون على تلك الطّائفة من اللغويين والنحاة التي رفضت الأخذ ببعض القراءات بأبلغ ردّ، فهذا ابن مالك يختار ما وردت به القراءات في العربية - وإن منعه الأكثرون منهم - مستدلاً به². يقول سعيد الأفغاني نقلاً عن ابن حزم: "ولا عجب أعجب ممّن إن وجد لامرئ القيس، أو لزهير أو لجرير، أو للحطيئة، أو الطرمّاح، أو لأعرابي أسديّ أو سلميّ أو تميميّ، أو من سائر أبناء العرب لفظاً من شعر أو نثر، جعله في اللّغة وقطع به ولم يعترض فيه، ثمّ إذا وجد الله تعالى -خالق اللّغات وأهلها- كلاماً لم يلتفت إليه، ولا جعله حجّة، وجعل يصرفه عن وجهه، ويجرّفه عن وضعه، ويتحيّل في إحالته على ما أوقعه الله عليه"³.

لكن ينبغي التنبيه إلى أن نظرة اللغويين إلى القراءة تختلف عنها عند النحاة، فإذا تعلق الأمر مثلاً بإثبات وجود لفظ في اللّغة، أو ضبط نطقه، أو ذكر معناه بعيداً عن حكم يراد تعميمه، أو قاعدة يرام بناؤها، فإنّ جمهور اللغويين لا يستنكفون عن قبول الألفاظ الواردة في القراءة، سواء أكانت النماذج اللغوية الموافقة لها كثيرة أم قليلة، خلافاً لما درج عليه النحاة، فقد كانوا إذا أرادوا الاستشهاد على بناء قاعدة أو استنباط حكم لا يتخرجون في وضع القراءة إلى جانب غيرها من النصوص اللغوية، وتُبنى القاعدة على الكثير الشائع ولو على حساب القراءة⁴، وهو ما يفسر

¹ - ينظر: خزانة الأدب، البغدادي (عبد القادر)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، 1997م، ج 1، ص 9.

² - الاقتراح في علم أصول النحو، السيوطي، ص 40.

³ - في أصول النحو، سعيد الأفغاني، ص 29.

⁴ - ينظر: البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 24، 25.

ردّ بعض النحاة للكثير من القراءات، طعنا في بعض القراء لا في القراءة من حيث هي قراءة، بحجة أنها جاءت مخالفة للنموذج الشائع في لغة العرب.

المبحث الثاني: كتب غريب الحديث، استقرار تاريخي وتحليلي.

1. غريب الحديث:

لا شك أنّ فصاحة النبي ﷺ لا تضاهيها فصاحة، وأسلوبه لا يدانيه أسلوب، وحديث رسول الله ﷺ وإن كان دون كلام الخالق، فهو أعلى مرتبة من كلام أيّ مخلوق، فلقد "مدّت عليه الفصاحة رواقها، وشدّت به البلاغة نطاقها"¹، فهو بذلك أفصح العرب قولاً، وأبينهم كلاماً، وأعلاهم بلاغة، كيف لا وهو أفصح من نطق بالضاد، وقد أوتي جوامع الكلم.

وهذا الجاحظ يصف حديثه فيقول: "هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾"²، فكيف وقد عاب التشدق، وجانب أهل التعقيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقّي، فلم ينطق إلا عن ميراث وحكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حفّ بالعصمة، وشيّد بالتأييد، ويُسّر بالتوفيق... ثمّ لم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى ولا أبين فحوى من كلامه ﷺ"³. فأعظم بمحمد، وأعظم بفصاحته وبلاغته ﷺ.

والعلم بحديث رسول الله ﷺ يأخذ بصاحبه إلى مهيع السلامة، وينتهي به إلى دار المقامة، فالإليه يرجع الأصولي وإن برز في علمه، وإليه يعود الفقيه وإن تفوّق في ذكائه، والنحويّ وإن تألق

¹ - الحديث النبوي في النحو العربي، محمود فجال، أضواء السلف، الرياض، ط2، 1997م، ص 5.

² - سورة ص: 84.

³ - البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن حرب الجاحظ (ت255هـ)، مكتبة الهلال، بيروت، عام النشر، 1423 هـ، ج2، ص14.

في تجويد عبارته، واللغوي وإن توسع في حفظه، والمحدّث وإن تبحر في فنونه، فكلهم إليه راجعون، وفي رياضه راتعون، ومن معينه مغترفون.

ولما كانت هذه مكانة الحديث النبوي ومنزلته؛ اشتغل به العلماء جمعا وترتيباً، وشرحاً وتبويماً، وضبطاً وتصويماً، ولما بعد العهد بالناس عن عصر النبوة؛ احتاجوا إلى "معرفة معاني ما يتصل بتفسير بعض الألفاظ الغريبة، والكلمات المشكّلة، الواردة في متونه، والتعريف بمعانيها وضبط بنيتها، والوقوف على تصريفها واشتقاقها، وتأليف حروفها"¹. فظهر علم غريب الحديث الذي اضطلع بذلك كلّ، وكنا قد أشرنا في مدخل هذا البحث إلى ماهيته، ولا بأس بالتذكير به هنا، فهو: ما خفي معناه من الألفاظ الحديثية؛ لقلّة استعمالها ودورانها على الألسنة، بحيث يبعد فهمها، ولا يظهر إلا بالتنقيب عنها في كتب اللغة.

2. أسباب ظهور الغرابة في الحديث:

قد يسأل سائل كيف يرد في حديث رسول الله ﷺ لفظ وحشي، وقد أوتي جوامع الكلم، وهو أفصح العرب؟ والحاصل أن مرد تلك الغرابة وسبب تلك الوحشية يعود إلى جملة من الأسباب لعلّ أبرزها:

- مخاطبته للناس بلغاتهم ولهجاتهم: وقد أشار إلى ذلك ابن الأثير في مقدمة "النهاية" فقال: "كان ﷺ يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، وتباين بطونهم وأفخاذهم وفضائلهم، كلاً منهم بما يفهمون، ويحدثهم بما يعلمون... وكان أصحابه رضي الله عنهم ومن يفد عليه من العرب يعرفون أكثر ما يقوله، وما جهلوه سألوه عنه فيوضحه لهم، حتى لقد قال له علي بن أبي طالب، وسمعه يخاطب وفد بني نهد: "يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تُكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره، فقال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي، وربيتُ في بني سعد»"².

¹ - معاجم غريب القرآن، مناهجها وأنواعها، عوض بن حمد القوزي، مجلة مجمع اللغة العربية، مجلد 75، ع4، ص4.

² - النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (مقدمة المؤلف)، تحق: أحمد الخراط، وزارة الأوقاف، دولة قطر، ص5.

- الرواية بالمعنى: ذلك أنّ "الرّواة جوّزوا النقل بالمعنى، فتجد قصة واحدة حدثت في زمانه ﷺ رويت بأكثر من وجه، والظاهر أنّها لم تُقل بتلك الألفاظ جميعها، نحو ما روي من قوله ﷺ: «زوّجْتُكها بما معك من القرآن»، و«ملكتُكها بما معك»، و«خُذها بما معك من القرآن» وغير ذلك من الألفاظ الواردة في هذه القصة، فتعلمُ يقينا أنّ النبي ﷺ لم يتلفظ بجميع هذه الألفاظ، بل لا نجزم بأنه قال بعضها، إذ يحتمل أنه قال لفظا مرادفا لهذه الألفاظ كلها، فأنت الرّواة بالمرادف، ولم تأت بلفظه، إذ المعنى هو المطلوب؛ ولا سيما مع تقادم السّماع وعدم ضبطها بالكتابة، والاتّكال على الحفظ، والضّابط منهم من ضبط المعنى، وأمّا من ضبط اللفظ فبعيد جدّا إلا ما ندر، لاسيما في الأحاديث الطّوال. وقد قال سفيان الثّوري: "إن قلتُ لكم إني أحدثكم كما سمعت، فلا تصدّقوني إمّا هو المعنى"، ومن نظر في الحديث أدنى نظر؛ علِمَ اليقين أنّهم يروون بالمعنى"¹.

ويؤيد هذا ما ذهب إليه الخطّابي في مقدمة كتابه "غريب الحديث" حين قال: "وقد يتكلم الرسول ﷺ في بعض النوازل وبحضرته أخلاط من الناس، قبائلهم شتى ولغاتهم مختلفة، ومراتبهم في الحفظ والإتقان غير متساوية، وليس كلهم يتيسر له ضبط اللفظ وحصره، أو يتعمد لحفظه ووعيه، وإنما يستدرك المراد بالفحوى، ويتعلق منه بالمعنى، ثم يؤديه بلغته التي نشأ عليها، ويعبر عنه بلسان قبيلته، فيجتمع في الحديث الواحد إذا انشعبت طرقُه عدّة ألفاظٍ مختلفةٍ موجبها شيءٌ واحدٌ"². فكانت الرواية بالمعنى سببا من أسباب ظهور الغريب في حديث رسول الله ﷺ.

¹ - خزائن الأدب، عبد القادر البغدادي، ج1، ص 11.

² - غريب الحديث، الخطّابي، ج1، ص68.

3. دوافع التأليف في غريب الحديث:

- لقد أشار أصحاب الغريب إلى جملة الأسباب التي دفعتهم إلى التأليف في غريب الحديث منها:
- فسوّ اللحن في ألسنة الناطقين بالعربية، فضلاً عن الأعاجم الذين اختلطوا بالعرب، وجعلوا من العربية لساناً لهم بعد انتشار الإسلام خارج البلاد العربية، "فلما أعضل الداء، واستفحل الدواء، ألهم الله عز وجل جماعة من أولي المعارف والنهي، وذوي البصائر والحجا أن صرفوا إلى هذا الشأن طرفاً من عنايتهم، وجانباً من رعايتهم، فشرعوا فيه للناس مورداً، ومهدوا فيه لهم معاهد"¹، فظهرت كتب الغرائب؛ ومنها كتب غريب الحديث، تتبع فيها أصحابها الغريب في مظانّه، فشرحوه، وفسروا ما أشكل من معانيه، فكانت هذه الكتب بمثابة الإمام القدوة، تعصم رواد الحديث وطلّابه من الزيغ والضلال، وفي ذا يقول الخطّابي: "إنّ الحديث لمّا ذهب أعلامه بانقراض القرون الثلاثة، واستأخر به الزمان، فتناقلته أيدي العجم، وكثرت الرواة، وقلّ منهم الرعاة، وفشا اللحن، ومرنت عليه الألسن اللّكن، رأى أولو البصائر والعقول، والدّابّون عن حريم الرسول أنّ من الوثيقة في أمر الدين، والنصيحة لجماعة المسلمين؛ أن يُعنوا بجمع الغريب من ألفاظه، وكشف المغدّف من قناعه، وتفسير المشكّل من معانيه، وتقويم الأود من زيغ ناقله، وأن يدوّنوه في كتب تبقى إلى الأبد، وتخلد على وجه المسند، لتكون لمن بعدهم قدوة وإماماً، ومن الضلال عصمة وبيانا"².
 - شرح غريب الحديث على مراد الله ورسوله يدرأ عوارض الشكوك التي قد تنقح في صدور العامة، بسب دعاوى باطلة افتراها أهل الأهواء والبدع على النبيّ وصحبه³.
 - صون متون الحديث من التصحيف والتحريف، ذلك لأن قلة استعمال بعض الألفاظ الحديثية بين العلماء، بله العوامّ، يجعلها عرضةً للتحريف والتصحيف، كونها غريبة عن الأسماع، بعيدة في الفهم،

¹ - النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين بن الأثير، تحق: أحمد الخراط، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، ص 7.

² - غريب الحديث: الخطّابي، ص 47.

³ - ينظر: غريب الحديث، ابن قتيبة، تحق: عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، العراق، ط 1، 1977م، ج 1، ص 148.

فمعرفة غريب الحديث حماية للشريعة من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، وقد أشار إلى هذا أبو منصور الأزهري (ت370هـ) في قوله: "فعلينا أن نجتهد في تعلم ما يتوصل بتعلمه إلى معرفة ضروب خطاب الكتاب، ثم السنن المبينة لجمل التنزيل، الموضحة للتأويل، لتنتفي عنا الشبهة الداخلة على كثير من رؤساء أهل الزيغ والإلحاد، ثم على رؤوس ذوي الأهواء والبدع، الذين تأولوا بآرائهم المدخولة فأخطئوا، وتكلموا في كتاب الله جلّ وعزّ بلكنتهم العجمية، دون معرفة ثاقبة، فضلوا وأضلوا"¹.

4. منزلة علم غريب الحديث وأهمية التأليف فيه:

علم غريب الحديث من أشرف العلوم وأجلّها، ذلك لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم، والمعلوم هنا هو فقه حديث رسول الله ومعرفة معانيه، وليس يخفى أهمية هذا العلم لما يترتب عليه من استنباطٍ للأحكام الشرعية، وفهمٍ لمقاصد الشريعة، لذلك كان الاشتغال به اشتغالا بأعلى المطالب، وتحصيله من أشرف المواهب، يقول أبو عمرو عثمان بن الصلاح (ت643هـ): "هذا فنّ مهمّ يقبّح جهله بأهل الحديث خاصة، ثم بأهل العلم عامة، والخوض فيه ليس بالهين، والخائض فيه حقيق بالتحري، جدير بالتوقي"²، ويرى الإمام السخاوي (ت902هـ) أنّ الغرض منه أوسع إذ يقول: "وهو من مهمّات الفن لتوقّف التلقّظ ببعض الألفاظ -فضلاً عن فهمها- عليه، وتؤكد العناية به لمن يروي بالمعنى"³، إذ من الصعوبة بمكان أن ينقل الراوي ما لا يُحسِن فهمه، ولا يفقه معناه.

ولخطورة الخوض في علم الغريب، رغب عن التأليف فيه كثير من المحدثين خشية أن يقعوا في الزلل، فهذا الإمام أحمد بن حنبل (ت241هـ) يُسأل مرة عن حرف من غريب الحديث، فيقول:

¹ - تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحق: عبد السلام هارون، دار المصرية للتأليف والترجمة، دط، 1964م، ج1، ص4.

² - علوم الحديث، أبو عمرو عثمان بن الصلاح الشهرزوري، تحق: نور الدين عتر، دار الفكر، دمشق سوريا، 1986، ص272.

³ - فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، مكتبة المنهاج، الرياض، السعودية، ط1، 1426هـ، ج3، ص412.

"سلوا أصحاب الغريب، فإنني أكره أن أتكلم في قول الرسول ﷺ بالظن فأخطئ"¹، ويؤكد الإمام النووي (ت676هـ) -رحمه الله تعالى- على صعوبة هذا الفن، فيقول: "وهو فنّ مهمّ، والخوض فيه صعب فليتحرّر خائضه، وكان السلف يتثبتون فيه أشدّ التثبت"²، وجعل الإمام الحافظ أبو شامة (ت665هـ) فيما نقله عنه السيوطي (ت911هـ) معرفة غريب الحديث من أشرف علوم الحديث وأجلّها حيث قال: "علوم الحديث الآن ثلاثة؛ أشرفها حفظ متونه ومعرفة غريبها وفقهها، والثاني: حفظ أسانيده ومعرفة رجالها، وتمييز صحيحها من سقيمها... والثالث: جمعه وكتابته وسماعه، وتطويره، وطلب العلو فيه، والرحلة إلى البلدان"³.

ولما كان فهم الحديث متوقفا على فهم معاني ألفاظه، ذهب طائفة من أهل العلم إلى أن شرح الغريب واجب، كونه صورة من صور شرح الحديث، يقول العز بن عبد السلام في أواخر القواعد: "البدعة خمسة أقسام: فالواجبة كالاشتغال بالنحو الذي يفهم به كلام الله ورسوله لأن حفظ الشريعة واجب، ولا يتأتى إلا بذلك، فيكون من مقدمة الواجب، وكذا شرح الغريب وتدوين أصول الفقه، والتوصل إلى تمييز الصحيح والسقيم..."⁴، وإلى مثل هذا ذهب الشيخ أحمد شاکر في تعليقه على ألفية السيوطي إذ يقول: "هذا الفن من أهم فنون الحديث واللغة، ويجب على طالب الحديث إتقانه، والخوض فيه صعب، والاحتياط في تفسير الألفاظ النبوية واجب، فلا يقدمنّ عليه أحد برأيه"⁵.

وما حظي هذا الفنّ بهذه المنزلة وبهذا الاهتمام إلا لأنه "يجمعُ إلى علم الرواية وقواعد ضبط الألفاظ، وتصحيح النسخ، ومعرفة ألفاظ الحديث ورواياته بما يعين على فهم اللفظة الغريبة الواقعة في أحد الروايات؛ علم الدراية بأوسع ما يكون معناه من اطلاع جزئي على معاني الحديث،

¹ - ينظر: علوم الحديث، ابن الصلاح، ص272.

² - التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير، الإمام النووي (مُحي الدين بن شرف)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1985م، ص87.

³ - تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جلال الدين السيوطي، ص76.

⁴ - ينظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، المكتبة السلفية، القاهرة، مصر، ط1، 1379هـ، ج13، ص254.

⁵ - ألفية السيوطي في علم الحديث، تعليق: أحمد شاکر، المكتبة العلمية، ص100.

إلى اطلاع كلّي على أحوال النبوة، ومعاشه الشريف صلى الله عليه وسلم، وأحوال صحبه رضي الله عنهم، ومجتمع العرب بدوه وحضره، ويجمع أيضاً علوم العربية: نحوها وصرفها وبلاغتها، ومعرفة لغاتها وغير ذلك"¹.

ولأن هذا العلم صعب المرتقى، لم يجسر على اقتحام أسواره إلا من علا كعبه، وسطع نجمه في شتى العلوم، وبلغ رتبة الاجتهاد أو كاد؛ "فلم يطرق بابه، ولم يخض لبابه سوى أفرادٍ قليلين من أهل العلم قديماً وحديثاً"²، ونعدّ منهم: أبا عبيد القاسم بن سلام، وابن قتيبة، والحري، والخطابي، والزمخشري، وابن الجوزي وابن الأثير وغيرهم من علماء الأمة الأكابر، الذين أخذوا بحظ وافر من علوم الحديث رواية ودرايةً، وألمّوا بأساليب العربية وعلومها، وأكثروا من الرحلة في الطلب والسماع، فهذا الأصمعي على جلاله قدره وعلوّ كعبه في علم اللغة يُسأل عن معنى حديث: «الجار أحقّ بسقّبه»، فقال: "أنا لا أفسّر حديث رسول الله ﷺ، ولكن العرب تزعم أنّ السقّب: اللزيق"³.

5. جهود العلماء في غريب الحديث بين وضع المناهج وتأليف الكتب:

1.5. مناهج الوضع في كتب غريب الحديث:

لقد ذهب أصحاب الحديث في غريبهم مذهب أصحاب غريب القرآن وساروا على هديهم في تفسير غريب ألفاظ الحديث النبوي الشريف، بل كان أغلب من ألف في غريب الحديث قد سبق لهم التأليف في غريب القرآن.

¹ - غريب الحديث، تعريفه، أهميته، أهم المؤلفات فيه، هوازن الشريف، الموقع إلكتروني: شبكة شعاع الدعوية للتعليم عن بعد، بتاريخ: 19-2-2014م، الرابط:

http://www.4shared.com/office/Qs6rWCD3/_____3.html

² - النهاية في غريب الحديث والأثر (مقدمة المحقق)، ابن الأثير الجزري، تحق: علي حسن الحلبي، دار ابن الجوزي، الرياض، السعودية، ط1، 1421م، ص5.

³ - ينظر: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جلال الدين السيوطي، ص763.

وقد صُنِّفَتْ كُتُبُ غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَفَقَ مَنَاهِجَ عَدَّةٍ، لَعَلَّ أَشْهَرَهَا ثَلَاثَةٌ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَعْدَمُ غَيْرَهُمَا:

المنهج الأول: جمع الأحاديث على المسانيد وشرح الغريب الذي ورد فيها، وهو منهج المتقدمين في هذا الفن، حيث عمدوا إلى جمع الأحاديث مسندة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وإلى الصحابة والتابعين، يفسِّرون ما ورد فيها من غريب دون عناية بالترتيب، وممَّن سلك هذا المسلك أبو عبيد القاسم بن سلام، وابن قتيبة الدينوري، وأبو إسحاق الحربي، وأبو سليمان الخطابي، وأبو محمد القاسم ابن حزم السرقسطي في كتابه **الدلائل**، وغيرهم من العلماء.

المنهج الثاني: ترتيب الألفاظ الغريبة على أوائل الحروف، وهذا المنهج أقرب تناولا، وأيسر سبيلا، ثم هو أجدى نفعا في الدراسات اللغوية، حيث يفيد في تتبع اللفظ، ومعرفة دورانه وتطوره الدلالي¹، وأوَّل من اعتمد هذه الطريقة شَمْرُ بن حَمْدويه (ت255هـ) في كتابه "الجيم"، قال عنه ياقوت: "صنف كتابا كبيرا، رتبه على حروف المعجم، ابتدأ فيه بحرف الجيم وطوَّله بالشواهد والروايات الجمَّة وأودعه تفسير القرآن وغريب الحديث شيئا لم يسبقه إلى مثله أحد تقدَّمه"²، وتابعه على هذه الطريقة أبو عبيد الهروي (ت401هـ)، والإمام محمد بن عمر الزمخشري (ت538هـ)، وأبو موسى المديني (ت581هـ)، وابن الجوزي (ت597هـ)، وابن الأثير (ت606هـ) في "النهاية"، وغيرهم كثير.

المنهج الثالث: الجمع بين المنهجين الأول والثاني، أي: الجمع بين طريقة المسانيد وطريقة الترتيب على الحروف: وجسد هذه المنهج الإمام الحربي في كتابه "غريب الحديث"، حيث رتبت أحاديثه حسب المسانيد، ورتبت الألفاظ في كل مسند على الحروف الحلقية ومقلوباتها.

¹ - ينظر: في اللغة والأدب، دراسات وبحوث، محمود الطناحي، دار الغارب الإسلامي، ج1، ص398.

² - معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ج3، ص1420.

- وهناك طرائق أخرى اعتمدها أصحاب الغريب في مصنفاتهم ذكرها الشرقاوي وغيره، منها¹:
- تجريد أحاديث بعينها وإفرادها بالشرح: كما صنع أبو بكر بن الأنباري مع حديث عائشة في وصفها لأبيها الصديق رضي الله عنهما، وصنيع القاضي عياض اليحصبي (ت544هـ) مع حديث أم زرع في كتابه الموسوم بـ: " بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد".
 - جمع أحاديث لها صفة خاصة وشرحها: وذلك نحو ما صنع مجد الدين بن الأثير (ت606هـ) في مصنفه "منال الطالب في شرح طوال الغرائب"، حيث تناول الأحاديث الطويلة، وشرح ما فيها من غريب.
 - التأليف في الغريبين: مثل صنيع أبي عبيدة الهروي في كتاب "الغريبين في القرآن والحديث".
 - شرح غريب كتاب من كتب الحديث، أو مجموعة كتب: على شاكلة غريب مسند الإمام أحمد بن حنبل لأبي عمر الزاهد (ت345هـ)، وتفسير غريب الموطأ لأصبغ بن الفرغ (ت225هـ).
 - الاستدراك: حيث يتم استدراك مصنف على مصنف آخر، كما فعل ابن قتيبة لما استدرك على أبي عبيد القاسم بن سلام، ويوضح ابن الأثير علاقة كتاب ابن قتيبة بكتاب أبي عبيد قائلاً: "حذا ابن قتيبة حذو أبي عبيد، ولم يودعه شيئاً من الأحاديث المودعة في كتاب أبي عبيد إلا ما دعت إليه حاجته من زيادة شرح وبيان أو استدراك"².
 - الترتيب على أبواب الفقه: ومثال ذلك كتاب أبي عدنان عبد الرحمان الأسلمي الموسوم بـ: "ما جاء من الحديث المأثور عن النبي عليه السلام مفسراً"، حيث ذكر القفطي أنه مرتب على أبواب الفقه³.

¹ - ينظر: معاجم غريب الحديث والأثر والاستشهاد بالحديث في اللغة والنحو، السيد الشرقاوي، مكتب الخانجي، القاهرة، ط1، 2001م، ص 53 وما بعدها. وينظر: في اللغة والأدب، دراسات وبحوث، محمود الطناحي ج1، ص398.

² - النهاية في غريب الحديث والأثر (مقدمة المؤلف)، ابن الأثير، تحقق: أحمد الخراط، وزارة الأوقاف، قطر، ص 10.

³ - إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين بن يوسف القفطي، دار الفكر العربي، مصر، ط1986، 1م، 1406هـ، ج3، ص14.

• إصلاح الغلط والرّد وشرح المشكل: من ذلك كتاب "إصلاح الغلط الواقع في غريب الحديث" لابن قتيبة الدينوري (ت276هـ)، وكتاب "هفوات الغريبين" لأبي موسى الأصبهاني (ت581هـ).

• الاختصار وإعادة الترتيب والتهذيب: وكان الهدف من هذا النوع من المصنفات تعليميا محضا، ومن نماذجه "مختصر غريب الحديث" لأبي عليّ الحسن بن أحمد الأستراباذي، و"تهذيب غريب الحديث" لأبي زكريا يحيى بن عليّ الخطيب التبريزي (ت502هـ).

2.5. أبرز المصنفات في غريب الحديث:

لما بَعُدَ العهد بالناس عن عصر النبوة؛ استعجموا كثيرا من كلام النبي ﷺ، فكانت الحاجة ماسة إلى شرح غريبه، وتفسير ما استعصى فهمه واستغلقت معانيه، فبادر نفر من أهل العلم إلى التأليف في غريب الحديث، لكنهم تأخروا كثيرا مقارنة بالتأليف في صِنُوهِ غريبِ القرآن، فإذا كانت بدايات التأليف في غريب القرآن منذ القرن الأول الهجري، فإن التأليف في غريب الحديث بدأ بنهاية القرن الثاني الهجري، ومطلع القرن الثالث الهجري، ذلك لأنّ القرآن الكريم محفوظ متعبّد بتلاوته، وحرص المسلمين عليه من حرص النبي الكريم عليه، خلافا لألفاظ الحديث التي لم يكن متعبدا بتلاوتها، بل أجاز بعض من تحمّله من العلماء روايته بالمعنى إذا تعذر عليهم ضبط لفظه، كما أنّ جمع الحديث وتدوينه، قد تأخر عن تدوين القرآن بأمر من النبي ﷺ خشية أن يختلط شيء منه بالقرآن فيلتبس الأمر على المسلمين، أو خشية أن ينشغل الناس بالسنة عن القرآن، أو خوف أن تزاحم قراطيس الحديث الكتاب العزيز.

وإذا كان كلّ علم يبدأ صغيرا ثم يكبر، فإنّ جهود العلماء في تفسير غريب الحديث بدأت متواضعة على يد جِلَّةٍ من العلماء نذكر منهم النضر بن شميل (ت203هـ)، وأبا عبيدة معمر ابن المثنى (ت209هـ)، ومحمّدا بن المستنير قطرب (ت210هـ)، وعبد الملك بن قريب الأصمعي (ت213هـ) وغيرهم، ثم أخذت هذه الجهود تخطو نحو الكمال، لينتهي بها المطاف

إلى مجلدات وأجزاء ضخمة، على شاكلة مصنف أبي بكر بن الأنباري (ت328هـ) الذي قال عنه ابن خلكان أنه "بلغ خمسة وأربعين ألف ورقة"¹.

واختلف الباحثون في أول من صنّف في هذا الفن على ثلاثة أقوال:

القول الأول: إنّ أول من ألف في هذا الفن أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت209هـ)، وقال بهذا أكثر الباحثين تبعاً لابن الأثير الذي أخبر "أنّ أول من جمع في هذا الفن شيئاً وألّف أبو عبيدة معمر ابن المثنى التميمي (ت209هـ)، فجمع من ألفاظ غريب الحديث والأثر كتاباً صغيراً ذا أوراق معدودات، ولم تكن قلته لجهله بهذا العلم، وقلة زاده منه، بل كانت لسببين اثنين؛ أحدهما: أنّ كلّ مبتدئ بشيء لم يسبق إليه، ومبتدعٍ لأمر لم يتقدم فيه عليه؛ فإنه يكون قليلاً ثم يكثر، وصغيراً ثم يكبر، والثاني: أنّ الناس يومئذ كان فيهم بقيّة، وعندهم معرفة، فلم يكن الجهل قد عمّ، ولا الخطب قد طمّ"². وثنى ابن الأثير بالنضر بن شميل (ت203هـ) بعد أبي عبيدة معمر بن المثنى، فقال: "ثم جمع أبو الحسن النضر بن شميل المازني بعده كتاباً في غريب الحديث أكبر من كتاب أبي عبيدة"³.

والذي يظهر لنا أن ابن الأثير لم يجزم بهذا القول، ولم ينسبه إلى أحد قبله، كونه اعتمد صيغة التمريض في بداية كلامه، لما قال: "قيل إنّ أول من جمع في هذا الفن شيئاً وألّف أبو عبيدة معمر ابن المثنى..."، ولكنه نصّ صراحة على أنّ مصنّف النضر بن شميل جاء بعد كتاب أبي عبيدة، ممّا يعني أنه يرجّح أسبقية أبي عبيدة على النضر بن شميل.

القول الثاني: إنّ أول من أسهم في هذا اللون من الدراسات اللغوية هو أبو عدنان عبد الرحمان ابن عبد الأعلى السلمي (ت210هـ)⁴، وبذا قال ابن النديم في الفهرست، ورجحه حسين نصار، حيث

¹ - ينظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقق: إحسان عباس، دار الفكر، بيروت، ص 342

² - النهاية، تحقق: أحمد الخراط، ص5.

³ - المصدر نفسه.

⁴ - ينظر: الفهرست لابن النديم، ص87.

قال: "وإنما عزا أكثر الباحثين الكتاب الأول في غريب الحديث إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى (209هـ) تبعاً لابن الأثير، ولكن هذا القول يجب ألا يؤخذ قضية مسلمة، فقد نسب ابن النديم الكتاب الأول من هذا النوع إلى أبي عدنان عبد الرحمان بن عبد الأعلى"¹، إلى أن قال: "ولكن إذا كان لنا أن نعتمد على مؤرخ، فالأجدر بالترجيح ابن النديم، لأنه أقدمهم وأقربهم إلى عصر المؤرخين، فنقدم بذلك أبا عدنان على أبي عبيدة"².

وبالعودة إلى توصيف ابن النديم، يظهر جلياً أنه لم ينصَّ صراحة على تقدّم أبي عدنان في هذا الفن، فهو يقول: "وله من الكتب كتاب النحويين، وكتاب غريب الحديث، وترجمته ما جاء من الحديث المأثور عن النبي مفسّراً، وعلى أثره ما فسّر العلماء من السلف"³. وفي هذه المقالة توهين لمن استند إلى هذا القول من المحققين.

القول الثالث: إنّ أول من صنف في غريب الحديث هو النضر بن شميل المازني (ت203هـ)، وأول من قال بهذا الحاكم النيسابوري، حيث جاء في كتابه "معرفة علوم الحديث" ما نصّه: "وهذا علم قد تكلم فيه جماعة من أتباع التابعين، منهم مالك والثوريّ وشعبة فمن بعدهم، فأول من صنف الغريب في الإسلام: النضر بن شميل، له فيه كتاب هو عندنا بلا سماع"⁴، وقد رجح هذا القول الكتاني⁵، كما رجّحه أحمد شاكر في تعليقه على ألفية السيوطي⁶.

¹ - المعجم العربي- نشأته وتطوره- حسين نصار، ص50.

² - المصدر نفسه، ص43.

³ - الفهرست، ابن النديم، ص68.

⁴ - معرفة علوم الحديث، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ص295.

⁵ - ينظر: الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، محمد بن جعفر الكتاني (1345هـ)، دار البشائر الإسلامية، ط5،

1993م، ص115.

⁶ - ألفية السيوطي في علم الحديث، ص100.

وعامة من جاء بعد الحاكم النيسابوري وابن الأثير من العلماء كابن الصلاح والنووي وابن كثير والعراقي في ألفيته، ذكروا الخلاف الحاصل في هذه المسألة دون أن يرجحوا أيّ الثلاثة ابتدر التأليف في الغريب أولاً، ذلك لأنّ هؤلاء العلماء الأوائل متعاصرون متقاربون، فيصعب الجزم أيّهم كان صاحب السبق في التصنيف في هذا الفنّ.

ومهما يكن من أمر، فإن الفصل في هذه القضية ليس له كبير فائدة، ولا يرتجى من ورائه آثار علمية قد تُحدث مفارقة في مسار هذا العلم، إنما يكفينا تعداد أسماء من اضطلع بالتأليف فيه، خاصة وأن بواكير الجهود في هذا الفن لم يصلنا منها شيء، ولم يبلغنا منها إلا الاسم والوسم، وذلك بحسب ما سطرته المصادر التي عنيت بالتأريخ لها ولأصحابها.

ثم إنّ هذه المصنفات البواكير على كثرتها، إذا جُمعت آلت في مجملها إلى كتاب واحد، يقول الخطابي في وصفها: "هذه الكتب على كثرة عددها، إذا حُصّلت؛ كانت كالكتاب الواحد، إذ كان مصنفوها لا يقصدون بها مذهب التعاقب، كصنيع القتيبي أبي محمد عبد الله بن مسلم*، إنما سبيلهم فيها أن يتوالوا على الحديث فيعتوروه فيما بينهم، ثم يتبارون في تفسيره، يدخل بعضهم على بعض، ولم يكن من شرط المسبوق منهم أن يفرج للسابق عما أحرزه، وأن يقتضب الكلام في شيء لم يفسّر قبله"¹.

ومن صفاتها أيضاً أنها تعاني من القصور في الشرح والتفسير، بل ويعمد أصحابها إلى شرح ما لا يكاد يخفى معناه على أحد، يقول الخطابي: "إنما هي أو عامتها إذا انقسمت وقعت بين مقصّر لأموه في كتابه، إلا أطرافاً وسواقط من الحديث، ثم لا يُؤفّقها حقّها من إشباع التفسير، وإيضاح المعنى، وبين مُطيل يسرد الأحاديث المشهورة التي لا يكاد يُشكّل منها شيء، ثم يتكلّف

* هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوري (ت276هـ)، والقتيبي نسبة إلى قُتيبة، وسيأتي الحديث عنه في قابل.

¹ - غريب الحديث، الخطابي، ج1، ص50.

تفسيرها ويطنب فيها، وفي بعض هذه الكتب خلل من جهة التفسير، وفي بعضها أحاديث منكورة لا تدخل في شرط ما أنشئت له هذه الكتب¹ اهـ.

ومما سبق، يظهر لنا أن أهمّ ما ميّز هذه المرحلة من مراحل التأليف في غريب الحديث، والتي يمكن أن نصلح عليها بمرحلة البدايات، أن أئمة هذا الفنّ قد "جمعوا أحاديث وتكلموا على لغتها ومعناها في أوراق ذوات عدد، ولم يكد أحدهم ينفرد عن الآخر بكثير من الأحاديث"²، فحجمها صغير وأوراقها قليلة، جمعت أحاديث قليلة وعينت بشرح غريبها.

وظلّ الناس على هذه الحال، إلى أن ظهر مصنّف "غريب الحديث" لأبي عبيد القاسم ابن سلام الهروي (224هـ)، وهو أوّل كتاب وصل إلينا، ضمّنه صاحبه عامة ما يحتاج إلى تفسيره من غريب الأحاديث النبوية وآثار الصحابة والتابعين مستفيدا من مؤلفات من سبقه في هذا الفنّ، جمع بين الشرح اللغوي والتخريج الفقهي، فتلقّفه اللغويون والمحدّثون والفقهاء وتلقوه بالقبول، وصار لهم قدوة وإماما، وبدل على قيمة هذا المصنّف العلمية أن أبا عبيد قضى في تأليفه خلاصة عمره، حيث روي عنه أنه قال: "مكثت في تصنيف هذا الكتاب أربعين سنة، وربما كنت أستفيد الفائدة من أفواه الرجال، فأضعها في موضعها من الكتاب، فأبيت ساهرا فرحًا منّي بتلك الفائدة"³.

ومن الأساليب التي اعتمدها أبو عبيد في تأدية معاني الغرائب؛ الشرح بالمرادف أو اعتماد السياق اللغوي للفظ الغريبة، أو اعتماد بنية نحوية تعريفية لإبراز المعنى، ومما يؤخذ على أبي عبيد في مصنّفه هذا؛ أنه اهتم بالجمع وأهمل التبويب والترتيب، فجاء جمعه لمادة الغريب عشوائيا⁴،

¹ - غريب الحديث، الخطابي، ج1، ص231

² - النهاية لابن الأثير، ص8.

³ - غريب الحديث، القاسم بن سلام، ورقة13، نقلا عن: محمود الطناحي في كتابه: في اللغة والأدب، دراسات وبحوث، ص398.

⁴ - مناهج التأليف المعجمي عند العرب، عبد الكريم مرداوي، دار الثقافة، عمان، الأردن، ط1، 2010م، ص103.

مما يجعل البحث عن الغرائب ومعانيها صعب المنال، يحتاج معه الكتاب إلى فهارس تجعل من الوصول إلى ألفاظه ميسورا، وهو ما قام به ابن قدامة (ت620هـ) حيث رتبته على الحروف.

ثم جاء من بعده أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت276هـ)، فصنّف كتابه المشهور في غريب الحديث، "حذا فيه حذو أبي عبيد، ولم يودعه شيئا من الأحاديث المودعة في كتاب أبي عبيد إلا ما دعت إليه حاجة من زيادة شرح وبيان، أو استدراك أو اعتراض، فجاء كتابه مثل كتاب أبي عبيد أو أكبر منه"¹، وظنّ ابن قتيبة بصنيعه هذا أنه قد أتى على كل الغريب حيث قال في مقدمة كتابه: "أرجو أن لا يكون بقي بعد هذين الكتابين - يقصد كتابه و كتاب أبي عبيد - من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال"²، لكن الحقيقة خلاف ذلك، فالغريب الواقع في حديث رسول الله ﷺ أكبر من أن يستوعبه مؤلف أو يحتويه مصنّف، لذا؛ فقد فاتهما نزر غير يسير، فكم ترك الأول للآخر، والدليل كثرة ما أُلّف من بعدهما في هذا الفنّ.

ويمكن الإشارة هنا إلى أنّ ابن قتيبة قد أسس لمنهجية معجمية في ذلك الزمن المتقدم، قوامها تقليب المفردة - أو الوحدة المعجمية في الاصطلاح الحديث - في سياقات عدة، حتى يظهر معناها الاصطلاحي بعد معناها اللغوي، وذلك من خلال اعتماده في شرح مفردات الغريب على الترادف، أو بالاعتماد على الصيغة الصرفية أصلا واشتقاقا، أو على البنية النحوية، أو على السياق اللغوي.³

ومُنّ عاصر ابن قتيبة وألّف في هذا الفنّ إبراهيم بن أبي إسحاق الحربي (ت285هـ)، وله مصنّف مشهور سماه "غريب الحديث"، قال عنه ابن الأثير: "هو كتاب كبير ذو مجلدات عدّة، جمع فيه وبسط القول، وشرح واستقصى الأحاديث بطرق أسانيدها، وأطاله بذكر متونها وألفاظها، وإن لم يكن فيها إلا كلمة واحدة غريبة، فطال لذلك كتابه، وبسبب طوله تُرك وهجر، وإن كان

¹ - النهاية، ابن الأثير، ص 9، 10.

² - غريب الحديث، ابن قتيبة، تحقيق: عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، 1977م، ج1، ص 152.

³ - ينظر: مناهج التأليف المعجمي عند العرب، عبد الكريم مرداوي، ص 106.

كثير الفوائد جمّ المنافع...¹، وهو كتاب رتبت أحاديثه حسب المسانيد، ورتبت الألفاظ في كل مسند على الحروف الحلقية ومقلوباتها، ولم يعثر منه إلا على المجلدة الخامسة، طبعت بتحقيق الدكتور سليمان العايد في ثلاثة مجلدات بجامعة أم القرى بمكة المكرمة عام 1405هـ، مع دراسة وافية عن الكتاب وتذييله بفهارس شاملة .

ولم يزل العلماء يؤلفون في غريب الحديث حتى ظهر الإمام أبو سليمان حمد بن محمد بن أحمد الخطابي البستي (ت388هـ)، فصنف كتابه الشهير في غريب الحديث، اقتفى فيه أثر أبي عبيد وابن قتيبة، حيث قال في مقدمته: "بقيت بعدهما صُباةً، للقول فيها مُتربّض، توليتُ جمعها وتفسيرها، مسترسلا بحسن هدايتهما، وفضل إرشادهما، بعد أن مضى عليّ زمان وأنا أحسب أنه لم يبق في هذا الباب لأحد متكلم، وأنّ الأول لم يترك لآخر شيئا"²، وهو ثالث ثلاثة كتب عدّها ابن الأثير أمّات كُتب غريب الحديث إلى جانب كتاب أبي عبيد وكتاب ابن قتيبة بقوله: " فكانت هذه الكتب الثلاثة في غريب الحديث والأثر أمهات الكتب"³، وكان منهجه أنه يورد الحديث ثم يتبعه بسنده، ثم يفسر الكلمات اللغوية ويستشهد لهذا التفسير بآية أو حديث أو شعر، وهو منهج تتبع فيه أثر أبي عبيد القاسم بن سلام في كتابه "غريب الحديث".

فلما كان زمان أبي عبيد أحمد بن محمد الهروي (ت401هـ)، صنّف كتابه المشهور "الغريبين في القرآن والحديث"، جمع فيه بين غريب القرآن وغريب الحديث وآثار الصحابة والتابعين، وهو أحد كتابين اعتمد عليهما ابن الأثير في تصنيف كتابه "النهاية في غريب الحديث والأثر"، حيث وصفه بقوله: "رتبه مقفى على حروف المعجم، على وضع لم يسبق في غريب القرآن والحديث إليه، فاستخرج الكلمات اللغوية من أماكنها، وأثبتها في حروفها وذكر معانيها"⁴، أخذ مادّته من كتب من تقدّمه

¹ - النهاية، لابن الأثير، تحقق: أحمد الخراط، ص 10.

² - غريب الحديث، الخطابي، ص 48.

³ - النهاية، لابن الأثير، تحقق: أحمد الخراط، ص 13.

⁴ - المصدر نفسه، ص 14.

كأبي عبيد، وابن قتيبة وغيرهما وزاد عليه، ورتبه على حروف المعجم، وهو ترتيب لم يُسبق إليه على حدّ تعبيره؛ اللهم إلا شمر بن حمدويه في كتابه "الجيم"، وحذف الأسانيد، فجاء كتابه جامعا في الحسن بين الجمع والوضع، "فإذا أراد الإنسان كلمة غريبة وجدها في حرفها بغير تعب، إلا أنه جاء الحديث مفرقا في حروف كلماته"¹، ولسهولة انتواله؛ صار كتابه عمدة في غريب الحديث.

واستمرت هذه الحال إلى زمن أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ)، الذي جمع كتابه المشهور "الفائق في غريب الحديث"، وكان قد أعجب به ابن الأثير لغزارة مادته اللغوية، حتى قال فيه: "وسمّاه الفائق، ولقد صادف هذا الاسم مسمّى، وكشف من غريب الحديث كلّ معمّى"²، ورتبه على حروف المعجم، لكنه كان يورد نص الحديث كاملا، ثم يشرح كل ما فيه من غريب في حرف واحد، فتأتي بعض الألفاظ في غير موضعها، وهذا المنهج في الترتيب لا شك أنه يتعب من يتطلب غريبة من الغرائب فيه، ويجد فيه مشقة، لذا يرى ابن الأثير أن كتاب "الغريبين" للإمام الهروي أقرب منه تناولا، وأسهل مأخذا.³

ومما يحسب للزمخشري في كتابه "الفائق"، أنه جمع الحديث ورتب الألفاظ في آن واحد، خلافا لما هي عليه كتب الغريب، فهي إما مجموعة الأحاديث، غير مرتبة الألفاظ على حروف المعجم، وإما أن تكون ألفاظها مرتبة على حروف المعجم، فتفرقت بها الأحاديث. ذلك لأنّ الحديث إذا اجتمع شرحه في موضع واحد، ظهر وجهه، واتضحت مراداته، بخلاف شرحه مبدا بحسب موضع كلّ لفظة منه، فإن ذلك يذهب بأكثر معنى الحديث وفحواه، فكأنّ الزمخشري بصنيعه هذا؛ قد وفق كلّ طالب مبتغاه"⁴.

¹ - النهاية لابن الأثير، تحقق: الخراط، ص 14.

² - المصدر نفسه، ص 15.

³ - ينظر: المصدر نفسه.

⁴ - ينظر: الجامع في غريب الحديث، أبو عبد الله عبد السلام بن محمد علوش، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 2001م، ص18.

ثم جاء الحافظ أبو موسى محمد بن أبي بكر المدني الأصفهاني (ت581هـ)، فاعتنى بكتاب "الغريبين" للإمام الهروي، واستدرك عليه ما فاتته، فصنف كتابا سماه "المجموع المغيث في غريب القرآن والحديث" يضاهيه قيمةً وحجماً وفائدةً، نهج فيه منهجه ورتبه على منواله، وهو ثاني مصدرين اعتمدهما ابن الأثير في النهاية نصّاً بعد كتاب "الغريبين" للسالف الذكر، وصف ابن الأثير مصنف أبي موسى فقال: "كان أبو موسى إماماً في عصره، حافظاً متقناً تُشدُّ إليه الرحال، وتناط إليه من الطلبة الآمال، ولما وقفتُ على كتابه، وجدته في غاية الحسن والكمال"¹. ويرى ابن الأثير أنّ أبا موسى لم يأخذ عن الهروي إلا كلمة اضطر إلى ذكرها إما لخلل فيها، أو زيادة في شرحها، أو وجه آخر في معناها².

وتقرأ للإمام أبي الفرج عبد الرحمان بن علي بن الجوزي (ت597هـ) - وهو عصريُّ أبي موسى المدني - كتاباً في غريب الحديث، قال عنه ابن الأثير أنه "نهج فيه طريق الهروي في كتابه، وسلك فيه محجته، مجرداً من غريب القرآن"³، وقال عنه ابن الجوزي نفسه أنه جمع فيه ما فات من تقدّمه من غريب، وهو في نظره كثير، لكن ابن الأثير يرى أنه انتزعه من كتاب "الغريبين" للإمام الهروي انتزاعاً إلا ما ندر من كلمات شاذة وألفاظ فادّة، وهو يسير جداً⁴.

ويرى عبد الكريم المردواي أن ابن الأثير لم يكن منصفاً ولا موضوعياً حين نصّ على أن غريب ابن الجوزي منتزَع من كتاب "الغريبين" للهروي، لأمر منها: أنّ ابن الجوزي جرّد غريبه من غريب القرآن، وهذا أول اختلاف بينهما، ومنها مثلاً أنه أورد تسعة عشر حديثاً في باب الهمزة مع الباء،

¹ - النهاية لابن الأثير، تحق: الخراط، ص 16.

² - المصدر نفسه، ص 17.

³ - المصدر نفسه، ص 16.

⁴ - المصدر نفسه، ص 17.

في حين يكتفي الهروي بستة أحاديث فقط¹، وغيرها من الفروق التي وقف عليها في أثناء مقارنة كتاب ابن الجوزي بكتاب الهروي رحمهما الله.

وتواصلت هذه السلسلة العلمية الحديثية، إلى أن وصلت إلى عهد مجد الدين أبي السعادات ابن محمد الجزري المعروف بابن الأثير، فألّف كتابه "النهاية في غريب الحديث والأثر"، "فقد انتهى إليه حصاد طيّب في شرح غريب الحديث، أفاد منه وأرّب عليه في استقصاء معجز، ودأب مشكور، بحيث جاء كتابه بحقّ النهاية في هذا الفن الشريف، ولم تندّد عنه إلا أحاديث يسيرة ذكرها السيوطي في كتابيه: الدر النثير والتذليل والتذنيب"²، وعمدته الأولى كتاب "الغريبين" للهروي وكتاب "المجموع المغيث في غربي القرآن و الحديث" لأبي موسى المديني(581هـ)، حيث صرّح بذلك في مقدمته فقال: "ولما وقفت على كتابه الذي جعله مكملًا لكتاب الهروي ومتمما -يقصد المجموع المغيث- وهو في غاية الحسن والكمال، وكان الإنسان إذا أراد كلمة غريبة يحتاج إلى أن يتطلّبها في أحد الكتابين، فإن وجدها فيه وإلا طلبها من الكتاب الآخر، وهما كتابان كبيران ذوا مجلدات عدة، ولا خفاء بما في ذلك من الكلفة، فرأيت أن أجمع ما فيهما من غريب الحديث مجردا من غريب القرآن، وأضيف كل كلمة إلى أختها في بابها تسهيلا لكلفة الطالب"³.

ورتب ابن الأثير كتابه على حروف المعجم حيث قال: "سلكت طريق الكتابين-يقصد الغريبين والمجموع المغيث- في الترتيب الذي اشتملا عليه، والوضع الذي حوياه من التقفية على حروف المعجم، بالتزام الحرف الأول والثاني من كل كلمة وإتباعها بالحرف الثالث إلخ..."⁴.

¹ - مناهج التأليف المعجمي عند العرب، عبد الكريم مرداوي، ص 125.

² - النهاية لابن الأثير (مقدمة المحقق)، تحق: محمود الطناحي و طاهر الزاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص 7.

³ - النهاية لابن الأثير، تحق: الخراط، ص 17.

⁴ - المصدر نفسه، ص 18.

ويبقى كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" هو النهاية في هذا الفن، وهو أكبر مرجع في غريب الحديث، جمع فيه ابن الأثير ما ورد في كتب من تقدمه، واستدرك عليها ما كان قد فاتها، وعليه اعتمد كثير من اللغويين مؤلفي المعاجم، وأغلب ما صُنِّف بعد "النهاية" إنما هو اختصار له أو تذييل أو نظم، وهو الكتاب الذي نروم دراسته في هذا البحث، وسنعود إليه بالتفصيل في الفصلين الأخيرين.

كانت هذه أهمّ المصنفات في علم غريب الحديث من البدايات حتى مرحلة النضج والكمال، وإلا فإنه "لم يخلُ زمانٌ وعصرٌ ممن جمع في هذا الفن شيئاً، وانفرد فيه بتأليف واستبد فيه بتصنيف"¹، فكثيرة هي الكتب في هذا الباب، والتي لم نذكرها أورد أغلبها أحمد الشرقاوي في مؤلفه "معجم المعاجم" مرتبة وفق سني وفيات أصحابها، وسبقه إلى ذلك غير واحد من العلماء، كابن النديم في "الفهرست"، والإمام الكتاني في "الرسالة المستطرفة".

6. الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف عند اللغويين والمعجميين والنحاة:

يراد بالشواهد عند علماء اللسان: "تلك الجزئيات التي تذكر لإثبات القواعد من كلام الله ﷻ، أو كلام رسول الله ﷺ، أو كلام العرب العرباء الثابتة فصاحتهم، الموثوق بعريبتهم"². والشاهد في عرف اللغويين والمعجميين حجة في إثبات وجود لفظ لغوي أو ضبط نطقه، أو تحديد معناه، وحجة عند النحويين في استنباط حكم أو تأصيل قاعدة نحوية أو إجازة ما جاء مخالفاً للقياس، أو الرد على المخالف وإظهار ضعف مذهبه النحوي.

ومن المعلوم أنه لا خلاف بين العلماء قديماً وحديثاً في الاستشهاد بالقرآن الكريم، وبما تمّ توثيقه من كلام العرب، والاحتجاج بهما في جميع علوم اللسان، لغةً ومعجماً و صرفاً ونحوً وبلاغةً،

¹ - النهاية، ابن الأثير، تحق: الخراط، ص 11.

² - شرح الكفاية لابن الطيب الفاسي، ص 95

فقد غصت بهما كتبهم، وامتلات بهما مصنفاتهم، بينما جرى بينهم خلاف في الاحتجاج بما يُروى من الأحاديث النبوية الشريفة، فانقسموا إلى طوائف ثلاث، بين مجيز مطلقا ومانع مطلقا ومجيز بشروط.

والذي عليه مدار الأمر؛ أنّ الإجماع منعقد على منزلة حديث رسول الله ﷺ العلية، وفصاحته السوية، وبلاغته الجليلة، فقد كان رسول الله ﷺ "أفصح العرب لسانا، وأوضحهم بيانا، وأعذبهم نطقا، وأسدّهم لفظا، وأبينهم لهجة، وأقومهم حجة، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طرق الصواب، تأييدا إلهيا، ولطفا سمائيا، وعناية ربانية، ورعاية روحانية"¹. لذلك؛ كان حرّيا بكلامه أن يتقدم سائر كلام العرب من شعر ونثر في باب الاستشهاد في اللغة والنحو سواء بسواء.

ومما يشهد به الواقع اللغوي؛ أنّ جمهور علماء اللغة والنحو من المتقدمين والمتأخرين يرون الاستشهاد بالحديث النبوي والاحتجاج به في المسائل اللغوية والمعجمية والنحوية، وبخاصة اللغويين والمعجميين، الذين توسعوا في ذلك ولم يتحرّجوا منه، فكثيرا ما تجدهم يستشهدون بالحديث على إثبات لفظ ما أو تعيين دلالاته، لأن غايتهم كانت المعنى دون التركيب، يقول محمد عيد: "لقد تقدم أنّ علماء المعاجم كابن فارس والأزهري اعتمدوا على الحديث في معاجمهم، ويمكن التأكد من ذلك بأدنى جهد... ويبدو أنّ ذلك كان لاختلاف الموقف بين المعاجم والصيغ والتراكيب، الأول يعتمد على المعنى، وهو غير موضع للنزاع، أمّا الأخيران فيعتمدان على صحة النطق وروايته، وهذا لم يتأكد منه، ومن ثمّ حدث الخلاف، وبعبارة لغوية حديثة: إنّ علماءنا فرقوا في الاستشهاد بالحديث بين المستوى الوظيفي والمستوى المعجمي، فرفض الأول وقبّل الثاني"².

ومن جملة هؤلاء العلماء الذين يرون الاستشهاد بالحديث النبوي من المتقدمين: أبو عمرو ابن العلاء، والخليل بن أحمد الفراهيدي، والكسائي، والفراء، والأصمعي، وأبو عبيدة، وابن الأعرابي،

¹ - النهاية لابن الأثير، تحقق: الخراط، ص 5.

² - الاستشهاد والاحتجاج باللغة، محمد عيد، دار عالم الكتب، ط3، 1988م، ص 111.

وابن السكيت، وأبو حاتم، وابن قتيبة، والمبرد، وابن دريد، وأبو جعفر النحاس، وابن خالويه، والأزهري، والفارابي، وابن فارس، وابن جني، والصاحب بن عباد، والجوهري، وابن بري، وابن سيده، وأبو القاسم السهيلي، وابن خروف، وجمال الدين بن مالك، ورضي الدين الأسترابادي، وابن منظور، والفيروزآبادي وغيرهم ممن يطول ذكرهم¹، ومن المعاصرين: محمد الخضر حسين، وسعيد الأفغاني، ومهدي المخزومي، وخديجة الحديثي... وهذه مصنفاتهم تشهد بذلك.

ولا نعلم أحدا من علماء العربية قد خالف في هذه المسألة، إلا ما أبداه الشيخان أبو حيان الأندلسي* في كتابه "التذييل والتكميل في شرح التسهيل"، وأبو الحسن بن الضائع** في كتابه "شرح الجمل"، وزعمًا أنه مذهب المتقدمين والمتأخرين، وتابعهما على ذلك الإمام السيوطي جلال الدين في كتابه "الاقتراح في علم أصول النحو"، والسبب في نظرهم أمران: أولهما؛ أنّ الأحاديث النبوية لم تنقل كما سمعت عن النبي ﷺ بلفظها، وإنما رويت بالمعنى، وثانيهما أن اللحن قد وقع كثيرا فيما روي من أحاديث المصطفى ﷺ، لأن كثيرا من الرواة كانوا أعاجم.

وقبل عرض ما ردّ به المحيزون للاستشهاد بالحديث على هذه العلة؛ لا بأس أن نسوق ما قاله ابن الضائع، وما قاله تلميذه أبو حيان، ثم ما قال به السيوطي بعدهما. يقول ابن الضائع: "تجويز الرواية بالمعنى هو السبب عندي في ترك الأئمة - كسيبويه وغيره - الاستشهاد على إثبات اللغة بالحديث، واعتمدوا في ذلك على القرآن، وصريح النقل عن العرب، ولولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى في الحديث لكان الأولى في إثبات فصيح اللغة كلام النبي ﷺ، لأنه أفصح العرب. قال:

¹ - ينظر: الحديث النبوي في النحو العربي، محمود فجال، ص 100.

* هو محمد بن يوسف بن حيان، أثير الدين أبو حيان الغرناطي الأندلسي الجياني (ت414هـ) فقيه ظاهري، ونحوي مبرز.

** هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن يوسف الإشبيلي الكتامي المعروف بابن الضائع (ت680هـ)، نحوي أندلسي.

وابن خروف يستشهد بالحديث كثيراً، فإن كان على وجه الاستظهار والتبرك بالمروى، فحسن، وإن كان يرى أنّ من قبله قد أغفل شيئاً وجب عليه استدراؤه، فليس كما أرى¹.

وقال أبو حيان الأندلسي عن ابن مالك ما نصّه: "والمصنّف قد أكثر من الاستدلال بما وقع في الأحاديث على إثبات القواعد الكلية في لسان العرب، وما رأيت أحداً من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره، على أنّ الواضعين الأوّلين لعلم النحو، المستقرّين للأحكام من لسان العرب، كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر والخليل وسيبويه من أئمة البصريين، والكسائيّ والفراء وعليّ بن المبارك الأحمر، وهشام الضرير من أئمة الكوفيين لم يفعلوا ذلك، وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الأقاليم، كنحاة بغداد وأهل الأندلس..."².

وعن السبب في عدم احتجاج الأوائل من النحاة واللغويين بالحديث يرى أبو حيان أنّهما أمران: "أحدهما: أنّ الرّواة جوّزوا النقل بالمعنى، فتجد قصة واحدة قد جرت في زمانه لم تُقل بتلك الألفاظ جميعها، نحو ما روي من قوله عليه السلام: «زوّجْتُكها بما معك من القرآن»، و"ملكتُكها بما معك"، و"خُذها بما معك من القرآن"، وغير ذلك من الألفاظ الواردة في هذه القصة، فتعلمُ يقينا أنه صلى الله عليه وسلم لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ، بل لا نجزم بأنه قال بعضها، إذ يحتمل أنه قال لفظاً مرادفاً لهذه الألفاظ كلّها، فأنت الرّواة بالمرادف، ولم تأت بلفظه، إذ المعنى هو المطلوب، لاسيما مع تقادم السّماع وعدم ضبطها بالكتابة، والالتكال على الحفظ، والضّابط منهم من ضبط المعنى، وأمّا من ضبط اللفظ فبعيد جدّاً لاسيما في الأحاديث الطّوال. وقد قال سفيان الثّوري فيما نقل عنه: "إن قلتُ لكم إني أحدثكم كما سمعت، فلا تصدّقوني إنّما هو المعنى"، ومن نظر في الحديث أدنى نظر؛ علم العلم اليقين أنّهم يروون بالمعنى. والأمر الثّاني: أنّه وقع اللّحن كثيراً فيما روي من الحديث،

¹ - الاقتراح في علم أصول النحو، السيوطي، ص 45.

² - خزنة الأدب للبغداديّ، ج 1، ص 10.

لأنّ كثيراً من الرواة كانوا غير عرب بالطّبع، ويتعلّمون لسان العرب بصناعة النّحو، فوقع اللّحن في كلامهم وهم لا يعلمون ذلك. ووقع في كلامهم ورواياتهم غير الفصيح من لسان العرب"¹.

وهذا ما دفع بأبي حيان إلى الاعتقاد أن الأوائل من النحاة وأهل اللغة لم يحتجوا بالحديث ومن بعدهم علماء الأندلس، وسببه عدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول ﷺ، إذ لو وثقوا به لجرى مجرى القرآن الكريم في الاستشهاد والاحتجاج به على مسائل النحو واللغة معاً.

وتابعهما السيوطي في مذهبهما مع بعض التحفظ، إذ يقول في كتابه "الاقتراح": "وأما كلامه ﷺ، فيستدل منه بما ثبت أنه قاله على اللفظ المرويّ، وذلك نادر جداً، إنما يوجد في الأحاديث القصار على قلة أيضاً، فإنّ غالب الأحاديث مروية بالمعنى، وقد تداولتها الأعاجم والمولدون قبل تدوينها، فرووها بما أدت إليه عباراتهم فزادوا ونقصوا، وقدموا وأخروا، وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ، ولهذا ترى الحديث الواحد في القصة الواحدة مروياً على أوجه شتى بعبارات مختلفة"²، ثم ساق -رحمه الله- كلام ابن الضائع وأبي حيان الأندلسي مستدلاً به.

والردّ على ما ذهب إليه الشّيخان، ابن الضائع وتلميذه أبو حيان، من وجوه، فأما القول بأنّ النحاة الأوائل لم يستدلوا بالحديث، فلا دليل فيه على أنهم منعوا ذلك أو جوّزوه؛ بل تركّهم له كان لعدم تعاطيهم إيّاه، وقلة إسفارهم عن حجاب محيّا، ثم إنّ كتب الحديث لم تكن مشهورة ولا متداولة في مثل شهرة وتداول الأشعار العربيّة والآيات القرآنية إلّا فيما بعد³، وعلماء الحديث غير علماء العربية في سبر أغوار الحديث، لأنّ "علم الحديث رفيع القدر عظيم الفخر، شريف الذكر،

¹ - ينظر: الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين السيوطي، ص 92 وما بعدها. وقد سبق لنا إيراد هذا القول في الصفحة 45 من هذا الفصل، وأعدنا ذكره هاهنا لاختلاف سبب إيراده.

² - الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين السيوطي، ص 89.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 90، هامش رقم 2.

لا يعتني به إلا كل حَبْر، ولا يُحْرَمه إلا كلُّ عُمْر، ولا تَفنى محاسنه على مَرِّ الدَّهر... وعدم ممارسة القدامى لهذا الفنّ الجليل؛ صرّفهم عن الاحتجاج به؛ لأنّ فاقد الشيء لا يعطيه"¹.

لكن يمكن القول: إنّ هذا المأخذ مَلَحَظٌ أَثِيرٌ في مقابل كثرة استشهاد المتأخرين؛ ذلك لأنّ الرّعيّل الأول من اللغويين والنحاة، كسيبويه والمبرّد والفراء وغيرهم من المتقدمين، استشهدوا بالأحاديث في مصنّفاتهم، لكنهم أقلّوا منها، فتجد في كتاب سيبويه مثلاً: ألفا وخمسين شاهداً من الشعر، وأربعة مئة وسبعة وأربعين شاهداً من آي القرآن الكريم، وثلاثة مئة وخمسين مثلاً من الأساليب النحوية، وواحداً وأربعين مثلاً، في حين؛ لا يكاد يتجاوز عدد الأحاديث سبعة إلى ثمانية بحسب فهرس المحققين لكتاب سيبويه، ومع ذلك "لم يصل إلينا أيّ خبر منهم أو مجرد تعليق يُبين عن موقفهم من الاستشهاد بالأحاديث النبوية"²، إلا إذا عدّ أبو حيّان وشيخه قلّة استشهداهم بالحديث عزوفاً عنه، ثم عبّروا عن ذلك العزوف والقلّة بالترك.

وحتى دَعَّواه بأنّ المتأخرين من شيوخ الأقاليم تابعوا المتقدمين في عدم الاحتجاج بالحديث فيها نظر، لأنّ مصنّفاتهم -أندلسيين وغيرهم- تشهد بخلاف ذلك، فهذا الشّريف الصّقليّ، والشّريف الغرناطيّ، والسّيرافيّ، والصفار في شروحاتهم على كتاب سيبويه قد استدلّوا بالحديث، كما استدلّ به ابن عصفور، وابن الحاج في شرح "المغرب"، وابن الخبّاز في شرح ألفية ابن معطي، والشّلوّيين في "التّوطئة"، والشاطبيّ، وابن خلدون وغيرهم.³

وأما القول بأنّ الحديث مروّي بالمعنى، فرُدّ عليه بأنّ ذلك "كان في الصّدّر الأول قبل تدوينه في الكتب، وقبل فساد اللغة، وغايته تبديل لفظ بلفظ يصحّ الاحتجاج به، فلا فرق"⁴.

¹ الحديث النبوي في النحو العربي، محمود فجال، ص: 6

² موقف النحاة من الاستشهاد بالحديث، خديجة الحديثي، دار الرشيد، العراق، 1981م، ص15.

³ ينظر: شرح كفاية المتحقّق، محمد ابن الطيب الفاسي، تحق: علي حسين البواب، دار العلوم، ط1، 1980م، ص98.

⁴ خزنة الأدب، عبد القادر البغدادي، ص9.

وسبقت لنا الإشارة إلى رواية الحديث وتدوينه وطرق أدائه في المدخل، وحاصل ما ذكرناه، أنّ مسألة تدوين الحديث بدأت على عهد رسول الله بشكل انفرادي كما حدث مع عبد الله ابن عمر وأنس بن مالك وسهل بن سعد الساعدي من الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً، ثم تبعه التدوين الرسمي لحديث النبي ﷺ كتابة؛ بأمر من عمر بن عبد العزيز (ت101هـ)، حيث انبرى لذلك علماء أجلاء من العرب الأقباح، كابن شهاب الزهري (ت124هـ)، وابن أبي عروبة (ت156هـ)، والربيع بن صبيح (ت160هـ)، ثم ذاع التدوين وشاع من بعد هؤلاء، وهذا - في اعتقادنا - كافٍ في تغليب الظنّ على أنّ الذي في مدونات الطبقة الأولى لفظ النبيّ نفسه¹.

وفي هذه الحثيثة، ينقل عبد القادر البغدادي صاحب كتاب "خزانة الأدب" كلاماً نفيساً لبدر الدين الدماميني (827هـ)، حيث يقول: "وقد أكثر المصنّف من الاستدلال بالأحاديث النبوية - يقصد ابن مالك - وشنّع أبوحيان عليه وقال: إنّ ما استند إليه من ذلك لا يتم له، لتطرق احتمال الرواية بالمعنى، فلا يوثق بأنّ ذلك المحتجّ به لفظه عليه السلام حتّى تقوم به الحجّة، وقد أجريث ذلك لبعض مشايخنا²، فصوّب رأي ابن مالك فيما فعله، بناء على أنّ اليقين ليس بمطلوب في هذا الباب، وإنما المطلوب هو غلبة الظنّ الذي هو مناط الأحكام الشرعية؛ وكذا ما يتوقف عليه من نقل مفردات الألفاظ وقوانين الإعراب، فالظنّ في ذلك كله كافٍ، ولا يخفى أنه يغلب على الظنّ أن ذلك المنقول المحتجّ به لم يبدل، لأن الأصل عدم التبديل، لا سيما والتشديد في الضبط، والتحرّي في نقل الأحاديث شائع بين الثقلّة والمحدثين. ومن يقول منهم بجواز النقل بالمعنى، فإنما هو عنده بمعنى التجويز العقلي الذي لا ينافي وقوع نقيضه، فلذلك تراهم يتحرون

¹ ينظر: في أصول النحو، سعيد الأفغاني، ص 47.

² قال الدكتور رياض بن حسن الخوام في تحقيقه لمكاتبة جرت بين الدماميني والبلقيني حول الاستدلال بالأحاديث النبوية في إثبات القواعد النحوية: ((هو شيخه سراج الدين البلقيني (805هـ) رحمه الله)).

في الضبط ويتشددون، مع قولهم بجواز النقل بالمعنى، فيغلب على الظن من هذا كله أنّها لم تبدل، ويكون احتمال التبديل فيها مرجوحاً فيلغى ولا يقَدَح في صحة الاستدلال بها¹.

وبهذا يكون الدماميني قد أثار جملة من النقاط المهمة، تستدعي منا وقفة متأنية، من ذلك: أنّ الأصل عنده هو الرواية باللفظ، والرواية بالمعنى محطّ احتمال عقلي، وليس يقينا، وهو في نظرنا توجه سليم، ومن تلك النقاط أيضا غلبة الظنّ على أن المنقول بلفظه لا بمعناه، ذلك لأنّ مناط الأحكام الشرعية غلبة الظنّ، فكيف بالقواعد النحوية الوضعية، وهاهنا قصة طريفة حدثت للإمام مالك، ذكرها أبو نعيم الأصفهاني في كتابه "حلية الأولياء" قائلا: "حدثنا أبو محمد بن حيان، ثنا موسى بن هارون، ثنا نصر بن داود بن طوق، قال: سمعت سعيد بن سليمان يقول: قلما سمعت مالكا يفتي بشيء إلا تلا هذه الآية: ﴿إِنْ تَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيِقِينَ﴾²3. زد على ذلك حرص حملة هذا الإرث وتحرّيه في ضبط ألفاظه، حتى إذا شكّ راوٍ عربيّ بين لفظتين أثبتوا شكّه ودوّنوه؛ مبالغة في التحري والدقة، من ذلك-على سبيل المثال لا الحصر-حديث: «وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم، إلاّ حصائد ألسنتهم»⁴، ومثل هذا في السنّة كثير.

والتحقيق في المسألة أنّ الذي يسوغ فيه الخلاف في جواز النقل بالمعنى إنّما هو فيما لم يُدَوّن، "وأما ما دُوّن وحصل في بطون الكتب، فلا يجوز التبديل من ألفاظه من غير خلاف بينهم، قال ابن الصلاح بعد أن ذكر اختلافهم في نقل الحديث بالمعنى: "إنّ هذا الخلاف لا نراه جارياً، ولا أجراه الناس-فيما نعلم- فيما تضمنته الكتب، فليس لأحد أن يغيّر لفظ شيء من كتابٍ مُصنّفٍ، ويثبت فيه لفظاً آخر اه. وتدوين الأحاديث والأخبار بل وكثير من المرويّات وقع في الصدر

¹ - خزائن الأدب، عبد القادر البغدادي، ج1، ص 14.

² - سورة الجاثية: 32.

³ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني، دار الفكر، دت، ص 223.

⁴ - الأربعون النووية، الإمام النووي، دار الإمام مالك-الجزائر، ط1، (2006م)، الحديث رقم 29، ص 37.

الأول قبل فساد اللغة العربية حين كان كلام أولئك على تقدير تبديلهم يسوغ الاحتجاج به وغايته يومئذ تبديل لفظ بلفظ، يصح الاحتجاج به فلا فرق بين الجميع في صحّة الاستدلال ثم دون ذلك المبدل -على قدر التبديل- ومنع من تغييره ونقله بالمعنى كما قال ابن الصّلاح، فبقي حجة في بابه، ولا يضر توهم ذلك السابق في شيء من استدلالهم المتأخر، والله أعلم بالصواب¹.

ثم إن كثيرا من المحدثين لا يميزون رواية الحديث بالمعنى مطلقا، كعبد الله بن عمر الذي بلغت مروياته: ألفين وستمائة وثلاثين حديثًا، اتفق البخاري ومسلم على مئة وسبعين حديثًا منها²، والإمام مالك رحمه الله كان يتحقّق من الباء والتاء والشاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم³، وابن سيرين وثلعب والرازي وعليّ بن المديني، ورجاء بن حيوة، وحتى جمهور العلماء لما أجازوا النقل بالمعنى اشتروا له شروطا، وهي أن يكون الراوي ملماً بعلوم العربية وتصاريفها، عارفا بمدلولات الألفاظ ومقاصدها، خبيرا بما يحيل معانيها بصيرا بمقادير التفاوت بينها، وفي ذلك خير دليل على حرصهم وتحريمهم في نقل الأخبار.

وإنّا مُوردون هاهنا كلاما لابن الطّيب الفاسي، يكشف الغطاء عن أمرٍ ذي بال، مفاده أن من عوّل على منع النقل بالمعنى؛ فإنه لا يؤمن ألا يثق في حديث، حيث يقول: "قالوا: إنه لا يجوز النقل بالمعنى إلا لمن أحاط بدقائق اللغة؛ وكانت جميع المحسنات الفائقة بأقسامها على ذكر منه، فيراعونها في نظم كلامه، ثمّ إنّ فتح احتمال التغيير والتصرّف يؤدي إلى خرق بعيد الالتئام في جميع الأحكام، لأن المخالف يقول لمخالفه المستدلّ في حكم بلفظ حديث: لعلّ هذا اللفظ من الراوي. وقالوا: إذا فُتح هذا الباب؛ لا يبقى لنا وثوق بحديث، ولا اطمئنان لشيء من الآثار

¹ خزانة الأدب، عبد القادر البغدادي، ج1، ص15.

² عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني، البابي الحلبي، ط1، (1972م)، ج1، ص130.

³ شرح كفاية المتحفظ، ص275.

الواردة عنه عليه السلام، ولأوجدَ المبتدعُ مسلكا للطَّعن في جميع الأحاديث، وانتقلنا إلى النظر في دلالتها على العمومات والإطلاقات، وغير ذلك مما يترتب على هذا القول من المفاصد العظام¹.

ومما يمكن أن نوجّه به مسألة ورود الحديث الواحد بألفاظٍ مختلفة، أن سبب ذلك قد يكون بداعي البيان وإزالة الإبهام، فعن أنس رضي الله عنه: «أَنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه»²، كما يمكن أن يُخَرَّج تعدد الروايات على أنها حوادث متكررة متشابهة قال فيها الرسول عليه السلام أقوالاً مختلفة؛ فلا مانع حينئذ من تكرار الحوادث وتغيّر الأشخاص؟ فهذا أمر طبيعي، أو ربما أعاد النبي ﷺ كلامه ثلاثا بما يناسب تنوع اللهجات، فيُفهم كلاً بلهجته، وقد حصل هذا معه في كثير من المواقف التي حفلت بها كتب الحديث والتراجم.

وفي مقابل ذلك تجد أنّ تلك الأشعار التي أجمعوا على الاحتجاج بها؛ لم تسلم هي ذاتها من الرواية بالمعنى، وإلا فكيف نفسر تعدد الروايات في البيت الواحد من الشعر. يقول سعيد الأفغاني ردّاً على المانعين: "وأنتم تحتجون بالشعر على عُجره وُجْره، هذا من حيث المتن، وأما من حيث السند فقد عرف المجيزون أنّ ما في روايات الحديث من ضبط ودقّة وتحرّ لا يتحلّى ببعضه كلّ ما يحتجّ به النّحاة واللّغويون من كلام العرب"³.

ثم إنّ الجزم بمنعهم الاحتجاج بالحديث مطلقاً فيه نظر؛ ذلك لأنّ أبا حيّان نفسه نقل بعض استشهادات ابن مالك دون تعقب، واستشهد هو في مواضع من كتبه بالحديث، وفي ذلك تناقض صارخ، وتخبّط واضح، فليتنّب له. وقد نفطن لهذا ابن الطيب الفاسي حين قال: "بل رأيت الاستشهاد

¹ - شرح كفاية المتحفظ، الفاسي، ص 99.

² - رياض الصالحين، النووي (أبو زكريا يحيى بن شرف)، باب استحباب بيان الكلام، دار الإمام مالك، ط 2، 2004م، ص 214.

³ - في أصول النحو، سعيد الأفغاني، ص 47.

بالحديث في كلام أبي حيان نفسه مرات، ولا سيما في مسائل الصرف، إلا أنه لا يُقَرُّ له عماد، فهو في كلِّ حين في اجتهاد¹.

وآخر ما يمكن الرد به على هذه الشبهة، أنّ العناية بالحديث وتوثيقه لم تكن قد احتلت المكانة التي تضعه بين يدي اللغويين والنحويين كمصدر يعتمدون عليه، وهو في نظرنا أمر وارد جداً، كما أنّ الله تعالى تعهد بحفظ كتابه الكريم، حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾²، فرزقنا جودة الفهم وقوة الحافظة، ووفور الذهن، فلم يتمكن أحد بحمد الله بأن يجرأ فيزيد أو ينقص حرفاً أو حركة منه. وكان مما احتواه هذا العهد ضمناً، حفظ سنة رسول الله ﷺ، ومن ذلك حفظ أحاديث المصطفى ﷺ بأسانيدھا، فكان الإسناد أحد الخصائص التي اختص بها الله أمة صفيه وخليفه ﷺ، وليكتمل الأمر؛ نشأ علم الجرح والتعديل أو كما يصطلح عليه: "علم الرجال". قال ابن سيرين-رحمه الله-: "إن هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم، وقال: "لم يكن الناس يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة؛ قالوا: سمّوا لنا رجالكم"³.

أما العلة الثانية التي حالت دون الاحتجاج بالحديث عند المانعين لذلك، فهي وقوع اللحن كثيراً فيما روي من الحديث، لأن كثيراً من الرواة كانوا من الأعاجم، وهذه الدعوى ينبغي ألا تكون مانعاً للاحتجاج بالحديث لأمر، منها: أنّ نظرة عجلية في حياة الرواة وتراجهم؛ توحى بحرصهم على تحمّل الحديث، والتأني به عن العبث، والدليل على ذلك ظهور علم المصطلح بما فيه علم الإسناد وعلم الرجال، فميّز المشتغلون بعلم الحديث بين الكذّابين والوضّاعين؛ وبين الثقات والعدول من الرواة، وألّفوا في ذلك المصنّفات الضخمة، كل ذلك خدمة لحديث رسول الله، وفي هذا يقول محمد أبو شهبه: "من اطّلع على منهج المحدّثين في النّقد؛ وطريقتهم في التعديل والتجريح، ومبالغتهم

¹ - شرح الكفاية، ص 99.

² - سورة الحجر: 09.

³ - صحيح مسلم (المقدمة)، مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر،

ط1، 1991م، ص 14، 15.

في التحري عن معرفة حقيقة الراوي، وطويّة نفسه، والأخذ بالظنّة والتهمة في ردّ مروياته، يكاد يجزم بأنّ تجويز الكذب على الراوي المستجمع للشروط أمرٌ فرضي، واحتمال عقلي، وهذه الحقيقة قد تبدو لبعض من لم يدرس كتب الرجال والنقد عند المحدثين فيها شيء من المغالاة، ومن أبعده النّجعة في كتب القوم عرف، ومن عرف اعترف"¹.

ونحن لا نرى هذا إلا من قبيل حفظ الله لدينه؛ فما زال الله عزّ وجلّ يغرس في كل عصر ومصر غرسا يستعملهم لذلك، يقول صبحي الصالح: "ودقة المقاييس التي وصلت بها أحاديث النبي الكريم، تنهض حجة دامغة على أنّ أقوالهم نقلت معربة أيضا، فقد كان الرواة على نقل أحاديث النبي ﷺ أحرص منهم على أشعار الجاهلية، وكانوا يعتقدون أن هذا الأمر دين، فبالغوا في رواية الحديث باللفظ، وشدّدوا في روايته بالمعنى"².

فلا توجد أمة أهدمت منهجا في التثبت من الأخبار كمنهج أهل الحديث، فليفخر المسلمون بعلم مصطلح الحديث ما شاءوا؛ والحق ما شهدت به الأعداء، انظر إلى المستشرق الألماني (شيرنجير) يقول في تصدير كتاب "الإصابة" لابن حجر: "لم تكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة، كما أنه لا توجد الآن أمة من الأمم المعاصرة أتت في علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا العلم العظيم، الذي يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشؤونهم"³.

وفي السياق ذاته، ينقل لنا عبد السلام هارون في تحقيقه على "خزانة الأدب"، كلاما لعبد العزيز الميمني (ت1398هـ) ذا بال، إذ يقول: "إن المسلمين في القرون الأولى كانوا أحرص

¹ - دفاع عن السنة وردّ شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، محمد أبو شهبة، مطبعة الأزهر، دت، ص 32.

² - دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح، دار العلم للملايين-بيروت، ط3، 2009م، ص 122.

³ - الدقة المتناهية لعلماء الحديث في الرواية، خلدون عبد العزيز، منتدى رابطة العلماء السوريين، 24.06.1434هـ

على إتقان الحديث من حفظ الشعر والتثبت في روايته، وقد قيض الله لأحاديث رسوله من الجهابذة النقاد، مَنْ نفى عنه ما كان فيه من شبه الوضع والانتحال، وهذا حُرْمُ الشَّعْرِ مثله¹.

وَمَنْ يَطَّلِعَ عَلَى كُتُبِ تَرَاجِمِ الْمُحَدِّثِينَ وَالتُّحَاةِ وَأَهْلِ اللُّغَةِ يَجِدُ أَنَّ ثَمَّةَ تَرَاطُطٍ وَثِقًا بَيْنَ الْحَدِيثِ وَاللُّغَةِ وَالتَّنْحُو، فاللغة وعاء الحديث، إذ ليست الرواية في الحديث أمرا سهلا، قال النبي ﷺ: «نَصْرَ اللَّهِ عِبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَحَفِظَهَا وَوَعَاها وَأَدَّأها، فَرُبَّ حَامِلٍ فَفَقِهَ غَيْرُ فَفَقِيهِ، وَرُبَّ حَامِلٍ فَفَقِهَ عَلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»²، وقال ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»³. فلا تكاد تجد محدثا يجهل علوم اللغة والنحو، فكم انتقل العلماء بين حلقات الحديث واللغة، وما قصة سيوييه (ت180هـ) إمام النُّحَاة؛ مع شيخه في الحديث حماد بن سلمة، عَنَّا بخافية. تروي المصادر أَنَّ سيوييه لزم حلقة حماد بن سلمة في البصرة، فروى حماد يوما قول رسول الله: «ليس من أصحابي إلا من لو شئت لأخذت عليه، ليس أبا الدرداء»، فقال سيوييه: "ليس أبو الدرداء" ظانًا أنه اسم ليس، فقال حماد: "ليس هذا حيث ذهب، وإنما ليس هاهنا استثناء" فقال سيوييه: "سأطلب علما لا تلحنني فيه". فلزم الخليل فبرع⁴.

كما أثير عن غير واحد من المحدِّثين الحثُّ على التبصُّر في العربيَّة وعلمها، فهذا شُعبَةُ ابن الحجاج (ت160هـ) وهو أَحَدُ علماء الحديث ونقَّاده يقول: "مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ، وَلَمْ يُبَصِّرِ الْعَرَبِيَّةَ، فَمَثَلُهُ مَثَلُ رَجُلٍ عَلَيْهِ بُرْنَسٌ، لَيْسَ لَهُ رَأْسٌ"⁵. وَنَحْدُ كَلَامًا مُشَابِهًا لِهَذَا الْمَعْنَى عِنْدَ حَمَّادِ ابْنِ سَلْمَةَ (ت167هـ) حين قال: "مَثَلُ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَدِيثَ وَلَا يَعْرِفُ النَّحْوَ مَثَلُ الْحِمَارِ عَلَيْهِ مِخْلَاةٌ"

¹ - خزانة الأدب، عبد القادر البغدادي، ج1، ص9، هامش رقم 2.

² - حديث صحيح، رواه الترمذي برقم: (2657)، وابن ماجه برقم: (232).

³ - صحيح مسلم، الحديث رقم: 03، ص10.

⁴ - ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج3، ص1199.

⁵ - مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث: لابن الصلاح (ت643)، المطبعة العلمية، حلب، 1993م، ص165.

لا شَعِيرَ فيها"¹، بل قد رخص بعضهم في إزالة الخطأ وإصلاح اللحن، يقول الإمام الأوزاعي: "لا بأس بإصلاح اللحن في الحديث"، وقال حماد بن سلمة: "من لحن في حديثي فليس يحدث عني"².

والزعم بأن أكثر رواة الحديث كانوا غير عرب، حجة واهية لا تقوم على ساق، فقد قام أحد الباحثين بعملية إحصاء لعدد الرواة الأعاجم بالاعتماد على كتاب طبقات ابن سعد في حواضر مكة والمدينة والبصرة، فوجد نسبة الرواة من الموالي بالكاد تصل إلى نسبة واحد وعشرين بالمائة (21%) من مجموع الرواة، والبقية الباقية عرب، أي ما يقارب تسعة وسبعين بالمائة (79%) منهم³.

وحتى من كان من الرواة أعجمياً؛ لا يمكن بأية حال أن نتهمه في لسانه على وجه الإطلاق، لأن اللغة العربية ملك لمن يتعلمها فيتقنها، كما هو الحال بالنسبة لباقي اللغات، بل قد يتفوق على العربي في عربيته، فلم يبق للنسب أثر في اللسان، والواقع يشهد على ذلك، فهذا الإمام البخاري محمد بن إسماعيل وحيد زمانه، نادرة البطون، لا يشق له غبار في الضبط والدقة، صاحب أصدق كتاب بعد القرآن، لم تمنعه عجمته من أن يصبح أمير المؤمنين في الحديث، بشهادة مشايخه وأقرانه وثنائهم عليه، كأحمد بن حنبل وابن خزيمة. وإلى جانب البخاري نجد مسلماً النيسابوري، وابن ماجه القزويني، وغيرهم من أصحاب الكتب الستة.

ثم لا ننسى أن رواة الشعر أيضاً فيهم من الأعاجم ما لا يخفى على ذي لب، يقول سعيد الأفغاني: "والقول بأن في رواة الحديث أعاجم ليس بشيء، لأن ذلك يقال في رواة الشعر والنثر اللذين يحتج بهما؛ فإنّ فيهما الكثير من الأعاجم"⁴، بل إنّ معظم النحاة الذين أسسوا للنحو

1 - معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج3، ص1199.

2 - في أصول النحو، لسعيد الأفغاني، ص48.

3 - أثر الحديث في بناء القاعدة النحوية، رسالة ماجستير، لإبراهيم سلامة، جامعة مؤتة بالأردن، (2014م)، ص29.

4 - في أصول النحو، سعيد الأفغاني، ص50.

أعاجم، يتقدمهم سيبويه صاحب أول مصنف يصل إلينا كاملاً في النحو، فهل منعتهم عُجمتهم من بناء صرح علم النحو؟!

وإذا كان قد وقع غلط أو تصحيف في رواية بعض المحدثين؛ فهو قليل إذا ما قيس بما وقع منه في كلام العرب، وفي هذا يقول سعيد الأفغاني: "وهل في وسعهم أن يذكروا لنا محدثاً ممن يعتد به، يمكن أن يوضع في صف حمّاد الراوية الذي كان يكذب ويلحن ويكسر، ومع ذلك لم يتورّع الكوفيون ومن نهج منهجهم عن الاحتجاج بمرويّاته، ولكنهم تحرّجوا في الاحتجاج بالحديث"¹، وهذا أبو الطيب اللّغوي (ت351هـ) في كتابه "مراتب النحويين" يتحدث عن خلف الأحمر فيقول: "كان به يُضربُ المثل في عمل الشعر"²، فهو بذلك وضاعٌ غير موثوق، لا يُؤتمنُ.

أما عن مذهب من أجاز الاستشهاد بالحديث، فيظهر في صنيع جماعة من اللغويين والنحاة الذين أكثروا من الاستشهاد بالحديث في مسائل النحو والصرف وإثبات اللغة دونما تحفظ، وعلى رأسهم جمال الدين بن مالك (ت672هـ)؛ حيث بلغ من الاستشهاد بالحديث مبلغاً لم يسبق إليه، قال البغدادي صاحب الخزانة: "وأما الاستدلال بحديث النبي ﷺ، فقد جوزّه ابن مالك، وتبعه الشارح المحقق* في ذلك، وزاد عليه بالاحتجاج بكلام أهل البيت رضي الله عنهم"³، فقد أكثر ابن مالك من الاستدلال بما وقع في الأحاديث على إثبات القواعد الكلية كثرة كانت سبباً في نكير أبي حيان عليه في كثير من المرات، ثم جاء ابن هشام، تلميذ أبي حيان، ونقيضه في مذهبه إزاء الاستشهاد بالحديث، فأكثر من الاحتجاج به في مصتقاته إلى حدّ جلب أنظار مترجميه إليه حتى قالوا عنه: "كان كثير المخالفة لشيخه أبي حيان، شديد الانحراف عنه"⁴.

¹ - في أصول النحو، سعيد الأفغاني، ص50.

² - مراتب النحويين، أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي، تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ص47. * يقصد به: الرضي الأسترابادي (ت688هـ)؛ الذي شرح الكافية.

³ - خزانة الأدب، البغدادي، ج1، ص9.

⁴ - بغية الوعاة، للسيوطي ج2، ص69.

ومن حجج المجيزين للاستشهاد بالحديث والاحتجاج به، ما ذكره بدر الدين الدماميني في شرح كتاب "تسهيل الفوائد" لابن مالك، حيث أشار في معرض رده على أبي حيان؛ إلى أنّ اليقين ليس بمطلوب في هذا الباب - يقصد رواية الحديث بمعناه لا بلفظه - إنما المطلوب غلبة الظن الذي هو مناط الأحكام الشرعية، وأنّ الأصل رواية الحديث على نحو ما سمع، وأنّ أهل العلم قد شددوا في ضبط ألفاظه، والتحرّي في نقله، ولهذا الأصل تحصل غلبة الظنّ بأن الحديث مروى بلفظه، وهذا الظن كاف في إثبات الألفاظ اللغوية، وتقرير الأحكام النحوية¹. ومما احتجوا به أيضا أنهم قالوا: "إنّ الأحاديث أصحّ سندا مما ينقل من أشعار العرب"².

كما أنّ "الحاجة الملّحة إلى موارد جديدة للاستدلال والاحتجاج، كانت وراء لجوء هؤلاء العلماء إلى الحديث؛ يلتمسون فيه ما يؤيّد أقيسته، ويعضد أحكامه"³، وبخاصّة لما اكتمل علم الحديث رواية ودراية، وأصبحت مقاييسه وموازنه التي تميّز صحيحه من زائفه، فيأتي الجمالان ابن مالك وابن هشام، ليتوسعا في الاحتجاج بالحديث، كونهما على سعة اطلاع بهذا الفنّ، قال السيوطي فيما نقله عن الصّفدي ما نصّه: "كان ابن مالك أمةً في الاطلاع على الحديث، فكان أكثر ما يستشهد بالقرآن، فإن لم يكن فيه شاهدٌ عدل إلى الحديث، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى كلام العرب"⁴. وقال عن ابن هشام: "حدّث عن ابن جماعة (المحدّث) بالشاطبيّة"⁵، فتضلّعهما في علم الحديث هو الذي أهلهما لخوض غمار هذه المعركة العلمية بكلّ عزم وثبات، ولم يضرهما في ذلك خوض الخائضين، ولا عدل العاذلين.

¹ - ينظر: خزانة الأدب للبغدادي، ج 1، ص 14، نقلا عن: تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد، البدر الدماميني.

² - ينظر: دراسات في العربية وتاريخها، محمد الخضر حسين، المكتب الإسلامي - دمشق، ط 2 (1960م)، ص 169.

³ - ينظر الحديث النبوي في النحو العربي، لمحمود فجال، ص 104.

⁴ - بغية الوعاة، للسيوطي، ج 1، ص 134.

⁵ - المصدر نفسه، ج 2، ص 68.

أما من أجاز الاستشهاد بالحديث بشروط، فقد اختاروا الأحاديث التي اعتنى بلفظها، وفي مقدّم هؤلاء الإمام الشاطبي (ت790هـ)، يقول في شرحه لألفية ابن مالك: "لم نجد أحدا من النحويين استشهد بحديث رسول الله ﷺ، وهم يستشهدون بكلام أجلاف العرب وسفهاءهم الذين يبولون على أعقابهم وأشعارهم التي فيها الفحش والحنا، ويتركون الأحاديث الصحيحة، لأنها تنقل بالمعنى، وتختلف رواياتها وألفاظها بخلاف كلام العرب وشعرهم، فإنّ رؤاّته اعتنوا بألفاظها لما ينبني عليه من النحو، ولو وقفت على اجتهادهم رأيت منه العجب، وكذا القرآن ووجوه القراءات"¹.

والشاطبي رحمه الله يفرّق بين قسمين من الحديث النبوي: قسم اعتنى ناقله بمعناه دون لفظه فلا يستشهد به، وقسم عرّف اعتناء ناقله بلفظه فهذا في نظره هو الذي يستشهد به، وفي ذلك يقول: "وأما الحديث فعلى قسمين: قسم يعنى ناقله بمعناه دون لفظه، فهذا لم يقع به استشهاد أهل اللسان، وقسم عرّف اعتناء ناقله بلفظه لمقصود خاص؛ كالأحاديث التي قصد بها بيان فصاحته ﷺ، ككتابه لهمدان، وكتابه لوائل بن حجر، والأمثال النبوية، فهذا يصحّ الاستشهاد به في العربية، وابن مالك لم يفصّل هذا التفصيل الضروري الذي لا بدّ منه، وبني الكلام على الحديث مطلقا، ولا أعرف له سلفا إلا ابن خروف؛ فإنه أتى بأحاديث في بعض المسائل حتى قال ابن الضائع: "لا أعرف هل يأتي بها مستدلا بها، أم هي مجرد التمثيل؟ ثم يتابع الشاطبي: "والحق أنّ ابن مالك غير مصيب في هذا، فكأنّه بناه على امتناع نقل الحديث بالمعنى، وهو قول ضعيف"².

فالإمام الشاطبي لم يوافق أبا حيان ومن تبعه في قولهم بالمنع مطلقا، ولم يرض بموقف ابن مالك وأصحابه في القول بالجواز مطلقا، إنما فصّل في المسألة، وجعل من الحديث قسمين: قسما عني بلفظه لغرض، فينبغي الاعتداد به، وقسما لم يعن بلفظه، فهذا لم يعتمده أهل اللسان، وعتبه على ابن مالك أنّه لم يفصّل هذا التفصيل الذي جنح إليه هو، فهو كما ترى لم يمنع الاستشهاد

¹ - خزنة الأدب، ج1، ص12، 13.

² - خزنة الأدب، ج1، ص12.

مطلقاً، ولم يقبله مطلقاً، وإنما قال بجواز الاستشهاد بما ثبت لفظه عن النبي عليه السلام، وذلك من خلال ضوابط، أو قرائن تدلّ على أنه لم يقع فيه تصرف من الرواة.

ويبدو أن محمد الخضر حسين* قد استثمر في هذا الرأي الذي نزع إليه الشاطبي، وذلك بعد أن أوكلت إليه مهمة التحقيق في هذه المسألة من قبل مجمع اللغة العربية بالقاهرة، والذي لم يسلم هو الآخر من زحمة هذا الصراع، فانقسم أعضاؤه فريقين: فريقاً يمنع وآخر يجيز، فخلص هذا الباحث إلى ستة أنواع من الأحاديث لا ينبغي لها أن تكون موضع خلاف بين الفريقين¹:

أحدها: ما يروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحته، وبلوغ أعلى ما يمكن لبشر أن يبلغه من حكمة البيان، فإن المعروف في رواية الحديث بهذا القصد أن يحافظوا على ألفاظ الحديث نفسها كقوله ﷺ: «حمي الوطيس»؛ أي اشتد الضراب في الحرب، وقوله: «مات حتف أنفه»؛ أي مات على فراشه، وقوله: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الإسلام خيارهم في الجاهلية إذا فقهوا».

ثانيها: ما يروى للاستدلال على أنه ﷺ كان يخاطب كل قوم من العرب بلغتهم، ككتابه إلى همدان، وكلامه مع ذي المشعار الهمداني، وطهفة النهدي وغيرهما.

(ثالثها) ما يروى لبيان أقوال كان يتعبّد بها أو أمر بالتعبّد بها كألفاظ القنوت والتحيّات وكثير من الأدعية التي يدعو بها في أوقات خاصة.

رابعها: الأحاديث التي وردت من طرق متعددة، واتحدت ألفاظها، فاتحاد الألفاظ مع تعدد الطرق دليل على أنّ الرواة لم يتصرفوا في ألفاظها، فإن كان تعدد الطرق يبتدئ بمن روه عن النبي ﷺ فالأمر واضح، فإن انفرد بروايته صحابيٌّ وتعددت طرق روايته عن الصحابي صحح الاستشهاد به أيضاً، إذ تصرف الصحابي في الحديث على تقدير تصرفه فيه لا يمنع من الاستشهاد به، لأنّ ألفاظ الصحابة

* محمد الخضر حسين: شيخ جامع الأزهر، وعضو المجمع اللغوي في القاهرة والمجمع العلمي في دمشق (1876م-1958م).

¹ - ينظر دراسات في العربية وتاريخها، محمد الخضر حسين، ص 35، 36.

مما يحتج به في العربية. ومجمل القول أنّ الأحاديث التي تتعدد طرقها، ويتحد لفظها تصلح للاستشهاد؛ متى كانت تلك الطرق المتعددة متصلة براوٍ يحتج به في الأحكام اللغوية.

(خامسها) الأحاديث التي دونها من نشأ في بيئة عربية، لم ينتشر فيها فساد اللغة، كمالك بن أنس، وابن جريج، والشافعي.

(سادسها) ما عرف من حال رواته أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى، مثل ابن سيرين والقاسم ابن محمد ورجاء بن حيوة وعلي بن المديني.

والحديث الذي يصحّ أن تختلف الأنظار إليه في الاستشهاد بألفاظه، هو الحديث الذي دُوّن في الصدر الأول، ولم يكن من الأنواع الستة المبينة آنفاً وهو على نوعين: حديث يرد لفظه على وجه واحد، وحديث اختلفت الرواية في بعض ألفاظه.

وانتهى به المطاف في النهاية إلى قناعة مفادها أنّ الأحاديث المدونة في الصدر الأول لا ينبغي الاختلاف في الاستشهاد بها؛ وإن اختلفت فيها الرواية، ولا يستثنى منها إلا الألفاظ الحديثية التي تجيء في رواية شاذة، أو يغمزها بعض المحدثين بالغلط أو التصحيف غمزا لا مرد له.

وبعد مناقشة مجمع اللغة العربية لهذا الموضوع، واستفادته من البحث الذي قدّمه العالم الجليل محمد الخضر حسين، قرر ما يلي¹:

1- لا يحتج في العربية بحديث لا يوجد في الكتب المدونة في الصدر الأول كالكتب الصحاح في السنة فما قبلها.

2- يحتج بالحديث المدون في هذه الكتب الآنف الذكر على الوجه الآتي:

أ- الأحاديث المتواترة المشهورة.

ب- الأحاديث التي تستعمل ألفاظها في العبادات.

ج- الأحاديث التي تعد من جوامع الكلم.

¹ - القرارات النحوية لمجمع اللغة العربية بالأزهر، خالد العصيمي، دار التدمرية، ط1 (2003م)، ص680.

د- كتب النبي صلى الله عليه وسلم.

هـ- الأحاديث المروية لبيان أنه -صلى الله عليه وسلم- كان يخاطب كل قوم بلغتهم.

و- الأحاديث التي عرف من حال روايتها أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى مثل القاسم ابن

محمد ورجاء بن حيوة وابن سيرين.

ز- الأحاديث التي دونها من نشأ بين العرب الفصحاء.

ح- الأحاديث المروية من طرق متعددة وألفاظها واحدة.

ورغم هذه القرارات الجريئة التي خرج بها مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إلا أنه لم تظهر الإفادة من هذا المصدر العظيم -الحديث الشريف- والمعين الثرّ إلا في قرارات قليلة بالموازاة مع الاعتماد على القرآن الكريم والشعر¹.

وخلاصة ما توصلنا إليه في مسألة الاستشهاد بالحديث النبوي؛ أنّ اللغويين والنحاة اختلفوا في الأخذ بالحديث النبوي الشريف في القضايا اللغوية والنحوية قديماً وحديثاً، ما بين مقلّ ومكثّر، وبين مانع مطلقاً، ومجيز مطلقاً، ومتوسط بين ذلك.

ومهما يكن من أمر، ورغم ما قام به محمد الخضر حسين من خطوات جليلة، حاول أن يجمع فيها بين الآراء المتضادة، هذه الخطوات التي باركها الكثير من المحدثين، كسعيد الأفغاني الذي قال عنه: "عالج هذا الموضوع السيّد محمد الخضر حسين في مجلة مجمع اللغة العربية على خير ما يعالجه عالم ثبت متروّ، وقاضٍ منصف"²، ومن بعده قرارات مجمع اللغة العربية، إلا أن الخلاف لا زال قائماً، ورغم ذلك يقول ابن الطيب الفاسي: "ما رأيت أحداً من الأشياخ المحققين؛ إلا وهو يستدل بالأحاديث على القواعد النحوية، والألفاظ اللغوية، ويستنبطون من الأحاديث النبوية الأحكام

¹ - القرارات النحوية لمجمع اللغة العربية بالأزهر، خالد العصيمي، ص 681.

² - في أصول النحو، لسعيد الأفغاني، ص 55.

الصرفية والنحوية واللغوية وغير ذلك من العلوم اللسانية، كما يستخرجون منها الأحكام الشرعية"¹، وهذا ما ينبغي أن يكون.

كما نرى أن للنحاة واللغويين الأوائل يدا في اشتعال أجيح هذا الخلاف الذي عُمِرَ طويلاً، ذلك لأنهم لاذوا بالصمت، فلم يُفصِّحوا عن سبب عدم إقبالهم على الحديث في باب الاستشهاد، وتركوا باب التأويل لمن جاء بعدهم مفتوحاً على مصراعيه. تقول الباحثة العراقية خديجة الحديثي: "ولو أنّ النحاة الأوائل؛ سيوييه وشيوخه، ومن عاصرهم أو جاء بعدهم من البصريين والكوفيين لاحظوا ذلك، وتتبعوه وحاولوا أن يبينوا لنا أيصح الاحتجاج بالحديث أم لا يصح؟ وما شروط ما يصح الاحتجاج به؟ وما حدوده؟ لكفونا نتائج التخبط في هذا الأمر، ولحدّوا للمتأخرين من النحاة والباحثين مسارهم في ذلك، ولما بقي النحاة منذ زمن أبي حيان يأتون بآراء متناقضة، يختلفون ويتجادلون ويتحامل بعضهم على بعض، ويوجّه إليه المطاعن، من غير سند من واقع صحيح أو رأي سليم"².

وهنا يعيب سعيد الأفغاني على النحويين الذين تبرّموا من الأخذ بالحديث في القواعد النحوية خلافاً للغويين، حيث يقول: "ثم لا أدري لم ترفع النحويون عمّا ارتضاه اللغويون من الانتفاع بهذا الشأن، والاستقاء من ينبوعه الفيّاض بالعذب الرّلال، فأصبح ربّع اللّغة به خصيباً، بقدر ما صار ربّع النّحو به جديباً"³، ذلك لأن اللّغة أحت النحو كما قيل، يقول عبد اللطيف البغدادي في شرح الخطب النباتية: "اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه، وأما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه، ومثالهما المحدث والفقهاء فشأن المحدث نقل الحديث برمته، ثم إن الفقيه يتلقاه ويتصرف فيه ويبسط فيه علّله ويقيس عليه الأمثال والأشباه"⁴.

¹ - شرح الكفاية، لابن الطيب الفاسي، ص 101.

² - موقف النحاة من الاستشهاد بالحديث الشريف، خديجة الحديثي، ص 16.

³ - في أصول النحو، لسعيد الأفغاني، ص 50.

⁴ - المزهر في اللغة، السيوطي، ج 1، ص 59.

ورغم وضوح المسألة عند المتخصّصين في السّنة، إلاّ أنّه ما يزال بعض الباحثين في اللّغة يستبعد الوصول من خلال تخريج ودراسة الشاهد الحديثي إلى معرفة اللّفظ؛ هل هو محفوظ يمكن الاعتماد عليه في الاستدلال اللفظي، أم إنّّه غير محفوظ.

وإذا كان الأمر كذلك، فنحن نشدّ على يد الباحث عبد الفتاح سليم الذي نادى بأن "تنهض جماعة من رجال الحديث الشريف، وتتحمل تبعة تمييز الأحاديث بعضها من بعض، ما دون منها في الصدر الأول وما دون في غيره، وما طعن في رجاله، وما سلم من الطعن، وما عرف في نقلته عدم الدراية طبعا واكتسابا، وما عرف عنه غير ذلك، عندئذ للنّحاة أن يصدرُوا أحكامهم اللغوية على هذه الأحاديث قوة وضعفا، وصحة وخطأً، فتحسم هذه المسألة التي دبّ فيها الخلاف منذ متقدمي النّحاة، ولا تزال حتى اليوم"¹.

كما أنّنا نرى أنّ كل الظروف ملائمة لما ذهب إليه عبد الفتاح سليم، كيف وقد جُمعت السّنة ودوّنت وحُفظت روايةً ودرايةً، وإلاّ فإنّ في ترك الاحتجاج بكلام النبيّ هدراً لكمّ ثرّ من الشواهد اللغوية والنحوية، ولو أخذوا بها لوسّعوا من دائرة الاستشهاد ولكانت لغتهم أوسع نطاقاً، وقواعدهم أشدّ إحكاماً.

المبحث الثالث: أثر كتب غريب القرآن والحديث في الصناعة المعجمية العربية القديمة.

لقد توجهت عناية اللغويين العرب إلى القرآن الكريم والسنة النبوية جمعا وشرحا وتفسيرا منذ الوهلة الأولى، كونهما مصدرَي التشريع عند المسلمين، وإن كنا قد سجلنا أن العناية بالقرآن سابقة للعناية بالحديث النبوي الشريف، حيث يعد كتاب "غريب القرآن" لابن عباس (ت68هـ) باكورة الدراسات اللغوية بكل فروعها، فقد عني بشرح غريب القرآن الكريم، وتفسير ألفاظه، ثم توالى جهود العلماء في ذلك على مرّ العصور.

¹ - المعيار في التخطئة والتصويب، عبد الفتاح سليم، دار المعارف، مصر، ط1 (1991م)، ص 110، 111.

ولقد "استقر منهج ابن عباس وتطور بعد ذلك، وانتقل إلى المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي وهو حديث رسول الله ﷺ، فيما عرف عند القدماء بغريب الحديث، وهو أيضا شرح لدلالات بعض الكلمات التي لا تتضح دلالتها في بعض الأحاديث النبوية"¹، فظهرت كتب ومؤلفات كثيرة تشرح غريب الحديث وتفسر ألفاظه.

وقد عدّ بعض العلماء تفسير ابن عباس لألفاظ القرآن النواة الأولى للمعاجم العربية، "فقد بدأت الدراسة في هذا الميدان من ميادين اللغة بالبحث عن معاني الألفاظ الغريبة في القرآن الكريم، ولذلك نجد التأليف الأولى في المعاجم كانت تحمل اسم "غريب القرآن"، وأقدم مؤلّفٍ يحمل هذا الاسم هو لأبي سعيد أبان بن تغلب بن رباح البكري (ت141هـ)"²، ولا شك أن علماء النحو واللغة تواضعوا على الاحتجاج بالقرآن الكريم، كُمل في ميدانه، وإن كانوا قد اختلفوا في الاحتجاج بالقراءات القرآنية، يقول ابن الطيب الفاسي في شرحه على كتاب "كفاية المتحفظ": "لا خلاف بين العلماء في الاستدلال بالقرآن، والاحتجاج به في جميع الفنون العلمية على اختلافها وكثرتها، ولا سيما علوم اللسان: لغة وصرفا ونحو، وبيانا بأنواعه الثلاثة"³.

أما لغة الحديث، وإن اختلفوا في الاستشهاد بها، فقد "كانت وما تزال حجة في الفصاحة، وأتمودجا في البلاغة، ومن معينها نهل أهل اللغة والأدب، وهي المفرع الذي يستظل بحماه أهل التفسير، وإليه يفزع علماء العربية في شد أزرق شواهدهم، ودعم ما يذهبون إليه من صحة وسلامة في اللغة والتفسير، لذلك كانت أساسا مهمًا من أسس قيام المعجم العربي بعد لغة القرآن الكريم،

¹ - العربية والغموض - دراسة لغوية في دلالة المبنى على المعنى - حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط2، 2013م، ص45.

² - فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط6، 1999م، ص110.

³ - شرح كفاية المتحفظ، محمد بن الطيب الفاسي، تحق: علي حسين البواب، دار العلوم، الرياض، ط1، 1403هـ، ص6.

وكتب غريب لغته زاد طيب لصناع المعاجم¹، فكم من حديث كان أصلاً في إثبات صحة لفظ عربي، أو سلامة تركيب أو أسلوب من أساليب العرب في مخاطبتهم.

مظاهر تأثير المعاجم العربية بكتب غريب الحديث:

يقوم التأليف المعجمي على عنصرين متكاملين هما الجمع والوضع، فالجمع يفرض تحديد المادة التي يجب أن يستوعبها المعجم، وأما الوضع فيتعلق بترتيب تلك المادة حسب طريقة معينة، تيسر على مستهلك المعجم الفوز بالمعلومات التي يبحث عنها²، وتأثير كتب غريب الحديث في معاجم اللغة في هذين العنصرين معا يشهد له الواقع اللغوي.

1. من حيث جمع المادة المعجمية:

إنّ من أشكال اعتماد المعاجم اللغوية على كتب غريب الحديث وأقوال أصحاب الغريب في باب جمع المادة اللغوية ما نراه جلياً في معاجم لغوية عدة، سواء صرح أصحابها بذلك أم لا، وهم بين مكثّر ومقلّ، فهذا الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) قد استشهد بالحديث في معجمه "العين"، فقد ضمنه أربعمئة وثمانية وعشرين شاهداً حديثياً، وفي هذا دليل على أن الخليل كان استعان بالحديث في معجمه لبيان معاني الألفاظ والاستدلال على فصاحتها، وصحة استعمالها، خاصة وأنه بنى معجمه على المهمل والمستعمل من اللغة.

ولما علم الإمام أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياني أنّ الزبيدي قد حذف شواهد القرآن والحديث، وصحیح أشعار العرب من كتاب "العين"، في كتابه "مختصر العين"، رأى أنّ في ذلك إخلالاً بكتاب "العين"، فعمل كتابه العظيم الفائدة، الذي سماه بـ "فتح العين"، وأتى

¹ - غريب الحديث، ابن قتيبة (مقدمة المحقق)، تحق: عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1977م، ص 27.

² - من قضايا المعجم العربي قديماً وحديثاً، رشاد الحمزاوي، ص 140.

فيه بما في معجم "العين" من صحيح اللغة الذي لا اختلاف فيه على وجهه، دون إخلال بشيء من شواهد القرآن والحديث، وصحيح أشعار العرب¹.

وهذه عينة من الألفاظ الغريبة التي ذكرها الخليل في معجمه، واستدل على شرحها بما ورد في بعض الأحاديث النبوية الشريفة، من ذلك مثلاً: ما ذكره في شرح لفظ (العداد)، حيث قال: "العداد: احتياج وجع اللذيع، وذلك إذا تمت سنة مُدُّ يوم لُدِّع هاج به الأُم... وفي الحديث: «ما زالت أكلة خبير تعادني، فهذا أوان قطع أبهري»، أي تراجعني ويعاودني ألم سمّها في أوقات معلومة²، واستشهد على معنى لفظ (ضعضع) بما ورد في الحديث، فقال: "الضعضة: الخضوع، وضعضه لهم فتضعضع، التذلل... وفي الحديث: «ما تضعضع امرؤ لآخر يريد به عرض الدنيا إلا ذهب ثلثا دينه» يعني خضع وذلل³، ويستشهد في موضع آخر على معاني المادة اللغوية الواحدة بثلاثة أحاديث، مثلما ورد في مادة (نخع)، حيث قال: "وفي الحديث «النخاعة في المسجد خطيئة»... وفي الحديث: «لا تنخعوا الذبيحة، ولا تفرسوا، ودعوا الذبيحة حتى تجب، فإذا وجبت فكلوا»... وفي الحديث «أنخع الأسماء إلى الله من تسمى بملك الملوك»⁴.

ومن اللغويين الذين أفادوا من كتب غريب الحديث في تصنيف معاجمهم، وجعلوها مصادر لهم:

- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت370هـ) في معجمه "تهذيب اللغة"، حيث صرح في مقدمته بقائمة المصادر التي اعتمدها في جمع مادته اللغوية، وذكر منها: كتاب "غريب الحديث" لأبي عبيد القاسم بن سلام، يقول الأزهري في مقدمة التهذيب: "ولأبي عبيد من الكتب الشريفة

¹ - ينظر: المزن هر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، ج1، ص88.

² - العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، سلسلة المعاجم والفهارس، 80/1، وينظر: غريب أبي عبيد: 203/1، والغريبين للهروي: 1335/4، والفائق للزمخشري: 346/1، والنهاية لابن الأثير: 2670/6.

³ - العين: 72/1، وينظر: النهاية: 2445/6.

⁴ - العين: 121/1، 122. وينظر النهاية: 4101/9، 4102.

كتاب "غريب الحديث"، قرأته من أوله إلى آخره على أبي محمد عبد الله بن محمد بن هاجك¹. وكتّيب أبي عبيدة معمر بن المثنى (210هـ) في غريب ألفاظ الحديث والأثر، وقد تحمّله الأزهري من طريق عبد الله بن هاجك عن ابن جبلة عن أبي عبيد القاسم بن سلام²، و"غريب الحديث" للنضر بن شمیل (203هـ) أخذه عنه رواية عن أبي علي القرّاب³، وشمر بن حمدويه وكتابه: "في اللغات"، الذي ضمّنه كثيرا من تفسير غريب الحديث⁴، وابن قتيبة (276هـ) وكتابه "غريب الحديث"⁵.

- أبو الحسين أحمد بن فارس (ت395هـ) في معجمه "مقاييس اللغة"، حيث ذكر مصادره التي اعتمدها نصّاً، وهي على التوالي: كتاب "العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، وكتابا أبي عبيد القاسم بن سلام وهما "غريب الحديث" و"مصنف الغريب"، وكتاب "إصلاح المنطق" لابن السكيت (246هـ)، وكتاب "جمهرة اللغة" لابن دريد (321هـ)⁶، ومن الكتب التي اعتمدها، ولم يذكرها في مقدمة كتابه: "غريب الحديث" لابن قتيبة، حيث نقل عنه في أربعة عشر موضعا⁷.
- ومن كتب ابن فارس "مجمّل اللغة"، الذي نقل فيه من جملة ما نقل عن ثلاثة أعلام من رواد علم غريب الحديث وهم: أبو عبيدة معمر بن المثنى (210هـ)، وأبو عبيد القاسم ابن سلام (224هـ)، وابن قتيبة (276هـ)⁸.

¹ - تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، ص19.

² - المصدر نفسه، ص14.

³ - المصدر نفسه، ص17، 18.

⁴ - تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، ص25، 26.

⁵ - المصدر نفسه، ص30، 31.

⁶ - ينظر مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ط، 1979م، ج1، ص4، 5.

⁷ - غريب الحديث (مقدمة المحقق)، ابن قتيبة، تحق: عبد الله الجبوري، ص29.

⁸ - مجمل اللغة (مقدمة المحقق)، ابن فارس، تحق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1406هـ، ج1، ص35-37.

- أبو الحسن عليّ بن إسماعيل بن سيده (ت458هـ) في كتابه "المحكم والمحيط الأعظم": حيث ذكر في فاتحته جملة من المصادر والمطابّ التي عنها أخذ مادته، ومنها: "غريب الحديث" لأبي عبيد القاسم بن سلام، و"غريب الحديث" لابن قتيبة، وكتاب "الغريبين" للهروي¹.
 - أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ) في معجمه "أساس البلاغة"، وهو أبرز من عني باستنباط المعاني المجازية للألفاظ، حيث بيّن فيه ما يقع في مواد اللغة من معاني تخرج إلى سبيل الاستعارة والمجاز والكناية، معوّلاً في ذلك على ما ورد في الحديث النبوي من مجاز، من ذلك مثلاً ما ذكره في مادة (ح ف ن)، حيث قال: "أعطاه حفنة من الدقيق وهي ملء الكفين، وحفنتُ له حفنتين وثلاث حفنات، واحتفتته: أخذته لنفسِي. ومن المجاز في الحديث: «إِنَّمَا نُحْنُ حَفْنَةً مِنْ حَفَنَاتِ رَبَّنَا»².
 - محمد بن مكرم بن منظور (ت711هـ) وكتابه "لسان العرب" الذي صرح في مقدمته بمصادره التي استقى منها مادته المعجمية وهي³: تهذيب اللغة للأزهري (ت370هـ)، والمحكم لابن سيده (ت485هـ)، والصحاح للجوهري (ت398هـ)، وحواشي الصحاح لابن بري (ت576هـ)، وكتاب النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين ابن الأثير (ت606هـ).
- والملاحظ على هذه المصادر أنّها اعتمدت في جمع مادتها على كتب غريب الحديث، وهذا ما يفسر غزارة المادة الحديثية في معجم "لسان العرب"، يقول عبد الله الجبوري: "إنّ معظم هذه الأصول قد اعتمدت كتب غريب الحديث، في تأليفها، لذا جاء "لسان العرب" مشحوناً بتفسير

¹ - ينظر: المحكم (مقدمة المحقّق)، ابن سيده، تحق: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م، 47/1.

وينظر: غريب الحديث (مقدمة المحقّق)، ابن قتيبة، تحق: عبد الله الجبوري، ص 30.

² - أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، تحق: محمد عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ج1، ص201.

³ - مقدمة لسان العرب، ابن منظور، ص11، 12.

أهل غريب الحديث للمادة اللغوية أمثال: غريب أبي عبيد، وغريب ابن قتيبة، والغريبين، والنهاية، والمغيث للمديني، وغريب الحميدي، وغيرها¹.

ويعدّ ابن منظور من المعجميين الأوائل الذين عوّلوا على لغة الحديث النبوي في جمع المادة المعجمية، بعد أن كان مستبعدا من دائرة الاستشهاد وإن اختلفوا في درجة الاستشهاد به بين مكثّر ومقلّد - بحجة الرواية بالمعنى. يقول رشاد الحمزاوي عن ابن منظور: "هو أول معجمي قد أقرّ اعتماد الحديث الشريف لغة من اللغات التي يجب أن يركز عليها المعجم، لاسيما وأن التقاليد اللغوية والمعجمية العربية كانت لا تثبته في جلّها، لأنّه يُروى بمعناه لا بلفظه"².

وعملّ ابن منظور هذا؛ يُعدّ ثورة في حدّ ذاته، كونه تجرأ على اتخاذ الحديث النبوي كمصدر لغوي أساسي لمعجمه، والدليل على ذلك أنه قام بتفريغ كتاب "النهاية" لابن الأثير كاملا في معجمه، حيث بلغ عدد المواضع التي نقل فيها عن ابن الأثير ألفا وخمسة مئة، واثنين وسبعين موضعا، هذا إضافة إلى كتب الغريب الأخرى التي نهل منها، كغريب أبي عبيد(ت224هـ)، وغريب ابن قتيبة(ت276هـ)، وغريب الحربي(ت285هـ)، وغريب ابن الأنباري(ت328هـ)، وغريب شمر(ت370هـ)، والغريبين للهروي(ت401هـ)، والفائق في غريب الحديث للزمخشري(ت538هـ)، والمجموع المغيث لأبي موسى المديني(ت581هـ)، وغيرها من كتب الغريب التي نقل عنها ابن منظور ولم يسمّها في مقدمته³.

● الإمام الحسن بن محمد الصّاغاني(ت650هـ)، وكتابه "العباب الزاخر واللباب الفاخر"،

ومن كتب الغريب التي استمدّ منها مادّته، وكان قد نصّ عليها في مقدمة كتابه: غريب أبي

¹ - غريب الحديث لابن قتيبة (مقدمة تحقيق)، تحقق: عبد الله الجبوري، ص 31.

² - من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا، رشاد الحمزاوي، ص 142.

³ - أثر كتب غريب الحديث في تأليف المعاجم اللغوية العربية، محمد مبارك وحسين مصطفى، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2014م، ع3، المجلد 41، ص 805.

عبدة معمر بن المثنى، وغريب أبي عبيد القاسم بن سلام، وغريب أبي إسحاق الحربي، وغريب ابن قتيبة، وغريب أبي سليمان الخطابي، والفائق للزمخشري، وغيرهم.¹

● أحمد بن محمد بن عليّ الفيومي (ت770هـ) وكتابه "المصباح المنير في غريب الشرح الكبير"، حيث ذكر في آخره كتب الغريب التي اعتمدها في جمع مادته، فقال: "كنت جمعت أصله من نحو سبعين مصنفًا، ما بين مطوّل ومختصر، فمن ذلك: غريب الحديث لابن قتيبة، والنهاية لابن الأثير، والغريبين لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي... والروض الأنف للسهيلي"².

● محمد بن عبد الرزاق الزبيدي (ت1205هـ) وكتابه تاج العروس في شرح جواهر القاموس، ومن كتب الغريب التي اعتمدها في جمع مادته، وذكرها في فاتحة كتابه: كتاب الغريبين للإمام الهروي وكتاب النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، وكتاب إصلاح الألفاظ للخطابي، والفائق للزمخشري، ومشارك الأنوار للقاضي عياض، وكتاب المطالع لتلميذه ابن قرقول.³

ويلاحظ مما سبق، مدى استفادة المعاجم العربية -سواء كانت مبوبة أو مجنسة- من كتب غريب الحديث، فهي بلا شك، رافد مهمّ لجأ إليه المعجميون لإثراء مصنفاتهم، خاصة إذا علمنا أنّ معظم من ألّف في علم الغريب هم من اللغويين، كالنضر بن شميل (203هـ)، ومحمد بن المستنير قطرب (206هـ)، والفراء (207هـ)، والأصمعي (216هـ)، وأبي زيد الأنصاري (215هـ) وأبي عبيد القاسم بن سلام (224هـ)، والمبرد (286هـ)، وابن دريد (321هـ)، والزمخشري (538هـ)، وغيرهم كثير.

من هنا، تبرز أهمية كتب غريب الحديث، خاصة مع إبعاد جمهور اللغويين للحديث عن دائرة الاستشهاد، يقول محمد ضاري حمّادي: "إن إسهام الحديث في حفظ الغريب يزداد أهمية حين نعلم

1- ينظر: العباب الزاخر واللباب الفاخر، الصّاغاني، تحق: قير محمد حسن، المجمع العلمي العراقي، ط1، 1978م، ص7.

2- المصباح المنير، الفيومي، تحق: عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة، ط2، ص711، 712.

3- تاج العروس، الزبيدي، تحق: تحق: إبراهيم التزوي، مطبعة حكومة الكويت، ط (1972م)، ج1، ص6.

أن قسما من المعاجم العربية قد أغفلت أو أهملت الكثير من غريب اللغة، بمعايير لا يسندها سند من علم، ولا يعضدها عاقد من حقيقة تخدم هذه اللغة الشريفة؛ حين رأوا في الغريب بعدا عن الفصاحة، بل خلافا لها، ولكن ذلك يتعارض مع مفهوم الغريب الذي يدل على الفصيح السليم الذي عجز اللسان العربي بعد فساده عن الاحتفاظ به، والإبقاء عليه¹.

ثم إنَّ اعتماد الحديث النبوي الشريف كمصدر أساس من مصادر الاستشهاد على إثبات الألفاظ اللغوية، وتقدير الأصول النحوية، إلى جانب القرآن الكريم، وما بلغنا من فصيح كلام العرب الخالص، يوسّع من مجال البحث في علوم اللغة، ويساعد على إعلاء شأن العربية، وإرساء دعائمها، وهذا ما سنفتقده لو قصرنا الحجة على القرآن الكريم، والشعر العربي الفصيح فقط.

وهذه مظاهر أخرى من مظاهر إغناء كتب غريب الحديث للعربية، وأهمها:

- أن حديث رسول الله قد أمدّ العربية، وملاً خزائنها بكثير من الألفاظ والمفردات التي كانت عناصر حياة اللغة، وقضية بقائها، بل إنَّ هناك ألفاظا لم تُعرف إلا في الحديث، ولم تُدر على ألسنة العرب، لا في شعرها ولا في نثرها، وإنما جاء شرحها متصلا بالحديث، وفي ذلك يقول الخطابي: "ومن فصاحته وحسن بيانه أنه قد تكلم بألفاظ اقتضبها لم تسمع من العرب قبله، ولم توجد في متقدم كلامها، كقوله: «مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ»، وقوله: «حَمِي الوَطِيسُ»²، وهذا ما يسميه بعض الدارسين الارتجال³، وهو وضع اللفظ وضعا بعد أن لم يكن، ومن شروطه ألا يصدر اللفظ إلا عن فصيح لا يرقى إلى فصاحته شك، قادر قدرة فطرية على الوضع والابتكار⁴.

¹ - الحديث النبوي وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية، محمد ضاري حمادي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط1، 1429هـ، ص140.

² - غريب الحديث، الخطابي، ص 65.

³ - الحديث النبوي وأثره في الدراسات النحوية واللغوية، محمد ضاري حمادي، ص123.

⁴ - المرجع نفسه، ص 133.

- بعض ألفاظ الحديث تحمل دليلاً على إثبات المعاني المجازية لبعض الألفاظ العربية، وذلك بنقل اللفظ من معنى إلى معنى آخر، ويسميه بعضهم **النقل المعنوي**¹، ويكون بإحداث أسماء شرعية، فلفظ **الصلاة** مثلاً أصله في لغة العرب: **الدعاء**، لكن الحديث النبوي ألبسه معنى شرعياً، وهو عبادة فيها تسبيح واستغفار وركوع وسجود على الوجه الذي حدّده الشرع، ومن تلك الألفاظ لفظ **الحجّ**، وأصله في لغة العرب القصد إلى كل شيء، بينما نقله الحديث إلى معنى شرعي جديد غير هذا المعنى، بأن خصصه بقصد بيت الله الحرام في أشهر معلومات للنسك والعبادة.

- **اعتماد** الحديث باعتباره مصدراً للاحتجاج على اللغات واللهجات العربية، فكثيراً ما كان اللغويون يُرجعون لفظة ما أو تركيباً معيناً إلى لغة أو لهجة من لهجات العرب، ويحتجون لذلك بشواهد من الحديث النبوي، من ذلك ما أورده ابن درستويه في كتابه **"تصحيح الفصح وشرحه"** حول لفظة (الإصبع) حين اختلفوا في ضبط حركة حرف الباء بين من يفتحها ومن يكسرها، وأرجع ذلك إلى اختلاف اللغات فيها، وذهب إلى أنّ أفصحها ما ورد على لسان النبي ﷺ، حيث قال: "وأما قوله: هي (الإصبع) بفتح الباء مع كسر الهمزة، فإن بعض العامة يكسر الباء منها، وبعضهم يضم أولها، وفيها لغات²، وأفصحهن ما ذكره أحمد بن يحيى. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبه كيف شاء**».

وقال يوم الخندق:

هل أنتِ إلا إصبعٌ دَميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ

فكسر الهمزة، وفتح الباء، وأنّ الإصبع، والإصبع معروفة، وربما استعيرت في أشياء غيرها³.

- **الاحتجاج** بالحديث في تقويم اللحن وفساد اللسان العربي، ومن المصنفات التي عنيت بتصحيح ما جرى من الأغلاط الدلالية والصرفية والاشتقاقية التي لهجت بها الألسن، وأخرجتها عن أصلها

¹ - الحديث النبوي وأثره في الدراسات النحوية واللغوية، محمد ضاري حمادي، ص 123.

² - وهي: الإصبع والأصبع والأصبع والأصبع والأصبع، وزاد بعضهم غير هذا.

³ - تصحيح الفصح وشرحه، ابن درستويه، تحق: محمد بدوي ورمضان عبد التواب، القاهرة، 2004م، ص: 299.

المستعمل في فصيح اللغة، كتاب "درة الغواص في أوهام الخواص" لأبي محمد الحريري، ومن الأمثلة التي ساقها محتجا بالحديث في تقويم اللسان حديثه عن معنى كلمة (سائر) التي أخرجها العامة عن أصل وضعها اللغوي، حيث قال: "فمن أوهامهم الواضحة وأغلاطهم الفاضحة أنهم يقولون: قَدِمَ سائرُ الحجاجِ. فيستعملون (سائر) بمعنى: الجميع، وهو في كلام العرب بمعنى: الباقي، ومنه قيل لما بقي في الماء: سؤر، والدليل على صحة ذلك أنّ النبي ﷺ قال لغيلان حين أسلم وعنده عشر نسوة: «اخترُ أربعا منهنّ، وفارق سائرهنّ»، أي من بقي بعد الأربع التي تختارهن¹.

وهناك صور أخرى لتأثر الدرس اللغوي بالحديث النبوي²:

- الشاهد الحديثي شاهد على فصيح المعنى العربي ومؤكد لصحة استعماله، من ذلك قول الخليل في معنى العافية: "والعافية من الدوابّ والطير: طُلاب الرزق، اسم لهم جامعٌ وجاء في الحديث: «مَنْ غرس شجرةً فما أكلت العافيةٌ منها كُتبت له صدقةٌ»³.
- الشاهد الحديثي مصدر لاستنباط المعاني واعتمادها عند اللغويين، من ذلك قول الخليل عن معنى (الفِطْرَة): "والفِطْرَة: التي طُبِعَتْ عليها الخليفة من الدين، فطرهم الله على معرفته بربوبيته، ومنه حديث النبي ﷺ: «وكلُّ مولودٍ يولدُ على الفِطْرَة، حتّى يكون أبواه يهودانه وينصرّانه ويمجسانه»⁴.
- ضبط الصيغ وبيان الأجود منها للمعنى، من ذلك مثلا تأنيث لفظ الإصبع، جاء في الحديث: «هل أنت إلا إصبعٌ دَميتِ».

¹ - درة الغواص في أوهام الخواص، أبو محمد القاسم الحريري (ت516)، تحق: عرفات مرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ص 10.

² - الاحتجاج بالحديث النبوي عند علماء اللغة المتقدمين، حمزة بو خزنة. مجلة المنهل، المجلد 5، العدد 2، ص 86 وما بعدها.

³ - العين: 258/1.

⁴ - العين: 418/7.

2. من حيث وضع المادة المعجمية وترتيبها:

كنا قد أشرنا فيما سبق إلى أبرز المناهج والطرق التي اعتمدها أصحاب الغريب في كتبهم، ولعل أبرزها ترتيب ألفاظ الغريب حسب الترتيب الهجائي لحروف المعجم، وأول من نهج هذه الطريقة هو أحمد بن محمد الهروي (401هـ) في كتابه المشهور "الغريبين"، الذي جمع فيه بين غريب القرآن الكريم وغريب الحديث؛ فقد كان يرى أنه لم يسبقه إلى هذه الطريقة أحد، حيث قال في فاتحة كتابه ما نصّه: "نبدأ بالهمزة، فنفيض بها على سائر الحروف حرفا حرفا، ونعمل لكل حرف بابا، ونفتح كل باب بالحرف الذي يكون أوله الهمزة، ثم الباء ثم التاء إلى الحرف الأخير"، إلى أن قال: "كنت أرجو أن يكون سبقني إلى جمعها، وضمّ كل شيء إلى لِقْفِهِ منها، على ترتيبٍ حسنٍ واختصارٍ كافٍ سابقٍ، فكفاني مؤونة الدأب وصعوبة الطلب، فلم أجد أحدا عمل ذلك إلى غابتنا هذه فاستخرتُ الله -عز وجل وتقدس- فيه، وسألته التوفيق له"¹.

وقد وافق ابن الأثير الإمام الهروي فيما ذهب إليه، حيث قال واصفا كتابه في مقدمة "النهاية" "رتبه مقفى على حروف المعجم، على وضع لم يسبق في غريب القرآن والحديث إليه، فاستخرج الكلمات اللغوية من أماكنها، وأثبتها في حروفها وذكر معانيها"².

وقيل غير هذا، فقد ذهب ياقوت إلى أن أول من سلك هذه الطريقة هو شمر ابن حمدويه (ت255هـ) في معجمه الذي سمّاه "الجيم"، حيث قال واصفا إياه: "رتبه على حروف المعجم، ابتداء فيه بحرف الجيم... وأودعه تفسير القرآن وغريب الحديث شيئا لم يسبقه إلى مثله"³. ومن سلك طريقتهم ممن جاء بعدهما، الزمخشري في كتابه "الفائق في غريب الحديث"، وابن الجوزي في كتابه "غريب الحديث"، وابن الأثير في كتابه "النهاية في غريب الحديث والأثر".

¹ - الغريبين في القرآن والحديث، الهروي، تحق: فريد الزبيدي، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ط1، 1419هـ، 34/1.

² - النهاية (مقدمة المؤلف)، ابن الأثير، تحق: الخراط، ص 14.

³ - معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج3، ص1420.

ومهما يكن من أمر، فإنّ ما يُهمّنا فعلا هو أنّ أصحاب المعاجم اللغوية قد أخذوا طريقتهم في ترتيب المادة المعجمية على حروف المعجم نقلا عن أصحاب الغريب، إذ لهم الفضل في الاهتداء إليها أولا، سواء أقررنا أن السابق صاحب معجم "الغريبين" أم صاحب معجم الجيم، فكان هذا من أبرز صور تأثير كتب غريب الحديث في المعاجم اللغوية من حيث وضع المادة المعجمية وترتيبها، فضلا عن إغنائها بألفاظ حديثة جمّة، إما من طريق الارتجال أو النقل المعنوي، وهذا ما ساعد على ظهور ما يسمى بالمعاجم التاريخية للغة، والتي تعنى برصد التطور الدلالي لكثير من الألفاظ العربية منذ زمن البعثة، إلى يوم الناس هذا.

الفصل الثاني

الصناعة المعجمية العربية القديمة، نشأتها وتطورها وأبرز خصائصها

المبحث الأول: اللغة العربية بين السّماع والرواية والتدوين.

المبحث الثاني: بواكير النشاط المعجمي عند العرب.

المبحث الثالث: ظهور الرسائل اللغوية.

المبحث الرابع: تطور التأليف في المعاجم العربية.

المبحث الخامس: ظهور المدارس المعجمية.

المبحث السادس: مآخذ على المعاجم العربية.

لم يعرف العرب أي نوع من الدراسات اللغوية قبل الإسلام، وإذا ما قورنوا بغيرهم من الأمم الأخرى فهم متأخرون زمنياً عن الكثير منها، فقد عُرف لبعض الأمم كالهنود، واليونانيين، والمصريين القدامى، والصينيين دراساتٌ لغويةٌ راسخةٌ قبل الإسلام بقرون.

وأولى المحاولات للدرس اللغوي العربي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالعلوم الدينية، وخاصة علوم القرآن والحديث والفقهاء، فقد كانت سبباً وجيهاً في ظهوره، وعليه؛ فإن جمع المادة اللغوية التي كانت عماد المعاجم العربية الأولى تزامن ونشأة العلوم القرآنية، كما أنّ اللغويين والنحاة الأوائل كانوا في طليعة من أسهم وبقوة في نشأة تلك العلوم.

المبحث الأول: اللغة العربية بين السّماع والرواية والتدوين:

اعتمد العرب قديماً على ثلاث طرائق في نقل المعرفة، وهي السّماع والرواية والتدوين، وقد كان لهذه الطرائق الأثر البارز في نقل التراث العربي، سواء أكان ذلك قبل الإسلام أم بعده.

فالسّماع: مصدر سمع، نقول: سمع فلاناً، وسمع لفلانٍ، وإليه: أصغى وأنصت، وسمع منه الصوت سمعاً وسماعاً؛ إذا أحسنَّه أذنه، **والسّماع:** أصل من أصول اللغة والنحو ودليل من أدلتها، سمّاه ابن الأنباري **النقل**، وعرفه بأنه "الكلام العربي المنقول النقل الصحيح، الخارج عن حدّ القلّة إلى حدّ الكثرة"¹، وعرفه السيوطي بقوله: "وأعني به ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته، فشمّل كلام الله تعالى وهو القرآن، وكلام نبيه ﷺ، وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده، إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين نظماً ونثراً عن مسلم أو كافر، فهذه ثلاثة أنواع لا بد لكل منها من الثبوت"². فالسّماع إذاً هو نقل الكلام الفصيح من ثلاثة مصادر موثوقة هي: القرآن بما في ذلك القراءات القرآنية، والحديث النبوي الشريف، وكلام العرب شعراً ونثراً بناءً على شروط وضوابط حدّدها علماء اللغة.

¹ - الإغراب في جدل الإعراب، أبو البركات بن الأنباري، تحق: سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، 1967م، ص 54.

² - الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين السيوطي، ص 39.

أما الرواية فهي من " روى الحديث أو الشعر رواية، بمعنى حمله ونقله، فهو راوٍ، وجمعه: رُواة"¹. ولا يختلف هذا المعنى كثيرا عن المعنى الاصطلاحي للرواية، فهي في الاصطلاح: عملية جمع المادة اللغوية من أفواه العرب الفصحاء، ونقلها إلى حواضر العلم.

ويشترك السَّماع والرّواية في كونهما يعتمدان على ملكة الاستظهار والحفظ، وإن كان السَّماع أقدم من الرّواية تاريخيا، ويشترط فيه الأخذ مباشرة من المصدر الأصلي، وهو أصيل في التراث العربي، حيث اعتُمِد قبل مجيء الإسلام، وبعد أن بعث الله محمدا ﷺ رسولا ونبيا؛ تأكد وجود السَّماع والرواية في الحياة الدينية والعلمية للمسلمين، لارتباطهما بالقراءات القرآنية وتفسير القرآن بالمأثور، ورواية الحديث النبوي الشريف²، ولا زال السَّماع يمارس في إجازة حُقَاط القرآن إلى يوم الناس هذا.

ولما استتب الأمر لدولة الإسلام، أصبحت الحاجة ماسة إلى الكتابة والتدوين، فباشروا كتابة المعاهدات والمراسلات وغيرها من شؤون الدولة، ومع وفاة النبي ﷺ وانتقال الخلافة إلى أبي بكر، جنح رضي الله عنه إلى جمع القرآن الكريم وتدوينه في صحائف، بنصيحة من عمر ﷺ، مستعينا بالصحابة المشهود لهم بسماع القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ وحفظهم المتن، وتمّ الجمع الثاني للقرآن في عهد عثمان ﷺ، ونُسخ في مصاحف ووزعت على الأمصار.

ومع مطلع القرن الثاني، شُرِع في تدوين الحديث النبوي الشريف على يد أبي بكر بن شهاب الزهري (ت124هـ) بأمر من الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (ت101هـ)، وبهذا يكون التدوين قد زاحم السَّماع والرواية منذ القرون الأولى في نقل المعارف الدينية، ونشرها في أوساط المسلمين.

ولا يكاد يختلف نقل اللغة وسماعها عن نقل القرآن بقراءاته المختلفة، ورواية الحديث الشريف، إلا ما حصل من تأخر في جمع اللغة مقارنة بسماع القرآن ورواية الحديث، وإلا فقد انبرى

¹ - ينظر: المعجم الوسيط، ص384.

² - مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، ص93.

لهذه العملية علماء لغويون أجلاء، نذروا أنفسهم خدمة لهذه اللغة، بدءاً بجمع مفرداتها، ولملمة شتاتها، فرحلوا إلى بطون البوادي طلباً لمشاهدة الأعراب والسّماع منهم، وأخذوا عنهم الكلمات الفصيحة وحدّدوا معانيها، حتى أصبحت تلك الرحلات التي قاموا بها إلى البادية علامة على علوّ كعبهم وقرسّهم في علم اللغة، فاشتغلوا بالدرس اللغوي، وأضحى لهم في حواضر العلم مكانة مرموقة.

ولما كان الغرض من السّماع النقل عن المصادر الموثوقة لإثبات صحة الاستعمال من حيث اللّغة والنحو؛ التزم رواة اللغة بما التزم به رواة الحديث الشريف من توثيقٍ للمادّة اللغوية المروية، فاشتروا لذلك شروطاً، ووضعوا ضوابط تشمل الرّواي والمروي معاً، فاشتروا في الرّواي أو المتحمّل للرواية أن يكون ثقةً عدلاً صادقاً أميناً، نقل السيوطي عن ابن فارس قوله: "تؤخذ اللغة سماعاً من الرواة الثقات، ذوي الصدق والأمانة"¹، وعن الكمال بن الأنباري قوله: "يشترط أن يكون ناقل اللغة عادلاً، رجلاً كان أو امرأة حرّاً أو عبداً، كما يشترط أن يكون في نقل الحديث، لأن بها معرفة تفسيره وتأويله، فاشترط في نقلها ما اشترط في نقله، وإن لم تكن في الفضيلة من شكله، فإن كان ناقل اللغة فاسقاً، لم يقبل نقله"². ومردّد ذلك كلّهُ إلى حرصهم على هذه اللغة، كونها حاضنة القرآن وحاملة علومه.

وأما ما اشترطوه في قبول المرويّ من اللغة، فقد أورد الإمام الزّركشي في مصنّفه "البحر المحيط" نقلاً عن أبي الفضل بن عبدان شروطاً خمسة³، وهي:

- ثبوت ذلك عن العرب بسند صحيح يوجب العمل.
- عدالة الناقلين كما تعتبر عدالتهم في الشرعيات.
- أن يكون النقل عمّن قوله حجة في أصل اللغة.

¹ - المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ج1، ص 137.

² - المصدر نفسه، ج1، ص138.

³ - البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي، تحق: عبد القادر العاني، وزارة الأوقاف الكويتية، ط 2، 1992م، ج2، ص22.

- أن يكون الناقلُ قد سمع منهم حسًّا، وأما بغيره فلا يثبت.

- أن يسمع من الناقل حسًّا.

وجعل بعضهم للسمع حدوداً ثلاثة: حدّ الزمان، والمكان، والأحوال، صونا للغة من اللحن والفساد الذي قد يرد عليها من الدخيل، فأما حدّ الزمان، فقد قبلوا الاحتجاج بأقوال فصحاء العرب في الجاهلية والإسلام حتى منتصف القرن الثاني، سواء من سكن منهم البادية أو الحاضرة، يقول السيوطي: "وأما كلام العرب فيحتجُّ منه بما ثبت عن الفصحاء الموثوق بفصاحتهم"¹، وكلّ استعمال لغوي ورد خارج إطار هذا الشرط الزماني عدّوه مولداً أو محدثاً، ولم يلتفتوا إليه إلا ما كان في باب المعاني ونحوه، حيث صنّفوا الشعراء إلى طبقات أربع:

1. طبقة الجاهليين كزهير والأعشى وغيرهم.

2. طبقة المخضرمين: وهم الذين شهدوا الجاهلية والإسلام كليد بن ربيعة، وحسان بن ثابت، والخنساء، وكعب بن زهير.

3. طبقة الإسلاميين: كأبي الأسود الدؤلي، وجريير، والفرزدق، والأخطل.

4. طبقة المولدين: كبشّار بن برد، وأبي نواس.²

واتفق علماء اللغة على الاحتجاج بشعر الطبقتين الأوليين بلا خلاف، أما بالنسبة للطبقة الثالثة، فقد ذهب جمهور اللغويين إلى صحة الاحتجاج بشعرها، وإن كان من الأئمة من لحن الفرزدق وخطأ الكُميت، وذا الرّمة كأبي عمرو بن العلاء وابن أبي إسحاق الحضرمي والحسن البصري، فيما رفضوا الاحتجاج بشعر الطبقة الرابعة، إلا الزمخشري الذي اختار أن يستشهد بكلام من يوثق به منها.³

¹ - الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين السيوطي، ص 47.

² - ينظر: فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 6، 1999م، ص 101.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص 101.

أمّا النثر، فإن نصيبه من الاحتجاج عند علماء اللغة قليل إذا ما قورن بالشعر، وذلك إمّا لجهل بقائليه، أو لأنّه لم يعلّق في الأذهان تعلّق الشعر الذي كثر ذبوعه في أوساط الناس، لسهولة حفظه، ويُسّر نواله.

وأما عن حدّ المكان؛ فقد اعتدّوا بكلام القبائل العربية التي استوطنت قلب جزيرة العرب، ومرّد ذلك إلى كونها بعيدة عن مجاورة الأعاجم من الفرس والروم والحبشة، وغيرها من الأمم القريبة منها، وهذه القبائل التي عنها نُقلت اللغة العربية سبقت الإشارة إليها، وهي: قيس وتميم وأسد، ثمّ هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من القبائل، فلم يأخذوا عن لحم ولا جذام، لمجاورتهم لأهل مصر والقبط، كما لم يأخذوا عن قضاة ولا غسان، لمجاورتهم لأهل الشام من النصارى، ولا عن تغلب ولا نمر، لمجاورتهم للنبط والفرس.¹

وأما الأحوال؛ فيقصّدون بها أحوال العرب الذين يُحتجّ بلغتهم، وأحوال من ينقل عنهم، فلم يكونوا يقبلون من الألفاظ إلا ما ثبتت نسبته إلى عربي فصيح، سواء مشافهة أو رواية صحيحة وثيقة، ولو عدنا إلى عرب القبائل التي احتج بكلامها في إثبات لفظ وطرح غيره؛ لوجدنا أنّهم ألصق بعيشة البادية وأعمق في التبدي، ولا ريب أنّ في ذلك منأى لهم عن الاختلاط بغيرهم، لتبقى ألسنتهم على استقامتها، ولغتهم على سلامتها.²

وقد اعتمد الرواة طرائق متنوعة في جمع اللغة، حصرها السيوطي في ستة³:

- 1- السّماع من لفظ الشيخ أو العربي، وللمتحمّل للرواية بهذه الطريقة عند الأداء صيغ أعلاها أن يقول: أملّى عليّ فلان، أو أملّ عليّ فلان.
- 2- القراءة على الشيخ ويقول عند الرواية: قرأت على فلان.

¹ - ينظر: الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين السيوطي، ص 47.

² - ينظر: في أصول النحو، سعيد الأفغاني، ص 17 وما بعدها.

³ - المزهري في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ص 144 وما بعدها.

3- السّماع على الشيخ بقراءة غيره، ويقول عند الرواية: قرئ على فلان وأنا أسمع.

4- الإجازة، وذلك في رواية الكتب والأشعار المدونة.

5- المكاتبة، بقوله: بعث إليّ فلان بهذه الأبيات.

6- الوجدادة، والوجدادة قوله: وجدت في كتاب أبي: حدثني فلان.

بيد أنّ ثمة سؤالاً يطرح نفسه ألا وهو: إلى أيّ مدى أثرت نظرية الاحتجاج في تصنيف

المعاجم العربية؟ والجواب يمكن تلخيصه في نقطتين فارقتين:

أما الأولى، فإن القدماء قد استعملوا هذه النظرية كمعيار لاصطفاء الألفاظ وانتقائها، بحيث أدّى

هذا إلى تحديد طبيعة المادة اللغوية التي كانت دعامة لتصنيف قواميسهم، فأخرجوا منها كل لفظ ندّد

عن تلك الحدود الزمانية والمكانية التي وضعوها، وعدّوه دخيلاً على كلام العرب الفصحاء.

وأما الثانية، فإنهم بصنيعهم هذا قد نأوا بقواميسهم عن عنصر الإحاطة والشمول، "فأصبحت تلك

القواميس تصدّد عن كل لفظ أو استعمال لم يخضع لشروط الفصاحة القديمة بدعوى أنه مولّد

أو أعجمي دخيل، أو مجازي أو اصطلاح¹، فتكون تلك الحدود بذلك قد حالت بين المعاجم

القديمة وبين متابعة التطور الذي عاشته العربية في سائر العصور والأمصار.

الدوافع إلى الرّواية والسّماع:

كثيرة هي الأسباب التي دفعت بجُمّاع اللغة للميل إلى الرّواية والسّماع، لعلّ أبرزها زحف

اللّحن من الكلام إلى القرآن، حيث شكّل تهديداً مباشراً لحياة المسلمين، ولأن القرآن نزل

على طريقة العرب في الكلام، كان من الضروري استنباط القواعد والأصول اللغوية لهذا الكلام

حفاظاً على القرآن وتيسيراً لفهمه واستنباط أحكامه، ثم إتاحة الفرصة لهؤلاء الذين لا يحسنون العربية

لكي يتعلموها، ولم يكن هناك من سبيل لتحقيق هذا كله إلا جمع المادة اللغوية التي تستنبط منها

¹ - قضية الفصاحة في القاموس العربي التاريخي، عبد العالي الودغيري، مجلة المعجمية، ع 5-6، تونس، 1990م، ص 225.

القواعد والأصول، واستغرق هذا العمل قرناً كاملاً حتى استوى علماً أطلق عليه علم العربية أو النحو العربي¹، يقول ابن خلدون: "وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً، ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على الفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم، قوانين لتلك الملكة مطّردة، شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام"².

ومن الأسباب أيضاً، طلابُ التفسير اللغوي للقرآن الكريم، لأن الإمام بلغة العرب وأساليبها شرط في مفسر القرآن، وخير مثال على ذلك ما فعله ابن مسعود رضي الله عنه، حيث كان يستشهد بالشعر في تفسيره لأي الذكر الحكيم، وكذلك فعل ابن عباس رضي الله عنهما، فقد روي عنه أنه كان يُسأل عن معاني بعض ألفاظ القرآن الكريم، فيفسرها، ويستشهد على ذلك بأبيات من الشعر العربي، وقد جمعت هذه الأسئلة وإجاباتها في كتاب مستقل، باسم "سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس"، ذكرها السيوطي في كتابه: "الإتقان في علوم القرآن"، ونشرها إبراهيم السامرائي ببغداد سنة 1968م. وكذلك فعلوا مع غريب الحديث النبوي، وغريب كلام العرب.

ومما أزهّم إلى جمع التراث القولي للعرب أزهّماً؛ الاعتزاز بالعربية، وصيانتها من اللحن، ثم إنّ الحاجة العلمية الماسة كانت قد دعت إلى وضع الضوابط النحوية واللغوية، خاصة بعد أن أصبح الدرس اللغوي علماً يطلب لذاته، بعيداً عن دواعي خدمة القرآن الكريم.³ وفي ذلك يقول ابن خلدون: "فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتابة والتدوين، خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشمّر كثير من أئمة اللسان لذلك، وأملوا فيه الدواوين"⁴.

¹ - ينظر: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، ص 99.

² - المقدمة، عبد الرحمان بن خلدون، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 2010م، ص 499.

³ - ينظر الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، محمد حسين آل ياسين، ص 65.

⁴ - المقدمة، ابن خلدون، ص 500.

وأبرز من اشتغل بالسماع والرواية عن العرب من اللغويين الأعلام، ودوّن تلك المرويات: ابن أبي إسحاق الحضرمي (ت117هـ)، وتلميذاه: عيسى بن عمر (ت149هـ) وأبو عمرو ابن العلاء (ت154هـ)، والخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، ويونس بن حبيب (ت182هـ)، والكسائي (ت189هـ)، والنضر بن شميل (ت203هـ) والفراء (ت207هـ)، وأبو زيد الأنصاري (ت215هـ)، وأبو سعيد الأصبغي (ت216هـ) والمفضل الضبي (ت178هـ)، وأبو عمرو الشيباني (ت204هـ)، وابن الأعرابي (ت231هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت224هـ)، وغيرهم كثير. وأشهر هؤلاء ثلاثة: أبو زيد الأنصاري، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، وعبد الملك بن قريب الأصبغي، يقول أبو الطيب اللغوي: "وكان في هذا العصر ثلاثة هم أئمة الناس في اللغة والشعر وعلوم العرب، لم يُرَ مثلهم قبلهم ولا بعدهم، عنهم أخذ جلُّ ما في أيدي الناس من هذا العلم بل كلّه، وهم أبو زيد وأبو عبيدة والأصبغي، وكلهم أخذوا عن أبي عمرو اللغة والنحو والشعر، ورووا عنه القراءة، وأخذوا بعد أبي عمرو عن عيسى بن عمر وأبي الخطاب الأخفش ويونس بن حبيب عن جماعة من ثقات الأعراب وعلمائهم"¹.

ولما أدرك الأعراب سعي جُمّاع اللغة إليهم، وشغفهم بجمع كلامهم، أقبل نفر منهم على حواضر البصرة والكوفة، حاملين معهم مخزونهم اللغوي الواسع، يعرضونه على طلابه من اللغويين والنحاة، متكسبين من وراء ذلك، وقد بلغ عددهم العشرات، ذكر بعضهم القفطي في كتابه "إنباه الرواة"²، وذكر بعضهم الآخر ابن النديم في كتابه "الفهرست"، حيث خصّهم بباب أسماء (أسماء فصحاء العرب المشهورين الذين سمع منهم العلماء)³.

¹ - مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، ص 39، 40.

² - ينظر: إنباه الرواة، القفطي، ج 4، ص 120.

³ - ينظر: الفهرست، ابن النديم، ص 65.

ومن هؤلاء البدو الذين عنهم أخذت العربية: أبو ثروان العكلي، وأبو الجراح العقيلي، وأبو حزام العكلي، وأم الحمارس البكرية، وأبو شنبل الأعرابي، وأبو صاعد الكلابي، وأبو الغمر العقيلي، وغنية الكلابية، وقريبة الأسدية، وأبو مرة الكلابي، وأبو مهدي الباهلي، وأبو مهدي الكلابي، وأبو مالك عمرو بن كركرة، وأبو الجاموس ثور بن يزيد... وغيرهم¹.

المبحث الثاني: بواكير النشاط المعجمي عند العرب:

علم المعاجم علم كغيره من العلوم، نشأ صغيراً ثم تطور ليصل إلى مرحلة النضج، حتى صار علماً مستقلاً بذاته، له علمائه ورواده وضوابطه ومصطلحاته، فكيف كانت بدايات النشاط المعجمي عند العرب يا ترى؟

يبدو أن أول ما لفت انتباه اللغويين واسترعى اهتمامهم حول ما وقع بين أيديهم من ثروة لغوية، هو ما عدّوه غريباً من ألفاظ القرآن الكريم، وغريب الحديث النبوي الشريف، وغريب الشعر. ويعدُّ التأليف في غريب القرآن التّوّاة الأولى للدراسات اللغوية العربية، فقد كانت هذه الحركة التي ترمي إلى توضيح آيات القرآن هي الحركة العلمية الأولى عند المسلمين².

وقد تمّت الإشارة من قبل إلى مدى ارتباط نشأة المعاجم العربية بالبحث عن معاني الألفاظ الغريبة في القرآن الكريم، لأن القرآن نزل بلسان العرب، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾³ فقد جاء على سنن العرب وأساليب كلامهم، ولما كان اللسان العربي أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، فمن الطبيعي أنّ القوم لم يتساووا في فهمهم لألفاظ القرآن الكريم ومعانيه، لذا دعت الحاجة إلى تفسير غريبه، وشرح معانيه، فكان أحسنهم فهماً لكتاب الله نبيّ الهدى محمد ﷺ، كيف

¹ - ينظر: الفهرست، ابن النديم، ص 44 وما بعدها.

² - المعجم العربي، نشأته وتطوره، حسين نصار، ج 1 ص 31.

³ - سورة يوسف: الآية 02

وقد أنزل على قلبه، بل كان معجزته العظمى، فكان مرجع الناس فيما غمض على أصحابه منه، ولما قبضه الله إليه؛ آل الأمر من بعده إلى أصحابه، وأشهرهم في ذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنه¹.

وكنا قد تعرضنا في الفصل الأول لمنهج ابن عباس في تفسير ألفاظ غريب القرآن الكريم بالشعر عند حديثنا عن مسائل نافع بن الأزرق، ورأينا كيف أن تفسيره صار على هذا النحو النواة الأولى للمعاجم العربية، رغم بعض الشكوك التي حامت حول نسبته إليه، وإن كان هو صاحب هذا التفسير على الراجح من أقوال العلماء، لتتوالى التصنيفات في علم غريب القرآن حتى بلغت في النضج مداها.

وكما عנית الدراسات اللغوية بغريب القرآن، فقد اتجهت إلى العناية بغريب الحديث النبوي الشريف، وكنا قد أشرنا في الفصل الأول إلى بوادر التصنيف في هذا الفن، إلى أن وصل إلى غاية هي منتهاها، وبلغ إلى أمد هو أقصاه. لتأتي مرحلة أخرى في تاريخ الدراسات اللغوية العربية، وهي جدية بالذكر، ونعني بها جمع متون اللغة من أفواه الأعراب الخالص، سماعاً وحفظاً وتدويناً، تمهيداً لظهور ما عرف فيما بعد بالرسائل اللغوية، والتي مهدت بدورها لظهور المعاجم العربية بمختلف أشكالها وأنواعها.

3. ظهور الرسائل اللغوية:

عقب ظهور مجموع الرسائل والكتيبات التي ألفها علماء اللغة في شرح معاني غرائب القرآن بقراءاته المتعددة، وغرائب الحديث النبوي الشريف، والتي تعدّ الرسائل الأولى التي وضعها العرب، ومع نهاية القرن الثاني، وبداية القرن الثالث للهجرة، ارتحل جماع اللغة إلى البادية لمشاهدة الأعراب والسماع منهم، حيث مكّنهم ذلك من أن يضعوا أيديهم على ثروة لغوية هائلة، تناولت أطرافاً وأشتاتاً من ثقافة ذلك العصر، اقتصرت في مجملها على بيئة واحدة، هي بيئة شبه الجزيرة العربية.

¹ - ينظر: المعجم العربي، نشأته وتطوره، حسين نصار، ج1، ص 26.

وكان لزاما على هؤلاء العلماء أن يعطوا هذه الثروة اللغوية حقها من التنسيق والترتيب والشرح والتوضيح، فعمدوا إلى تدوينها في شكل رسائل إفرادية، حوت في طياتها المفردات المتصلة بموضوع معين، فيما يشبه الحقول الدلالية لدى علماء اللغة المعاصرين.

وقد مضى جمع اللغة في مراحل ثلاثة¹:

أما المرحلة الأولى، فقد "كان المدونون الأوّلون للغة في هذا العصر، يدونون المفردات حيثما اتفق، وكما يتيسر لهم سماعها، فقد يسمعون كلمة في الفرس وأخرى في الغيث، وثالثة في الرجل القصير وهكذا، فكانوا يقيدون ما سمعوا من غير ترتيب"²، فلم تكن هذه الرسائل تخضع لنظام معين في ترتيب مادتها التي تمّ جمعها، بل كان جامع اللغة يخرج إلى البادية فيسمع كلمة في المطر، ويسمع أخرى في اسم السيف، وثالثة في الزرع والنبات وغيرها في وصف الفتى، فيدون ذلك كله حسبما سمع من غير ترتيب، اللهم إلا ترتيب السماع، ولعلّ كتاب النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري أفضل ما بين أيدينا لتمثيل هذه المرحلة.

ثم جاءت المرحلة الثانية، وفيها جمعوا الكلمات الخاصة بموضوع واحد في كتيبات ورسائل صغيرة، ولعلّ سهولة هذه الطريقة قد ساعدت كثيرا جماع اللغة في حصر الألفاظ ذات الصلة بموضوع معين، بعيدا عن الخوض في موضوعات أخرى، فصنف الأصمعي كتباً في الأنواء والإبل وخلق الإنسان وغيرها، وألف أبو زيد كتاباً في المطر، وكتاباً في اللبن، وهكذا. وشكلت هذه الرسائل فيما بعد معاجم المعاني أو معاجم الموضوعات.

أما المرحلة الثالثة، فقد توجت بوضع معجم متكامل، يضم ما أمكن من الألفاظ العربية على نمط مخصوص، يعود إليها من رام البحث عن معنى كلمة أو أصلها أو حقيقتها. ويقوم كل معجم في جمع مادته على إحدى الطرائق التالية:

¹ - ينظر: ضحى الإسلام، أحمد أمين، مكتبة الأسرة، القاهرة، دط، 1997م، ج1، ص320.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

- طريقة الإحصاء العقلي الذي قام به الخليل بن أحمد في معجمه "العين"، من خلال الإحصاء الرياضي.
- طريقة المشافهة والسّماع كما فعل الأزهري في معجمه "تهذيب اللغة".

- طريقة الاعتماد على معاجم السابقين ((المدونة النصية))، حيث يأخذ اللاحق عن السابق.

وهذه قائمة ببعض أسماء الأعلام من اللغويين وما دونوه من رسائل لغوية، وهم¹:

- الأصمعي عبد الملك بن قريب، وله: كتاب الإبل، الشاء، الخيل، الوحوش، النبات ...

- أبو زيد الأنصاري، وله كتاب المطر، والإبل، وخلق الإنسان والوحوش وكتاب المياه...

- أبو خيرة الأعرابي، وله كتاب الحشرات.

- أبو عمرو بن العلاء، وله كتاب النوادر.

- النضر بن شميل المازني، وله كتاب السلاح، والمعاني، والأنواع...

- أبو خيرة نهشل بن زيد وله كتاب الحشرات

وكذلك فعل غيرهم من الرعيل الأول من جماع اللغة، يقول ابن النديم في كتابه الفهرست:

"نسب إلى كثير منهم بعض هذه الرسائل، فأبو زياد الكلابي وضع عدة رسائل أهمها: الفرق،

والإبل، وخلق الإنسان، ولأبي ثروان العكلي كتاب خلق الإنسان..."².

ولعلّ نظرة نلقيها على هذه الرسائل، يتبين لنا من خلالها أن اقتصار اللغويين الأوائل

على جمع غريب القرآن وغريب الحديث ونوادير الكلام هو ما كان يحتاج -في نظرهم- إلى شرح

وتفسير، أما الكلمات الأخرى فقد كان من السهل على المتلقي العربي العادي أن يعرف معناها،

أو يستنتجها من سياقات الكلام، لأنه كان على مقربة من عهد السّجّية والسّليقة.

¹ - فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، ص 230 وما بعدها.

² - الفهرست، ابن النديم، ص 49 وما بعدها.

ثم إنَّ الحديث عن هذه الرسائل اللغوية يقودنا إلى الحديث عن أبرز الدوافع وراء ظهورها، والحديث عن أبرز موضوعاتها، وعن علاقتها بالمعاجم العربية القديمة، الخاصة منها والعامّة.

1.3. دوافع تأليفها:

إنَّ تفكير العلماء الأوائل في تدوين مفردات اللغة في شكل رسائل لغوية يمكن رده إلى دافعين اثنين:

- **دافع ديني:** يتمثل رأسا في نشر الوعي الديني، وتيسير فهم القرآن والسنة، والأحكام الشرعية المنبثقة عنهما، من خلال شرح وتفسير ما غرب من ألفاظ القرآن والسنة، بتوفير المادة المعجمية الكفيلة بإزالة الإبهام، وذلك لأن الأحكام مستمدة من أصول شرعية ذات لسان عربي، فاقتضت الحاجة آنئذٍ التفقه في اللسان العربي قبل إعمال الفكر في استنباط هذه الأحكام.

- **دافع لغوي:** ويتمثل أساسا في الحفاظ على العربية من اللحن، وانتشالها من براثن الرطانة والعجمة التي طالتها، والتي يُخشى أن تطال كلام الله ﷻ، وحديث نبيه ﷺ، فيسوء فهمهما.

يضاف إلى ذلك، خشية الدارسين على هذه الثروة اللغوية الثرة من الضياع والتفكّات برحيل حفاظها، فحملهم ذلك إلى الانتقال من الرواية والسّماع إلى الكتابة والتدوين، عملا بنصيحة الفاروق عمر: "قيدوا العلم بالكتاب"¹، بعد أن كانت العرب تعتمد على قوة الحافظة والتذكر ردحا من الزمن. كما أنّ العمل المدوّن سيوفر للباحث فيما بعد مقياسا صالحا لاستحضار القضايا ومعاينتها، ومن الدوافع أيضا، النأي بالمنطوق عن التحريف أثناء النقل والرواية.²

2.3. موضوعاتها:

أمّا عن الموضوعات التي تناولتها هذه الرسائل فكان مدارها حول شتى مناحي الحياة ومعارفها، والطبيعة وعناصرها، وأول ما كتبوا فيه غريب القرآن ولغات القرآن، ثم غريب الحديث النبوي، ثم غريب الكلام ولغات القبائل، كما ألّفوا رسائل في النوادر، وعُنوا بخلق الإنسان فكتبوا عن حمله

¹ - أثر موقوف على عمر بن الخطاب، ذكره الدارمي في سننه، باب: الإذن بكتابة العلم، رقم الحديث: 497.

² - ينظر: تاريخ المعجم العربي بين النشأ والتطور، ابن حويلي الأخضر ميدني، دار هومه، الجزائر، 2009م، ص 39 وما بعدها.

وولادته، وأعضاء جسمه، وعن كل ما تعلق بعناصر حياته، وعُنُو بالحيوان، فكتبوا في أجناسه المختلفة وأسمائه وصفاته وأعضائه، وما تعلق به من الآلات والأدواء، وكتبوا عن النباتات وأسمائها وصفاتها وأنواعها، وما يتصل بها، وكتبوا عن اللغة صرفها وأصواتها واشتقاقها وحروفها، كما كتبوا في المعرّب والدخيل والأعجمي، والإبدال والهمز والترادف والمشارك اللفظي، والمثلث والمشجر، وكتبوا عن البلدان والمواقع، والأنواء، وعدة الحرب والسلاح واللجام، واللبن والتّم، وكتبوا عن الحياة والكون بصفة عامة.

وقد جعل عبد المجيد الحر هذه الكتب بحسب أنماطها ستة أنواع¹:

- **نمط الندرة والغرابة:** وهي ما جمع أصحابه فيه الألفاظ الغريبة النادرة ككتاب أبي زيد الأنصاري "النوادر في اللغة".
- **الموضوعات والمعاني:** وهي مرحلة تدوين اللغة مرتبةً في رسائل متفرقة صغيرة محدودة الموضوع، مبنية على معنى من المعاني، أو على حرف من الحروف ككتاب الأجناس للأصمعي، وكتاب المطر لأبي زيد الأنصاري.
- **الأضداد:** ويضم الألفاظ التي وردت بمعنيين متناقضين، ككتاب الأضداد للأصمعي، نحو الفعل: شرى الذي يدل على البيع والشراء.
- **مثلث الكلام:** ويشتمل على الألفاظ التي وردت على ثلاث حركات بمعان مختلفة، ككتاب مثلثات قطرب، من ذلك قولنا: الحلم: الجلد الفاسد، والحلم: الوقار، والحلم: ما يراه النائم.
- **الأفعال ذات الاشتقاق الواحد:** ككتاب " فعلت وأفعلت " للزجاج.

¹ - المعجمات والمجامع العربية، عبد المجيد الحر، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1994م، ص19.

• الحروف: وتجمع اسم الحرف الذي يجمع بين هذه الأصول، فيقال: كتاب الخاء، وكتاب الجيم، ومن أشهر ما وصل إلينا من رسائل هذا النوع كتاب "الهمز" لأبي زيد الأنصاري، وكتاب "الجيم" لأبي عمرو الشيباني.

3.3. أهميةها:

لا شك أن لميلاد هذه الرسائل الأثر البارز في تشكيل المعجم العربي، فقد كانت النواة الأولى في بنائه فيما بعد، حيث قام المعجم العربي قديماً على مادة هذه الرسائل، بل لا ينفك أثرها ظاهراً إلى يوم الناس هذا في المعاجم العربية الحديثة. ومن فوائدها ضبط الألفاظ والاطلاع على تطور معانيها من عصر لآخر، والكشف عن أعلام الأماكن والقبائل والأشخاص، ولغات القبائل، وتحقيق كثير من الشواهد والروايات المتضاربة.

والغريب في الأمر، أن الدارسين من اللغويين لم يوقوا هذه الرسائل حقها من حيث الدراسة والتحقيق، بل مرّوا عليها مروراً عابراً، ذلك لأن شغلهم الشاغل كان هو المعجم العربي بما تعنيه كلمة معجم من معنى، وكأنّ هذا المعجم ولد كاملاً مكتملاً، فكثيراً ما تراهم يركزون اهتمامهم على معجم "العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي كبداية للعمل المعجمي العربي.

والحاصل أنّه من الخطأ بمكان الاعتقاد بأنّ المعجم العربي جاء في صورته الناضجة المكتملة، بل حصل ذلك نتيجة تضافر جهود أجيال من الرواة وجماع اللغة، يقول عدنان الخطيب: "المعجم العربي: مجموع الثروة العظيمة التي خلفها علماء العربية على مدى العصور، فحفظوا لنا بها لغة العرب، لغة القرآن الكريم، اللغة التي نفتخر بها ونعتز¹، ومن المؤكد أن هذه المحاولات الفردية التي صنفت في شتى الموضوعات أصبحت فيما بعد الروافد التي أمدت المعجمات الكبرى بذلك الفيض الزاخر من المفردات والتراكيب والشواهد.

¹ - المعجم العربي بين الماضي والحاضر، عدنان الخطيب، ص 35.

4. تطور التأليف في المعاجم العربية:

1.4. المعاجم التراثية:

مع مطلع القرن الثالث للهجرة، عمد بعض اللغويين إلى ما سطره السابقون من رسائل لغوية، وأضافوا إليه ما فاتها، ونسّقوا كل ذلك تنسيقاً منظماً، وأنتجوا لنا ما يعرف **بمعاجم المعاني**، أو **معاجم الموضوعات**، أو كما يسميها بعضهم **المعاجم المبوبة**، ومن الموضوعات التي حازت شرف السبق بالتأليف فيها ما كان له ارتباط مباشر بالقرآن الكريم والسنة النبوية فظهر ما يعرف بكتب **غرائب القرآن وغرائب الحديث**، وكنا قد أفردنا لها الفصل الأول بما فيه، ثم جاء التأليف في **غرائب اللغة** بشتى موضوعاتها.

وهذه قائمة بأسماء أشهر الكتب التي عنيت بالمعاني والموضوعات¹:

1- "الغريب المصنف" لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت224هـ)، وهو أول كتاب وصل إلينا في هذا الباب، أخرجه صاحبه للناس دون مقدمة، ودون إشارة إلى مصادره التي استقى منها مادته، وقسمه إلى خمسة وعشرين كتاباً، يحتوي كل كتاب منها على أبواب، ويعد هذا الكتاب أكثر الكتب تأثيراً في المعاجم العربية التي جاءت بعده.

2- "الألفاظ الكتابية" لعبد الرحمان بن عيسى الهمداني (ت320هـ)، وهو أول كتاب يصل إلينا بعد كتاب "الغريب المصنف"، وهو كتاب صغير نسبياً، عباراته جزلة جمع في ثناياه ما يتصل بناحية معينة من المترادفات وصيغ الاستعارة والأمثال، مستعينا ببعض الشواهد القرآنية والحديثية وبعض الحكم.

3- "جواهر الألفاظ" لقدامة بن جعفر (ت337هـ)، تناول هذا الكتاب موضوعات مختلفة بأسلوب جزل، وعبارات متأنقة، قسمه صاحبه إلى 372 باباً.

4- "متخير الألفاظ" لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت395هـ)، رتب مؤلفه على حسب الموضوعات، وقسمه إلى مئة وأربعة عشر (114) باباً، تناول فيه الألفاظ الجزلة، والعبارات الرائعة.

¹ - ينظر: فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، ص 258 وما بعدها. وينظر: البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 288 وما بعدها.

5- "التلخيص في معرفة أسماء الأشياء" لأبي هلال العسكري (ت395هـ)، وهدف صاحبه منه أن يفي بما عجزت جميع كتب الأسماء والصفات عن بلوغ غايته، وقسمه إلى أربعين بابا، انتظمت مظاهر الحياة المختلفة.

6- "مبادئ اللغة" لأبي عبد الله الخطيب الإسكافي (ت421هـ)، وهو كتاب صغير الحجم، ضمّنه صاحبه أبوابا قصيرة في السماء والكواكب، والمياه، والجبال والكسوة، والنار والطعام والشراب، والسلاح وغير ذلك.

7- "فقه اللغة وسر العربية" لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت429هـ)، قسمه صاحبه على ثلاثين بابا معتمدا على كتاب "الغريب المصنف" لأبي عبيد بشكل كبير.

8- "المخصص في اللغة" لابن سيده الأندلسي (ت458هـ)، وهو أهم مصنف في المعاجم العربية المبوبة، كبير في حجمه، غني في مادته، ذكر صاحبه في مقدمته مصادره التي رجع إليها.

9- "كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ من اللغة وغريب الكلام"، لأبي إسحاق إبراهيم بن إسماعيل المعروف بابن الأجدابي (ت600هـ)، وهو كتاب في غريب الكلام صغير جدا، يبلغ في بعض الطبعات خمسا وخمسين صفحة، ولكنه نال شهرة عظيمة رغم صغر حجمه.¹

وكثيرة هي الكتب التي صنفت في هذا الباب، وحسبنا ما ذكرنا منها، وإلا فإنه يصعب حصرها، ومنها ما وصل إلينا وهو مطبوع، ومنها ما لم يبلغنا منه شيء. ولا شك أن هذه الكتب شكلت قاعدة صلبة فيما بعد لظهور المعاجم المتخصصة، فقد أفادت منها في كونها مصادر غنية بالمصطلحات العلمية من جهة، وفي متابعتها لمنهجها في التصنيف على أساس المفاهيم من جهة أخرى.²

لكن "هذا اللون من كتب اللغة - ونعني به معاجم المعاني - لا يغني عن لون آخر كان لابد من التوصل إليه، يشرح اللفظة ويجلو غامضها، ويعالج مشتقاتها حين ترد في نص أدبي يتوقف فهمه

¹ - ينظر البحث اللغوي عند العرب أحمد عمر مختار، ص 295.

² - التأليف المعجمي التراثي المتخصص، حاج هني، مجلة الأثر، 2015م، العدد 22، ص 145.

على فهم مدلولها، ولا تستطيع الكتب المشار إليها قبل الإرشاد إليه، إذ إنها تسير في طريق مقابل، تفترض معرفة الموضوع والمعنى، ثم ترشد إلى اللفظ¹، ويصطلح على هذا النوع من المعاجم بمعاجم الألفاظ أو المعاجم اللغوية أو الأبجدية أو المجنسة، وهي متأخرة زمنياً عن معاجم المعاني.

وإذا كانت معاجم المعاني قد تدرّجت في ظهورها حتى بلغت مرتبة الكمال والإتقان، فإنّ معاجم الألفاظ قد ظهرت طفرة واحدة على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) صاحب معجم "العين"، وهذه أسماء أشهر المعاجم اللغوية التراثية، حسب تسلسلها الزمني²:

1- معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170 أو 175هـ)، وهو المعجم الإمام وفرس الرهان، قام صاحبه بترتيب مداخله بحسب مخارج الحروف، حيث "عرض حروف الهجاء على جهاز النطق حرفاً حرفاً، حيث رأى أنها تصدر من أعضاء النطق متدرجة من أعلى من أقصى الحلق نزولاً إلى أسفل نهاية الشفتين على النحو التالي: ح ه خ غ/ ق ك/ ج ش ض/ ص س ز/ ط د ت/ ظ ن ث/ ر ل ن/ ف ب م/ واي، معتمداً على التقليبات الصوتية، ثم قام بتفريع الكتب إلى أبواب بحسب الأبنية، وهي عند الخليل أربعة: الثنائي والثلاثي والرابعي والخماسي³.

وقد اشتد الخلاف في نسبة معجم العين إلى الخليل، وانقسموا في ذلك إلى ثلاث طوائف: ذهب الأولى إلى صحة نسبته إلى الخليل، يقودهم ابن دريد، وأنكرت طائفة ذلك، وعلى رأسها النضر بن شميل، وذهبت الطائفة الثالثة إلى نسبة رسمه إلى الخليل، وعزت حشوه إلى غيره، وعلى رأس هذه الطائفة أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب (ت291هـ) وغيره⁴.

¹ - المعاجم العربية، دراسة تحليلية، عبد السميع محمد أحمد، ص15.

² - ينظر: المعجم العربي، نشأته وتطوره، حسين نصار، ج1، ص218 وما بعدها / ج2، ص404 وما بعدها.

وينظر: فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، ص267 وما بعدها.

³ - ينظر: المعاجم العربية، دراسة تحليلية، عبد السميع محمد أحمد، ص25.

⁴ - ينظر: معجم المعاجم، أحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1993م، ص191-194.

ومهما يكن من أمر؛ فإنّ لهذا المعجم الأثر البالغ في كثير من المعاجم التي جاءت بعده، سواء من حيث جمع المادة أو من حيث طريقة ترتيب المداخل اللغوية. وقام عالم أندلسي يعرف بأبي بكر الزبيدي(ت379هـ) بوضع مختصر لمعجم العين، وصفه السيوطي بأنه أحسن من الأصل¹.

2-معجم "الجيم" لأبي عمرو الشيباني(ت204هـ)، وليس يوجد في الكتاب مقدمة تهدينا إلى غرض صاحبه منه، ومنهج أبي عمرو في ترتيب كتابه أنه قسمه إلى أبواب، قصر كل واحد منها على حرف من حروف الهجاء، واتبع في ترتيب هذه الحروف الترتيب الألفبائي المعروف اليوم.²

3-"الجمهرة" لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد(ت321هـ)، هذا فيه صاحبه حذو الخليل في "العين"، إلا أنه خالفه في ترتيب الحروف، فعدل عن تأليفها وفق المخارج إلى تأليفها على الهجاء للعلة التي ذكرها في مقدمة كتابه، حيث قال: "وأجريناها على تأليف الحروف المعجمة، إذ كانت بالقلوب أعقب، وفي الأسماع أنفذ، وكان علم العامة بما كعلم الخاصة، وطالبها من هذه الجهة بعيداً من الحيرة، مشفياً على المراد"³. ولم يسمّ من مصادره إلا معجم العين، غير أنه يطالعنا في متن "الجمهرة" نفسها، أسماء: الأصمعي وأبي عبيدة وأبي حاتم، وأبي زيد وغيرهم⁴.

4-"ديوان الأدب في بيان لغة العرب" لإسحاق بن إبراهيم الفارابي(ت350هـ)، وهو معجم لألفاظ اللغة العربية، خلافاً لما يوحي به اسمه، وقد رتب هذا الكتاب على طريقة التقفية كما فعل أبو بشر اليمان ابن اليمان البندنجي(ت284هـ).

¹ - المزهر في علوم اللغة، السيوطي، ج1، ص87.

² - ينظر: المعجم العربي، حسين نصار، ص80.

³ - جمهرة اللغة(المقدمة)، ابن دريد، ج1، ص3.

⁴ - فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، ص273.

5- "البارع في اللغة" لأبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي المعروف بالقالي (ت356هـ)، وقد اتبع القالي في ترتيب المادة اللغوية نهج الخليل بن أحمد في "العين"، ومن مصادره معجم "العين" و"الغريب المصنف" لأبي عبيد، وكتب أبي زيد وأبي حاتم وابن السكيت.¹

6- "تهذيب اللغة" لمحمد بن أحمد الأزهري (ت370هـ)، وله من اسمه حظ ونصيب، فقد كان الغرض من تأليفه تنقية اللغة من الشوائب التي تسربت إليها على يد سابقيه ومعاصريه، قدّم له صاحبه بقوله: وقد سميت كتابي هذا: "تهذيب اللغة"، لأني قصدت بما جمعت فيه نفي ما أُدخل في لغات العرب من الألفاظ التي أزالها الأغبياء عن صيغتها، وغيّرها العثم عن سننها، فهذبت ما جمعت في كتابي من التصحيف والخطأ بقدر علمي، ولم أحرص على تطويل الكتاب بالحشو الذي لم أعرف أصله، والغريب الذي لم يسنده الثقات إلى العرب². أما عن ترتيبه فقد جاء موافقا لترتيب معجم "العين" بالتزام طريقة التقليبات.

7- "المحيط في اللغة" للصاحب بن عباد (ت385هـ)، تأثر فيه صاحبه بكتاب العين في المادة والترتيب.

8- "مجلد اللغة" و"مقاييس اللغة" لأحمد بن زكريا بن فارس اللغوي (ت395هـ)، أما المجلد؛ فهو معجم صغير الحجم، يمتاز بتعريفاته المختصرة وشواهد الكثرة، رام فيه ابن فارس تدوين الواضح والمشهور والصحيح من الألفاظ، ورتبه ترتيبا ألفبائيا على حسب الأصل الأول للكلمة، ونقل مادته عن الخليل والأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد، وأبي عمر الشيباني وابن دريد وغيرهم.³

أما المقاييس، فيقوم على فكرتين جديدتين هما فكرة الأصول التي يسميها المقاييس وفكرة النحت، فهو يحاول أن يعالج الألفاظ الثنائية المضعفة والثلاثية تحت أصل أو أصلين، وما زاد

¹ - فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، ص 276، 277.

² - تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، ج1، ص54.

³ - ينظر: المعجم العربي، حسين نصار، ج2، ص366، 367.

عن الثلاثي فقد حاول أن يفسر بعضها بما يسمى بالنحت، وطريقة ترتيب موادها هي نفسها طريقة الترتيب في الجمل.¹

9- "تاج اللغة وصحاح العربية"، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت400هـ)، ويدعى اختصاراً "الصحاح"، وهو آخر معجم يصنف في القرن الرابع للهجرة، ويعد هذا القرن العصر الذهبي للمعاجم العربية، لكثرة ما ألف فيه من المعاجم، وهو معجم رتبت مادته على طريقة التقفية، بحسب الأصل الأخير للكلمة، مع مراعاة الأصل الأول، ويزعم صاحبه أنه أول من اعتمد طريقة التقفية في الترتيب، جاء في مقدمة كتابه: "...على ترتيب لم أسبق إليه، وتهذيب لم أغلب عليه"²، وإن كانت بوادر هذا الترتيب قد ظهرت عند خاله الفارابي في "ديوان الأدب". ومن قبله البندنجي.

وكان غرضُ الجوهري من تأليف الصحاح أمرين اثنين: أولهما التزام الصحيح من الألفاظ، وثانيهما تيسير البحث عن المواد، ولقد وفق في ذلك إلى أبعد حد³، وألّف على "الصحاح" عدة شروح واستدراكات وتكملات، منها: "التنبيه والإيضاح على ماقع في كتاب الصحاح" لابن بري، و"مختار الصحاح" للرازي.⁴

10- "الحكم والمحيط الأعظم" لأبي الحسن عليّ بن أحمد المشهور بابن سيده الأندلسي (ت458هـ)، وقد سار في ترتيب مادته على طريقة الخليل بن أحمد الفراهيدي.

11- "أساس البلاغة" لأبي القاسم محمد بن عمر الزمخشري (ت538هـ)، وأهم ما يميز هذا المعجم أن صاحبه رتب مادته بحسب الأصل الأول للكلمة، مع مراعاة الأصل الثاني والثالث، وهو توجه جديد في تأليف المعاجم العربية، ظهرت بوادره مع أبي عمرو الشيباني، وأحكمه الزمخشري، كما اهتم

¹ - المعجم العربي، حسين نصار، ج2، ص 435 وما بعدها.

² - الصحاح، الجوهري، ج1، ص33.

³ - ينظر: المعجم العربي، حسين نصار، ج2، ص 484.

⁴ - فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، ص281.

فيه بدلالة الألفاظ من ناحية المعاني الحقيقية والمجازية للكلمات، لذا نعتة حسين نصار بأنه كتاب بلاغة وليس كتاب لغة¹.

12- "العباب الزاخر واللباب الفاخر" لأبي الفضائل رضي الدين الصاغانى (ت650هـ)، وهو مرتب على طريقة التقفية كما فعل الجوهري في "الصّحاح"، ولكنه لم يتمّه، بل وصل إلى مادة (بكم)².

13- "لسان العرب" لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت711هـ)، رتبه صاحبه على طريقة القافية، ومصادره خمسة ذكرها ابن منظور في مقدمة كتابه: "المحكم"، و"التهذيب"، و"الصّحاح"، و"التنبيه والإيضاح" لابن برّي، و"النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير، وهو عمل موسوعي بلغ ثمانين ألف مادة لغوية³.

14- "المصباح المنير" لأحمد بن محمد المقرئ الفيومي (ت770هـ)، وقد رتبت مادته المعجمية ترتيباً ألفبائياً على طريقة الزمخشري في الأساس.

15- "القاموس المحيط" لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت817هـ)، وهو مرتب على نظام القافية.

وبعد ظهور القاموس المحيط للفيروزآبادي في القرن التاسع الهجري، تكاد تأتي حركة تأليف المعاجم على نهايتها، ذلك لأنه ربما لم يعد في جعبة اللغويين شيء جديد يمكن أن يقدموه للمتلقى العربي، ولم يعد في إمكانهم أن يبدعوا أبداع أكثر مما فعلوا، فقد صار اللاحق بعد ذلك يترسم أثر السابِق، ولم يعد لدى اللغويين بعد ما تم إنجازُه من معاجم سوى مجرد شروح على المعاجم السابقة، أو تسجيل ما وقفوا عليه من انتقادات وما أخذ، كصنيع مرتضى الزبيدي (ت1206هـ) في معجمه **تاج العروس** الذي قام فيه بشرح **القاموس المحيط**، وصنيع أحمد فارس الشدياق (ت1887م) في مصنفه **الجاسوس على القاموس** الذي انتقد فيه معجم **القاموس المحيط** للفيروزآبادي.

¹ - المعجم العربي، حسين نصار، ج1، ص 690 وما بعدها.

² - ينظر: معجم المعاجم، الشرقاوي، ص220.

³ - ينظر: المدارس المعجمية العربية، صلاح راوي، دار الثقافة العربية، القاهرة، ط1، 1990م، ص15.

2.4. المعاجم الحديثة:

بعد أن صدر القاموس المحيط للفيروزآبادي، وما أُلّف عليه من شروح ونقود واستدراكات، ظهرت معاجم حديثة، التزمت جميعها في ترتيب مادتها اللغوية النظام الألفبائي العادي، حيث إنه مع بداية عصر النهضة، وتوافر الطباعة، والرغبة في صناعة معاجم تخدم الأهداف، وتتجنب عيوب المعاجم القديمة- كما زعموا- لاحت في الأفق نهضة معجمية قوية، وجاءت المعاجم العربية الحديثة تلبية للمتطلبات الدراسية، والنشاطات الأدبية واللغوية والثقافية، وأبرز هذه المعاجم:

- 1- "محيط المحيط": تأليف المعلم بطرس البستاني اللبناني (ت1883م)
- 2- "أقرب الموارد في فصح العرب والشوارد": تأليف سعيد الشرتوني اللبناني (ت1912م).
- 3- "البستان": تأليف الشيخ عبد الله البستاني اللبناني (ت1930م).
- 4- "المنجد في اللغة": تأليف الأب لويس معلوف اليسوعي اللبناني (ت1946م).
- 5- "المورد": تأليف رمزي بعلبكي اللبناني.
- 6- "متن اللغة": تأليف أحمد رضا اللبناني (ت1953م)
- 7- "المعجم الكبير" و"المعجم الوسيط": إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهذا الأخير من أفضل الأعمال المعجمية مقارنة بغيره من المعاجم الحديثة، كونه صدر عن هيئة علمية رسمية، ولأنه بني على قرارات غاية في الأهمية منها: فتح باب الوضع للمحدثين بوسائله المعروفة من اشتقاق، وتجوز، وارتجال، وإطلاق القياس، وتحرير السماع من قيود الزمان والمكان التي درجت عليها المعاجم التراثية القديمة، والأخذ بالألفاظ المولدة، وتسويتها بالألفاظ القديمة¹.

وإضافة إلى هذه المعاجم، ظهرت أنواع أخرى من المعاجم، يمكن أن نعدّها روافد للمعاجم اللغوية الأصيلة، لكنها تختلف عنها في كونها تعالج قضايا متنوعة، وتخصصات مختلفة، ولكلّ منها

¹ - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص 26.

هدف، ومنهج، وأسلوب عرض، وتشمل هذه الكتب المعاجم التاريخية والمعاجم الاشتقاقية، والمعاجم المتخصصة، ومعاجم الموسوعات، وسبق لنا التعريف بكلّ منها في مدخل هذا البحث.

5. ظهور المدارس المعجمية:

المدرسة لغة: مكان الدرس والتعليم.

وفي الاصطلاح: جماعة من الفلاسفة أو المفكرين أو الباحثين، تعتنق مذهباً معيناً، أو تقول برأي مشترك. ويقال: هو من مدرسة فلان، أي: على رأيه ومذهبه. وتجمع على مدارس¹، ومصطلح المدرسة مصطلح مستحدث، ورد ذكره في المعاجم الحديثة، أما في معاجم التراث كلسان العرب لابن منظور، أو التعريفات للجرجاني فلم يرد له ذكر بهذا المفهوم في حدود اطلاعنا.

أما مصطلح المدارس المعجمية القديمة، فيقصد به تلك الاتجاهات اللغوية التي جعلت قضية الصنّافة المعجمية من صميم اختصاصها واهتماماتها²، ابتداء من مطلع القرن الثاني للهجرة إلى نهاية القرن الرابع للهجرة، سواء من حيث المحتوى، أم من حيث البناء، فكانت سمة المدرسة عند هؤلاء الدارسين لا تتجاوز الجانب الوصفي المتجسد في الترتيب الشكلي داخل المعجم، ولم تكد تصل إلى العمق النظري للمعجم وما ينجر عنه في المجال التطبيقي، وصلة ذلك بنظرة المعاجميّ إلى اللغة، وعلاقة ذلك بجمع المادة وترتيب المداخل، وتعريفها، وضبط دلالتها³.

ومعنى هذا، أننا إذا استعملنا مصطلح مدرسة في تصنيف المعاجم العربية طبقاً لترتيب المداخل المعجمية، نكون قد تجاوزنا المفهوم العلمي لهذا المصطلح، ماعداً "معجم العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي، فإنه انطلق من تصور نظري مبتكر، جمع فيه بين التحليل اللغوي والرياضي، موظفاً مجموعة من المصطلحات الصوتية واللغوية، عبّر بها عن هذا التصور العلمي، الذي لم يقلد فيه أحداً،

¹ - ينظر: المعجم الوسيط، مادة: (درس)، ص 280.

² - ينظر: تاريخ المعجم العربي، ابن حويلي الأخرى ميدني، 129.

³ - المعجم العربي بين المدارس النظرية والنظرية، الجليلي حلام، مجلة المعجمية، تونس، ع 9-10، 1994م، ص 105.

ولم ينهج على طريق سابق، أما اعتماد مصطلح "مدارس" في تقسيم العمل المعجمي؛ فإنه يستعمل بشيء من التجوُّز والترخص¹.

1.5. واقع التقسيم المدرسي للمعاجم العربية:

إنّ من يمعن النظر في تقسيمات الدارسين المحدثين للمعاجم العربية، يتبين له مدى اختلافهم في تحديد عدد المدارس المعجمية، وتباين آرائهم في تسمية مبتكر كل مدرسة ورائدها الحقيقي، وإنّ كان كثير منهم يقسّم المعاجم العربية إلى نوعين رئيسين هما:

أ- **معاجم المعاني:** وهي التي ترتب فيها الألفاظ بحسب الموضوعات.

ب- **معاجم الألفاظ:** وهي التي ترتب فيها الألفاظ بحسب مخارج الحروف، أو بحسب الترتيب الهجائي، سواء كانت الألفاظ مجردة من الزوائد أم غير مجردة، وسواء أكانت مرتبة بحسب الحروف الأوائل أم الحروف الأواخر، وهذا النوع من المعاجم يقسم بدوره إلى بضعة أنواع بحسب طريقة ترتيب المداخل المعجمية.

ومن الباحثين الذين اعتمدوا هذا التقسيم **أحمد عبد الغفور عطار**، فقد قسّم العمل المعجمي إلى مدرستين كبيرتين هما: مدرسة المعاني، ومدرسة الألفاظ، تتفرع عنهما أربعة مدارس، حيث قال في مقدمة تحقيقه على كتاب "**الصحاح**" للجوهري: "وهذه المدارس أربع في رأينا، إلا أنّ في وسعنا أن نجعل مرّد أصولها إلى نبعين مختلفين، وهي أربع لمن أراد التفصيل، واثنان لمن أراد الإيجاز والإجمال، وهاتان المدرستان هما مدرسة المعاني، ومدرسة الألفاظ"²، أما المدارس الأربعة التي يقصدها فهي:

أ- **مدرسة الخليل:** ورائدها ومبتكرها إمام المعجميين الأول الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) واضع معجم العين، وضابط هذه المدرسة أنها تقوم على ثلاثة أمور، أولها: الترتيب على الحروف وفق المخارج الحلقية فاللسانية فالشفوية، وثانيها: السير على الأبنية ابتداء بالثنائي، وانتهاء

¹ - ينظر: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، 119 وما بعدها.

² - الصحاح (مقدمة المحقق)، الجوهري، تحق: أحمد عبد الغفور عطار، ص93.

بالحماسي، وثالثها: إدارة الكلم في كل بناء على الصور الممكنة فيه، وسار على هذا النهج كل من الأزهري في معجمه "تهذيب اللغة"، وابن دريد في "الجمهرة"، وابن عباد في "المحيط"، والقالي في "البارع"، وابن فارس في مُعْجَمِيهِ "مقاييس اللغة" و"المجمل"، مع اختلاف أصحاب هذه المدرسة في بعض الجزئيات.

والملاحظ أنّ مَنْ ذكرنا من أتباع الخليل لم يقلدوه في كل دقيقة من دقائق منهجه، بل خالفوه في بعض منهجه، ومرّد ذلك إلى تطور العمل المعجمي الحاصل بين البادئ المبتكر والتابع المتأخر، خاصة ما فعله ابن فارس في مُصنّفِيهِ، حين خالف منهج الخليل في الترتيب الألفبائي، وإهمال التقاليد الصوتية، ولكنه وافقه في ترتيب المداخل المعجمية بحسب الأبنية.¹

ب- مدرسة أبي عبيد: وهي التي تعرض مادتها المعجمية بحسب المعاني والموضوعات، ورائدها أبو عبيد القاسم بن سلام في معجمه "الغريب المصنف"، ويشتمل على أكثر من ثلاثين كتابا في موضوعات مختلفة، رتبه بحسب هذه الموضوعات، وتبعه في ذلك من القدماء ابن سيده في مصنفه "المخصص"، وكراع النمل (ت310هـ) في معجمه "المنجد فيما اتفق لفظه واختلف معناه"، ومن المعجميين المعاصرين صاحبنا مصنف "الإفصاح في فقه اللغة" عبد الفتاح الصعيدي وحسين يوسف موسى.²

ج- مدرسة الجوهري: وهي مدرسة الترتيب الألفبائي باعتبار آخر الكلمة بدلا من أولها، وتسمى أيضا مدرسة التقفية ورائد هذه المدرسة هو إسماعيل بن حماد الجوهري (ت370هـ) صاحب معجم "تاج اللغة وصحاح العربية"، وتابعه على ذلك الصاغاني (ت650هـ) معجماته "التكملة والذيل والصلة" و"مجمع البحرين" و"العباب الزاخر"، وابن منظور (ت711هـ) في "لسان العرب"،

¹ - مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار، ص 95 وما بعدها.

² - المصدر نفسه، ص 100.

والفيروزآبادي في "القاموس المحيط". ويرى أحمد عبد الغفور عطار أن هذه المدرسة أفضل من سابقتها، لأن طريقتها في ترتيب المداخل أسهل، لذلك كثر أتباعها والمنتسبون إليها.¹

د- مدرسة البرمكي: وهي مدرسة الترتيب الألفبائي باعتبار أوائل الحروف، ونسبها أحمد عبد الغفور عطار إلى محمد بن تميم البرمكي (ت322هـ) صاحب كتاب "المنتهى في اللغة"، رغم أن أبا عمرو الشيباني (ت204هـ) صاحب معجم "الجيم" سبقه إليها، لأن البرمكي راعى أوائل الحروف ثم الثواني ثم الثالث خلافا لأبي عمرو الذي التزم أول الكلمة دون النظر إلى ما بعدها.²

ويزعم أحمد عبد الغفور عطار أنه لم يسبق إلى هذا التقسيم³، وقريب من هذا التقسيم تقسيم أحمد مختار عمر، حيث قسم المعاجم إل نوعين رئيسين: معاجم المعاني ومعاجم الألفاظ، ثم قسم معاجم الألفاظ إلى ثلاث مدراس⁴:

1- مدرسة الترتيب الصوتي أو المخرجي: ورائد هذا الترتيب وواضعه هو الخليل بن أحمد صاحب معجم "العين"، وهو أول معجم من أي نوع عرفته اللغة العربية، ثم توالى التوليفات المعجمية بعد ذلك على الترتيب نفسه، فتابعه الإمام الأزهري في "تهديب اللغة"، والقالبي في كتابه "البارع"، وابن سيده في كتابه "المحكم"، و"المحيط" للصاحب بن عباد، و"مختصر العين" للزبيدي.

2- مدرسة الترتيب بحسب الأبنية: وهي مدرسة اعتمدت ترتيبا معقدا، لذلك لم يكتب له الشيوع، حيث يراعى في ترتيب الكلمات الحركة إلى جانب الصوت الساكن، ومرّ تطور هذا النوع بمرحلتين: مرحلة التمهيد ثم مرحلة المعجم الكامل، برع فيها الفارابي في مؤلفه المشهور "ديوان الأدب"، ثم اقتفى أثره في ذلك نشوان بن سعيد الحميري من علماء القرن السادس للهجرة في كتابه

¹ - مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار، ص101.

² - المصدر نفسه، ص 104-107.

³ - المصدر نفسه، ص: ش.

⁴ - البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 178.

"شمس العلوم"، وانحصرت جهود اللغويين في هذا الباب فيما يلي: أئينة المصادر، وأئينة الأفعال، وأئينة الأسماء.¹

3- مدرسة الترتيب الألفبائي: ولها صور خمسة هي²:

أ- وضع الكلمة تحت أسبق حروفها الأصلية في الترتيب الألفبائي: سار على هذا الترتيب ابن دريد (ت321هـ) في كتابه "الجمهرة".

ب- وضع الكلمة تحت أول حروفها الأصلية: وأقدم معجم سلك هذا النظام هو معجم "الجيم" لأبي عمرو الشيباني (ت204هـ)، ولد قبل الخليل، لذا يحتمل أنه سبقه في وضع معجمه. وقد سلك هذا النظام كثيرون، منهم ابن فارس (ت395هـ) في معجمه: "مقاييس اللغة"، و"مجمّل اللغة"، وتقرأ "أساس البلاغة" للزمخشري (ت538هـ)، و"المصباح المنير" للفيومي (ت770هـ)، و"المعجم الوسيط" لمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ج- وضع الكلمة تحت أول حروفها دون تجريد: ذكر المحققون من أهل العلم أنه لم تظهر معجمات قديمة كاملة سلكت هذا النظام، وإنما ظهرت كتب لغوية اهتمت بنوع معين من المفردات، وأهمّ هذه الكتب: "المقصود والممدود" لابن ولاد المصري (ت332هـ)، وهو معجم يحصر كلمات المقصود والممدود في اللغة، و"غريب القرآن" للسجستاني (ت330هـ)، وكتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير (ت606هـ)، و"المعرب" للجواليقي (ت540هـ).

د- وضع الكلمة تحت حرفها الأخير دون تجريد: تمثل هذا المنهج في الترتيب البندنيحي في كتابه "التقنية في اللغة".

هـ- وضع الكلمة تحت حرفها الأصلي الأخير: رائد هذه الطريقة المسماة نظام الباب والفصل هو الفارابي اللغوي، وعنه أخذ كثيرون، منهم الجوهري في معجمه: "الصحاح"، وكتب الصاغاني

¹ - البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 269.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 175.

مصنّفه "العباب الزاخر واللباب الفاخر"، وألّف ابن منظور كتابه "لسان العرب"، وصنّف الفيروزآبادي "القاموس المحيط"، وجمع الزبيدي (ت1205هـ) كتابه "تاج العروس".

ومن الدراسين الذين تبنا مصطلح "مدرسة"، حسين نصار حيث يقول في كتابه "المعجم العربي، نشأته وتطوره": "رأيت أن أخط في هذا البحث منهجا يقوم على دراسة المدارس، فقسّمتُ المعجمات العربية الكبيرة إلى مدارس بحسب منهج كلّ منها في تقسيماته وأبوابه، وحاولت الربط بين هذه المدارس باستخراج آثار الأولى منها في الأخيرة، وتتبع كل مدرسة تاريخيا، فعالجت المعجم الأول منها في الظهور، فالثاني فالثالث إلى الأخير منها ظهورا..."¹.

وذهب حسين نصار إلى تقسيم العمل المعجمي إلى أربع مدارس، على النحو التالي:

1- مدرسة الترتيب الصوتي والتقاليب: والرابط في هذه المدرسة ترتيب الحروف باعتبار مخارجها، مبتدئا بالأبعد في الحلق، منتهيا بما يخرج من الشفتين، وجعل هذا الترتيب أساس تقسيمها إلى كتب، ثم تقسيم هذه الكتب إلى أبواب تبعا للأبنية، ثم ملء هذه الأبواب بالتقاليب، ورائدها الخليل بن أحمد، وأدخل في هذه المدرسة إلى جانب المعجم الإمام "العين" معاجم "البارع"، و"المحيط"، و"الحكم"، و"التهذيب"، ومن الطبيعي ألا تتفق هذه الكتب في كل شيء، وذلك راجع إلى تطور العمل المعجمي من السابق إلى اللاحق، فلطالما حاول المتأخر أن يتخلص من العيوب التي وقع فيها سابقه.²

2- مدرسة الترتيب بحسب الأبنية: وغرض هذه المدرسة التخلص من الترتيب الصوتي الذي نهجته مدرسة العين، بهدف تسهيل عملية البحث في المعجم، لما في الأول من عسر ومشقة، يقول ابن دريد -رائد هذه المدرسة- في مقدمة كتابه "الجمهرة": "قد ألّف الخليل بن أحمد كتاب "العين"، فأتعب من تصدى لغايته، وعنى من سما إلى نهايته... وأملينا هذا الكتاب والنقص في الناس فاش،

¹ - المعجم العربي، نشأته وتطوره، حسين نصار، ص7.

² - المرجع نفسه، ص17.

فسهّلنا وعره، ووطّأنا شأوه"¹. وضمّ إليه "مقاييس اللغة" و"المجمل"، والرابط في هذه المدرسة هو الترتيب الألفبائي، وبحسب الأبنية في الوقت نفسه، على خلاف بين هذه الكتب في بعض الجزئيات، فابن دريد في الجمهرة يقسم بحسب الأبنية أولاً، ثم يقسم كل بناء إلى الحروف، بينما يقسم ابن فارس في معجمه وفقاً للحروف أولاً، ثم يقسم كل حرف إلى أبنية²، الأمر الذي لا يتحقق معه التجانس الكافي بين معاجم هذه المدرسة، لأن ابن دريد يشترك مع الخليل في نظام التقليلات، ويشترك مع ابن فارس في الترتيب الألفبائي، ولهذا كان من الأفضل فصل منهج ابن دريد عن ابن فارس، كما فصل عن منهج الخليل بن أحمد الفراهيدي³.

3- مدرسة الترتيب الألفبائي بحسب الأواخر: وتضم معاجم:

- "الصحاح" للجوهري.
- "العباب" للصاغاني.
- "لسان العرب" لابن منظور.
- "القاموس المحيط" للفيروز آبادي.
- "تاج العروس" للزبيدي.
- "معيار اللغة" للشيرازي.

4- مدرسة الترتيب الألفبائي بحسب الأوائل: وتضم معاجم:

- "أساس البلاغة" للزمخشري.
- "معاجم اليسوعيين".
- المعجم الوسيط والكبير لمجمع اللغة العربية.

¹ - جمهرة اللغة (المقدمة)، ابن دريد، ج1، ص3.

² - المعجم العربي، نشأته وتطوره، حسين نصار، ص403.

³ - دراسات في المعاجم العربية، محمد جواد النوري وعلي خليل حمد، مطبعة النصر التجارية، نابلس، ط1، 1991م، ص49.

ومن الذين عُتوا بتقسيم العمل المعجمي إلى مدارس أيضا: صلاح راوي، حيث نصّ على ثلاثة أنواع من المدارس المعجمية، هي¹:

1- مدرسة التقليلات، ورائدها الخليل في معجم "العين"، حيث جمع فيه الكلمات المكونة من أصل لغوي واحد في موضع واحد، معتمدا ترتيب الحروف بحسب المخارج، وبدأ بتقليب الأصل اللغوي بأبعد الحروف مخرجا ثم يتبعه بما يليه في المخرج وهكذا، وتابعه على منهجه هذا:

-القالبي في "البارع".

-الأزهري في "تهذيب اللغة".

-الصاحب بن عباد في "المحيط" و"الجوهرة".

-ابن سيده في "المحكم والمحيط الأعظم".

2- مدرسة القافية، ورائدها البندنجي (ت284هـ) في كتابه "التقفية"، وتعتمد هذه المدرسة على الحرف

الأخير من الأصل اللغوي، ومن الذين اقتفوا أثر البندنجي في هذا الترتيب:

-الفارابي في معجم "ديوان الأدب".

-الجوهري في "تاج اللغة وصحاح العربية".

-الصاغاني في "العباب الزاخر".

-الزنجاني في "تهذيب الصحاح".

-ابن منظور في "لسان العرب".

-الفيروز آبادي في "القاموس المحيط".

-الزبيدي في "تاج العروس".

-الرازي في "مختار الصحاح".

¹ -المدارس المعجمية العربية، صلاح راوي، ص37.

3- مدرسة الأجدية العادية (الألفبائية): ويقصد بالأجدية العادية الترتيب الألفبائي العادي للحروف، وليس أجدية التقليلات، وتقوم هذه المدرسة على ترتيب الألفاظ في أبواب وفصول مجردة من الزوائد، وترتب الأبواب بحسب الحرف الأول مع مراعاة الحرف الثاني فالثالث دون تقليب، ورائد هذه المدرسة هو أبو عمرو الشيباني صاحب كتاب "الجيم"، وتابعه على نهجه هذه عدد من اللغويين منهم:

- ابن فارس صاحب "المجمل" و"مقاييس اللغة".

- الزمخشري صاحب كتاب "أساس البلاغة".

- الرازي صاحب كتاب "مختار الصحاح".

- الفيومي صاحب معجم "المصباح المنير".

وذهب عبد السميع محمد أحمد إلى تقسيم المدارس المعجمية إلى أربع مدارس هي¹:

1- مدرسة الخليل صاحب كتاب "العين".

2- مدرسة ابن دريد صاحب "جمهرة اللغة".

3- مدرسة الجوهري صاحب "الصحاح"، وتابعه محمد بن أبي بكر الرازي صاحب "مختار

الصحاح"، وابن منظور صاحب "لسان العرب"، والفيروز آبادي صاحب "القاموس المحيط".

4- مدرسة الزمخشري صاحب معجم "أساس البلاغة"، ومن أتباع هذه المدرسة أحمد بن محمد

الفيومي صاحب معجم "المصباح المنير"، وسعيد بن عبد الله الشرتوني (1912م) صاحب معجم

"أقرب الموارد في فُصَح العربية والشوارد"، ولويس معلوف (ت1946م) صاحب معجم "المنجد

في اللغة" وغير هؤلاء من المعجميين المعاصرين.

¹ - المعاجم العربية، دراسة تحليلية، عبد السميع أحمد، ص21 وما بعدها.

أمّا الدكتور رمضان عبد التواب، فيقسم المعاجم العربية إلى ثلاثة أنواع، هي¹:

1- معاجم ترتب الكلمات بحسب الموضوعات، مثل:

- "فقه اللغة" للثعالبي.

- "المخصص" لابن سيده.

2- معاجم ترتب الكلمات بحسب مخارج الحروف وطريقة التقاليد، نحو:

- معجم "العين" للخليل بن أحمد.

- معجم "تهذيب اللغة" للأزهري.

- "المحكم" لابن سيده.

3- معاجم ترتب الكلمات ترتيباً ألفبائياً (بحسب الأصل الأخير أو الأول للكلمة)، مثل:

- "الصحاح" للجوهري

- "القاموس المحيط" للفيروز آبادي.

- "أساس البلاغة" للزمخشري.

- "المصباح المنير" للفيومي.

ويقسم حلمي خليل المدارس المعجمية إلى خمس مدارس، وهي²:

1- مدرسة الترتيب الصوتي: وتضم المعاجم الآتية:

- العين للخليل بن أحمد.

- البارع للقيلي.

- تهذيب اللغة للأزهري.

- المحيط للصاحب بن عباد.

¹ - فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، ص 258-289.

² - ينظر: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، ص 120 وما بعدها.

- المحكم لابن سيده.
- 2- مدرسة الترتيب الألفبائي مع الأبنية: وتضم المعاجم الآتية:
- الجمهرة لابن دريد.
- المجمل والمقاييس لابن فارس.
- 3- مدرسة التقفية: وتضم المعاجم الآتية:
- "الصحاح" للجوهري.
- "العباب الزاخر" للصاغاني.
- "لسان العرب" لابن منظور.
- "القاموس المحيط" للفيروز آبادي.
- "تاج العروس" للزبيدي.
- 4- مدرسة المعاجم الموضوعية: وهي مدرسة تختلف عما سبقها من مدارس من حيث مبدأ الوضع، إذ اعتمدت في ترتيب ألفاظها حسب الموضوعات، ومن أشهر معاجمها:
- الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام.
- معجم الألفاظ لابن السكيت (244هـ).
- المخصص لابن سيده.
- 5- مدرسة المعاجم المتخصصة: وألحق بها أربعة معاجم هي:
- مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني.
- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير.
- أساس البلاغة لأبي القاسم الزمخشري.
- مفاتيح العلوم للخوارزمي (ت387هـ).

بينما توسع عليّ القاسمي في تصنيف المعاجم العربية على النحو التالي¹:

- 1-الترتيب العشوائي: ومثل له بكتاب "الجيم" لأبي عمرو الشيباني.
- 2-الترتيب المبوب: وفيه ترد المادة المأخوذة من كتاب معين بحسب ترتيب ورودها في ذلك الكتاب، ومثل له بالقسم الثالث من كتاب "غريب القرآن" لابن قتيبة.
- 3-الترتيب الموضوعي: وفيه ترتب المداخل المعجمية بحسب المعاني والموضوعات، ومثل له بمعجم "المخصص" لابن سيده.
- 4-الترتيب الدلالي: وفيه ترتب الألفاظ ضمن حقول دلالية معينة، ومثل له بكتاب "الألفاظ الكتابية" لعبد الرحمان الهمداني.
- 5-الترتيب النحوي: وفيه ترتب مواد المعجم بحسب انتماءاتها الصرفية والنحوية، كالأسماء أو الأفعال أو غيرهما، ومثل له بكتاب "ديوان الأدب" للفرابي.
- 6-الترتيب الجذري: وهو الترتيب الذي تسير عليه أغلب المعاجم العربية.
- 7-الترتيب التقليبي: ومثل له بمعاجم: "العين" و"الجمهرة" و"تهذيب اللغة" و"البارع" و"المحيط" و"المحكم".
- 8-الترتيب الهجائي: وله عنده عدة صور على النحو الآتي:
 - أ-الترتيب الصوتي.
 - ب-الترتيب الأبجدي
 - ج-الترتيب الألفبائي، وهو بدوره يتفرع إلى:
 - 1-الترتيب الألفبائي بحسب الأوائل، كما في "الجيم"، و"المقاييس"، و"أساس البلاغة".
 - 2-الترتيب الألفبائي بحسب الأواخر، كما في "الصحاح" و"لسان العرب" وغيرهما.
 - 3-الترتيب الألفبائي بحسب الأوائل والأواخر، كما في "تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب".

¹ - المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، عليّ القاسمي، مكتبة لبنان، بيروت، 2003م، ص 45-68.

وآخر ما نختتم به هو تقسيم أحمد الشرقاوي إقبال الذي اعتمد فيه على مضمون المعاجم التراثية، فاتخذ الموضوع أساساً لتصنيفه، خلافاً لغيره من الدارسين، الذين جنحوا إلى تصنيف المعاجم طبقاً لطريقة ترتيب مداخلها، ليخلص في النهاية إلى ثمانية أنواع رئيسة من المعاجم، هي¹:

1- معاجم اللغات: وهي المعاجم التي تختص بشرح غريب الكلام، وتنضوي تحتها عدة أصناف أهمها:

- أ- معاجم غريب القرآن: ومنها معجم "المحيط بلغات القرآن" لأحمد بن عليّ البيهقي (ت544هـ).
- ب- معاجم الوجوه والنظائر: ويقصد بها أن تكون الكلمة الواحدة ذكرت في مواضع من القرآن على لفظ واحد وحركة واحدة، وأريد بها في كل مكان معنى غير المعنى الأول، ومن أمثلة هذا الصنف، كتاب "الوجوه والنظائر" لأبي الحسن مقاتل بن سليمان الخراساني (ت150هـ).
- ج- معاجم غريب الحديث: ومن أمثلتها كتاب غريب الحديث للنضر بن شميل المازني (ت204هـ).
- د- معاجم المصطلحات: وهي المعاجم التي تبين مفاهيم المصطلحات في شتى العلوم، ومن أمثلتها "كشاف اصطلاحات الفنون" لمحمد أعلى التهانوي (من علماء القرن الثاني عشر الهجري).
- هـ- كتب اللهجات: وهي المعاجم التي تشرح لهجات العرب المختلفة، وتميز الفصيح من غيره، ومن أمثلتها كتاب اللغات ليونس بن حبيب الضبي (ت182هـ).
- و- معاجم النوادر: وهي المعاجم التي تشرح الألفاظ من شاذ اللهجات، وغريب الكلم، ونادر الألفاظ، ومن أمثلتها كتاب النوادر لأبي عمرو بن العلاء (ت145هـ).
- ز- معاجم المعرب: وهي المعاجم التي تشرح معاني الألفاظ الدخيلة على كلام العرب من اللغات الأخرى، ومن أمثلتها كتاب "المعرب من كلام الأعجمي" لأبي منصور الجواليقي (ت540هـ).

¹ - ينظر: التصنيف النوعي للمعاجم العربية التراثية، عليّ القاسمي، مجلة الدراسات المعجمية، ع5، 2006م، ص256.

ح- معاجم التصويب اللغوي: وهي الكتب التي عاجت الأخطاء التي تفتشت في اللسان العربي بعد الفتوح وصوّبتها، ومن أمثلتها كتاب "إصلاح المنطق" لابن السكيت (ت244هـ).

2- معاجم الموضوعات: وذكر تحت هذا النوع أصنافا أخرى أهمها: معاجم الحيوان، معاجم الفرق، معاجم النبات، معاجم الأنواء، معاجم الأماكن، معاجم الأسلحة، معاجم الأصوات.

3- معاجم القلب والإبدال: ككتاب الإبدال لمعمر بن المثنى (ت210هـ).

4- معاجم الاشتقاق: ويقصد به الاشتقاق الأكبر، ومثاله كتاب لمعة الإشراف في الاشتقاق لجلال الدين السيوطي (ت911هـ).

5- معاجم الحروف: ويقصد بها المعاجم العامة، وقسمها إلى ثلاثة أقسام:

أ- معاجم ترتب المداخل اللغوية بحسب مخارج الحروف: ويذكر من أمثلتها معجم "العين" للخليل، ومعجم "الجمهرة" لابن دريد.

ب- معاجم ترتب بحسب القافية: وذكر من أمثلتها "الصحاح" للجوهري، و"لسان العرب" لابن منظور، و"القاموس المحيط" للفيروز آبادي.

ج- معاجم ترتب الكلم على الألفباء: ومثل لها بكتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني، وأساس البلاغة لأبي القاسم الزجاجي.

6- معاجم الأبنية: وهي المعاجم التي اتخذت من أحد الأصناف النحوية أساسا لعرض مادتها، وذكر تحت هذا النوع أنواعا منها:

- معاجم الأبنية: ومثل لها بكتاب الأبنية لأبي زكرياء الفراء (ت207هـ).

- معاجم الأفعال: مثل لها بكتاب الأفعال لابن القوطية (ت367هـ).

- معاجم المذكر والمؤنث: ومثل لها بكتاب المذكر والمؤنث لأبي سعيد الأصبغي.

- معاجم المقصور والممدود: ومثل لها بكتاب المقصور والممدود لأبي زكرياء الفراء.

7- معاجم المعاني: وهي المعاجم التي تناولت العلاقات الدلالية بين المفردات ترادفاً كان أو تضاداً، وذكر من هذه المعاجم:

- معاجم الترادف: ومثل لها بكتاب "ما اختلف لفظه واتفق معناه" لأبي سعيد الأصمعي.
- معاجم الاشتراك: وهي المعاجم التي تذكر أكثر من معنى للفظ الواحد، ومثل لها بكتاب "ما اتفق لفظه واختلف معناه" لأبي سعيد الأصمعي.
- معاجم الأضداد: وهي معاجم تتناول الألفاظ التي يدل الواحد منها على معنيين متضادين، ومثل لها بكتاب الأضداد لمحمد بن المستنير قطرب (ت206هـ).
- معاجم المثلثات: وتتناول الألفاظ التي يتعاقب على أولها أو وسطها الحركات الثلاث مع اختلاف المعنى أو اتحاده، ومن هذه المعاجم كتاب المثلث لقطرب.

8- معاجم الطوائف: وتضم هذه المعاجم "ما أغرب مؤلفوه في وضعه أو موضوعه مما يستطرفه القارئ، ويستريح إليه"¹، وهي على أقسام منها:

- معاجم المكنيات والمبنيات والمدنويات: وهي معاجم تعني بالألفاظ التكنية، كأم الكتاب: الفاتحة، والمبني من الألفاظ مثل: بنات الدهر: حوادثه، والمدوي من الألفاظ، مثل: ذو النون: يونس بن متى، ومن أمثلة هذا النوع من المعاجم كتاب الآباء والأمهات للحسن بن عثمان الزبادي (ت242هـ).

- معاجم المداخل والمشجر والمسلسل: وهي التي تبدأ أبوابها بكلمة أولى تكون مفتاحاً، ثم يفسر معناها بكلمة ثانية، ثم يفسر معنى الثانية بثالثة، وهكذا. ومن أمثلتها كتاب المداخل في اللغة لمحمد بن عبد الواحد المطرز (ت345هـ).

- معاجم الملاحن: وهي معاجم تضمنت الألفاظ المحتملة للمعاني المختلفة، فيورى فيها بمعنى عن معنى، ومن أمثلتها كتاب الملاحن للحسن بن دريد (ت327هـ).

¹ - معجم المعاجم، أحمد الشرقاوي إقبال، ص 337.

ويمكن اختصار هذه الأنواع الثمانية بفروعها في مدرستين رئيسيتين، هما معاجم الموضوعات، ومعاجم الحروف كما يسميها هو، أو معاجم الألفاظ، أو المعاجم العامة. ولعلّ أجمل ما في هذا التقسيم أنّ صاحبه حاول أن يستوعب جميع المعاجم التراثية، حيث ذكر في مقدمة كتابه "معجم المعاجم" أنه أمضى ربع قرن من العمل الدائب الواصب في إحصاء المعاجم العربية، فقد أحصى نحو ألف ونصف ألف من المعاجم العربية التراثية¹، وكان اختيارنا أن نقتصر على معجم واحد فقط في التمثيل لكل نوع من أنواع المعاجم التي أوردها المصنف في كتابه، وإلا فإنّ القائمة تطول.

والجدول الآتي يلخص التقسيم المدارس المتفق عليه من قبل من سبق من الباحثين، مع اختلافهم في المعاجم المدرجة تحت كل مدرسة، حيث تمّ الاقتصار على معاجم الألفاظ دون معاجم المعاني، لأنها عند الجميع واحدة:

المدراس	الباحث	أحمد عبد الغفور	أحمد مختار عمر	حسين نصار	صلاح راوي	عبد السميع أحمد	رمضان عبد التواب	حلمي خليل
مدرسة الترتيب المخرجي(الصوتي)	العين	العين	العين	العين	العين	العين	العين	العين
	البارع	البارع	البارع	البارع	البارع	البارع	المحكم	البارع
	التهذيب	التهذيب	التهذيب	التهذيب	التهذيب	التهذيب	التهذيب	التهذيب
	المحيط	المحيط	المحيط	المحيط	المحيط	المحيط		المحيط
	المحكم	المحكم	المحكم	المحكم	المحكم	المحكم		المحكم
	المجمل	مختصر العين						
	الجمهرة							

¹ - ينظر: معجم المعاجم، أحمد الشرقاوي إقبال، ص: ز-ي.

أساس البلاغة	أساس البلاغة المصباح	أساس البلاغة المصباح أقرب الموارد المنجد	أساس البلاغة المصباح الجيم المجمل المقاييس أساس البلاغة المختار	أساس البلاغة معاجم اليسوعيين الوسيط الكبير	أساس البلاغة الجمهرة المقاييس	أساس البلاغة المنتهى	مدرسة الترتيب الألفبائي
الصحاح العباب لسان العرب القاموس المحيط تاج العروس	الصحاح القاموس المحيط	الصحاح لسان العرب القاموس المحيط المختار	الصحاح العباب لسان العرب القاموس المحيط التاج المختار التهذيب	الصحاح العباب لسان العرب القاموس المحيط تاج العروس المعيار	الصحاح لسان العرب تاج العروس	الصحاح العباب لسان العرب القاموس المحيط تاج العروس	مدرسة التقفية

- الجدول (1) -

2.5. معايير التقسيم المدرسي للمعاجم:

لا شك أن التقسيم المدرسي للمعاجم الذي يبنى على أسس ومعايير علمية نظرية وتطبيقية له مزايا عديدة ومتنوعة، لعلّ أبرزها أنه يساعد المعجميّ على فهرسة المعاجم، خاصة مع كثرتها وتنوعها، كما أنه يسهل على القارئ اختيار المعجم الذي يلي احتياجاته البحثية والعلمية، ومعلوم أن تقسيم المعاجم العربية إلى مدارس يعتوره كثير من النقص وعدم الدقة العلمية، فهو تقسيم شكلي وصفي، يتخذ من ترتيب المداخل المعجمية أساساً له، ويفتقر إلى نظرية علمية نابعة من مباحث الدرس المعجمي الحديث الذي يقوم أساسين مهمين: أولهما؛ الجمع الذي يراعي مصادر المادة المعجمية لكل معجم ومستوياتها اللغوية، والوضع الذي يراعي ترتيب المادة المعجمية، وتعريف المداخل المعجمية والوقوف عند دلالتها المختلفة.

وإطلاق مصطلح مدرسة على تقسيم لا يكاد يتجاوز طريقة ترتيب المداخل المعجمية فيه شيء من التجاوز وعدم الدقة، ولا يرقى من حيث التأصيل النظري إلى أن يشكل مدرسة حقيقية، ذلك لأن المدرسة "تطلق على جماعة من الباحثين تعتنق مذهباً، أو تأخذ على الأقل بقدر من الآراء المشتركة بين أصحابها، كمدرسة البصرة، والكوفة"¹، وهذا معناه أن المدرسة تعدّ مذهباً، والمذهب في تعريف المعجم الفلسفي: "مجموعة مبادئ وآراء متصلة ومنسقة لمفكر أو مدرسة"².

من هنا، يبدو أن التأصيل العلمي للمدرسة في حقل المعجمية هو أقرب إلى النظرية التي هي: "فرض علمي يربط عدة قوانين بعضها ببعض، ويردّها إلى مبدأ واحد يمكن أن نستنبط منه حتماً أحكاماً وقواعد"³، وهذا على اعتبار أن المعجم أو القاموس مجموعة من العناصر التي ترتبط بالأحكام

¹ - المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983، ص 73.

² - المرجع نفسه، ص 174.

³ - المرجع نفسه، ص 202.

والقواعد، وانطلاقاً من هذه التعاريف؛ يمكننا أن نستنتج المقومات التي تتشكل منها المدرسة كمصطلح علمي مستقل بذاته، وأهمها:

- وجود اتجاه فكري أو مذهبي يؤسس له رائد أو عالم، ويقتفي أثره جماعة تؤمن بمبادئ هذا الاتجاه، وتهيئ له ظروف النماء والاستمرار.
- عمق نظري يمتاز عن نظريات أخرى مغايرة، ويؤدي إلى استنباط أحكام وقواعد.
- مواكبة زمانية أو مكانية، تطول أو تقصر، تضيق أو تتسع، حسب عمر هذه الأفكار، وحسب الضرورة الاجتماعية الداعية إلى تلبية حاجيات الناس.¹

وعليه، فإن أيّ تقسيم للمعاجم في شكل مجموعات يصطلح عليها مدراس، إنما يجب أن يكون مبنيًا على تشاركية بين هذه المعاجم في خصائص ذاتية بحيث تشكل نوعاً معرفياً متميزاً يختلف عن غيره من الأنواع المنتمية إلى جنس المعاجم²، ذلك لأن التصنيف بشكل عام؛ يعدّ خطوة مهمة من خطوات البحث العلمي، فالباحث يجمع مادته عادة ويحللها، ويصنفها على أساس معين، ويلاحظ مميزات كل صنف وسلوك أفرادها، ثم يبيّن ملاحظاته على شكل قاعدة علمية أو قانون عام ينطبق على جميع أفراد الصنف، ويشتمل على المبادئ القبلية التي تتخذ أساساً لمعرفة سلوك أفراد ذلك الصنف في المستقبل، تحت ظروف معينة وشروط محددة³.

وهذا ما لم نلمسه في التقسيم المدرسي للمعاجم العربية، بل وقع أصحابه في خلط ولبس باديين للعيان، ويظهر ذلك في إسنادهم لبعض المعاجم إلى مدرسة واحدة، رغم أنك لا تكاد تجد أي رباط فكري أو نظري يربط بين هذه المعاجم، بشكل يجعلها متوافقة كل التوافق، لأن الهدف من وضعها يدلّ على عدم تشاركتها في خصائص ذاتية تؤهلها لتكون في مدرسة واحدة.

¹ - ينظر: المعجم العربي بين المدارس النظرية والنظريات، الجليلي حلام، ص 111.

² - ينظر: التصنيف النوعي للمعاجم العربية التراثية، عليّ القاسمي، ص 239.

³ - ينظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م، ج1، ص 279، 280.

وذهب الجليلي حلام بعيداً، حين زعم أن التقسيم المدرسي القائم على طريقة ترتيب المداخل المعجمية ليس في وسعه أن يقدم للمعجمية العربية خدمة، سواء من حيث التأسيس النظري، أو من حيث البناء التطبيقي، والسبب في رأيه أنه يفتقر إلى تفسير التأسيس النظري من زاويتين:

- إغفال نظرة المعجمي إلى اللغة، وإلى أهم عناصر المعجم كالجمع ومستويات الرصيد اللغوي، والتعريف والدلالة، والشواهد المقيدة، وصلة المعجم بالنظام اللساني عامة.

- عدم تأكيد الهدف من تأليف المعجم، والعلاقة الموضوعية الموجودة بين الجمع والترتيب، كالنظرية الصوتية عند الخليل، أو نظرية صحيح اللغة عند ابن دريد والجوهري، والتأصيل عند ابن فارس، ومثل هذه الأبعاد النظرية والتطبيقية في المعجمية تجعل التقسيم السابق لا يكاد يرقى إلى المفهوم الحقيقي للمدرسة، ناهيك عن النظرية المعجمية المتكاملة.¹

فَلَأَنْ يجعلَ حسينَ نصّارَ معجم "تهذيب اللغة" للأزهري في مدرسة العين، فذاك تقسيم يعث على الحيرة، لعدم تبين الأسس النظرية بل وحتى التطبيقية التي قد تجمع بينهما، فنظرة الخليل إلى المادة اللغوية نظرة استقصائية وإحصائية، بينما نجد نظرة الأزهري توقيفية، بمعنى أنها تعتمد على نقل ما صحّ من كلام العرب، والحديث نفسه يقال عن جعله المعجم الوسيط ومعجم أساس البلاغة لأبي القاسم الزمخشري في مدرسة واحدة، فشتان بين الأول الذي يرمي إلى جمع مفردات اللغة عامة، بإثبات ما وضعه المولدون والمحدثون وإهمال ما هجره الاستعمال بشهادة واضعيه²، وبين الثاني الذي تغيّ صاحبُه اختيار العبارات البلاغية وإفراد الحقيقة عن المجاز³، والأمثلة على ذلك كثيرة عند حسين نصار وعند غيره، سبق لنا الإشارة إليها من قريب، وهذا الذي جعل بعض

¹ - ينظر: المعجم العربي بين المدارس النظرية والنظريات، الجليلي حلام، ص 111.

² - ينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص 26.

³ - ينظر: أساس البلاغة، الزمخشري، ص 16.

الدارسين يدعون صراحة إلى إعادة تشكيل المعاجم العربية تشكيلا جديدا يستند إلى معطيات علم اللسان الحديث، ويعتمد التأسيس النظري لعناصر المعجم مطلبا ضروريا.

وأما أن يفرد بعضهم معجم **الجمهرة** لابن دريد بمدرسة مستقلة فهو اختيار لا اعتبار له، وذلك لعدم تميزه بخاصية غير موجودة في المدارس المعجمية الأخرى، فحاصل ما قام به صاحبه أنه جمع بين خاصيتين من مدرستين مختلفتين هما مدرسة **التقاليب** ومدرسة الترتيب الألفبائي، كما أنه لم يتابعه في توجهه هذا أحد، لذا خطأ أحمد عطار من أفرد بمدرسة مستقلة، وذهب إلى إدراجه ضمن مدرسة الخليل لأنه يشاركه في كثير من خصائص منهجه¹، وكذلك فعل حسين نصار حين نصّ على موافقة "الجمهرة" لمعجم الخليل في غير الترتيب الألفبائي².

وإذا كان اعتماد ترتيب المداخل اللغوية كميّار لتقسيم المعاجم العربية إلى مدارس غير كاف لوحده؛ بحكم أنّ "كل معجم لا بدّ أن تجتمع فيه ثلاثة عناصر رئيسة هي: المدوّنة، والترتيب، والتعريف"³، فإنّه -وبعد مرحلة التأسيس للمعجمية العربية بداية من ظهور معجم العين للخليل حتى قبيل نهاية القرن الرابع الهجري- قد ظهرت مجموعة من المعايير والنظريات المعجمية المكتملة، التي يمكننا أن نميز من خلالها بين أهم المعاجم العربية عبر مسارها التطوري، لعل أبرزها⁴:

1- النظرية الصوتية: وهي نظرية شمولية تقوم على رصد ما يمكن تشكيله من ألفاظ وكلمات في حدود الحروف الهجائية العربية رياضيا، ثم تمييز المستعمل من المهمل، والفصيح من الدخيل عن طريق الصوت قبل السّماع أو الرواية في الغالب، ورائد هذه النظرية المعجمية - كما هو معلوم- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كما أن مكنة الخليل واقتداره في موسيقى الشعر والعروض أهلاه ليميز

¹ - ينظر: مقدمة الصحاح، أحمد عطار عبد الغفور، ص 78، 79.

² - ينظر: المعجم العربي، نشأته وتطوره، حسين نصار، ص 404، 405.

³ - ينظر: القاموسية العربية الحديثة، عبد العلي الودغيري، ص 41.

⁴ - ينظر: المعجم العربي بين المدارس والنظريات، الجليلي حلام، ص 112 وما بعدها.

بين ما يمكن أن يأتلف من الحروف الهجائية وما لا يأتلف منها في ألفاظ أو كلمات، مستعينا بحسه الرياضياتي المكين في إنشاء نظام التقلبات محاصرة كل الاحتمالات اللفظية؛ مُستعملها ومُهمَلها، فصيحها ودخيلها.

2- نظرية جمهرة اللغة: وهي نظرية تقوم على أساس إثبات الشائع من اللغة، وهو ما يعرف في اللسانيات الحديثة بالآني المستقر أو السنكروني (Synchronic)، مع إبعاد المهجور والحوشي والمستنكر والغريب، وظهرت هذه النظرية على يد اللغوي الكبير أبي بكر محمد بن دريد في كتابه: "جمهرة اللغة"، يقول في مقدمة هذا الكتاب: "وإنما أعرناه هذا الاسم لأننا اخترنا له الجمهور من كلام العرب، وأرجأنا الوحشي والمستنكر"¹.

وباستقراء منهج ابن دريد في "الجمهرة" من حيث الجمع والوضع يتبدى لنا أنه يقوم على مبدأين اثنين هما:

- تسجيل الرصيد اللغوي الشائع خلافاً للخليل الذي حاول أن يسجل كل ما تكلمت به العرب.
- اعتماده للترتيب الأببائي خلافاً للخليل الذي ارتضى الترتيب الصوتي المخرجي.

3- نظرية صحاح اللغة: وهي نظرية معجمية تقوم فكرتها على أساس أن اللسان العربي قد اكتمل في نموه وتطوره²، فيجب الالتزام بالصحيح من ألفاظه، وإغلاق باب الوضع والتوليد والاجتهاد، وبذلك رسموا حدود الاحتجاج الزمانية والمكانية، فجعلوا "الحدود المكانية شبه جزيرة العرب، والحدود الزمانية آخر المائة الثانية للهجرة لعرب الأمصار، وآخر المائة الرابعة لعرب البوادي"³.

ويعد أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري من الأوائل الذين أسسوا لهذه النظرية في كتابه "تهذيب اللغة"، التي كان يهدف من خلالها إلى تصحيح اللغة من التصحيف والخطأ، وتنقيتها ممّا

¹ - جمهرة اللغة (المقدمة)، ابن دريد، ج1، ص4.

² - ينظر: رواية اللغة، عبد الحميد الشلقاني، دار المعارف مصر، 1971م، ص313.

³ - المعجم الوسيط (المقدمة)، مجمع اللغة العربية، ص11.

دخلها من الألفاظ غير الصحيحة، جاء في مقدمة كتابه ما نصه: "...فهذَّبْتُ ما جمعت في كتابي من الصحيح والخطأ بقدر علمي"¹، وقال أيضا: "ولم أودع كتابي هذا من كلام العرب إلا ما صحَّ لي سماعا منهم، أو رواية عن ثقة، أو حكاية عن خطِّ ذي ثقة ثابتة..."².

وإذا كانت بوادر هذه النظرية قد ظهرت على يد الأزهري، فإن دعائمها قد اكتملت على يد الجوهري في كتابه "تاج اللغة وصحاح العربية" في أواخر القرن الرابع هجري، حيث واصل مسيرة الأزهري في إثبات الصحيح من اللغة، يقول الجوهري في مقدمة كتابه: "فإني قد أودعت هذا الكتاب ما صحَّ عندي من هذه اللغة التي شرف الله منزلتها"³، ويبدو أن هذه النظرية حظيت بالقبول عند كثير من المعجميين العرب كالجوهري، والقالي، وابن فارس، وابن سيده، وابن منظور وغيرهم. ولكن التمسك بهذه النظرية والتعصب لها كان له الأثر السلبي في إهمال الكثير من ألفاظ المظاهر الحياتية، ومصطلحات العلوم كالطب والنبات والرياضيات والفلك والتاريخ والجغرافيا⁴.

4-نظرية التأصيل: وهي نظرية اشتقاقية تقوم فكرتها على أساس البحث في الأصول المعنوية للكلمات، وكنا قد تحدثنا في المدخل عن المعجم الاشتقاقي بفرعيه: المعجم التأيلي والمعجم التأصيلي، ورائد هذه النظرية هو أحمد بن فارس في معجمه "مقاييس اللغة"، وإن كان قد اكتفى بالجانب التأصيلي للمعاني المشتركة التي تدور حول مشتقات الجذر الواحد على حساب الجانب التأيلي، الذي يعني برد الكلمات غير العربية إلى أصولها الأجنبية إلا ما ندر، ومن غير قصد⁵.

¹ - تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، ج1، ص54.

² - المصدر نفسه، ج1، ص40.

³ - تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، ج1، ص16.

⁴ - اللسانيات واللغة العربية، عبد القدر الفاسي الفهري، دار توبقال، الدار البيضاء، 1985، ص18.

⁵ - ينظر: المعجم العربي بين المدارس النظرية والنظريات، الجيلالي حلام، ص125، 126.

وهذه النظريات المعجمية المكتملة - وإن كنا لا نعدم غيرها - كفيلة بأن تصلح معايير لتصنيف المعاجم العربية قديمها وحديثها إلى مدارس ومجموعات تجمعها خصائص مشتركة، دونما تناقض أو تفاوت، إلا ما اقتضته الضرورة العلمية.

3.5. التقسيم المدرسي للمعاجم العربية؛ نقد وتقييم:

إن أول ما يعاب على الدراسات الحديثة حول المعجمية العربية القديمة سعي المشتغلين بحقل المعجمية جميعاً إلى "ضبط أصول المعجمية العربية، وتدقيق مناهجها، والتعريف بمدارسها بطريقة وضعية، دون أن يعالجوها معالجة لغوية اجتماعية"¹.

فرغم كل هذه الجهود وغيرها في تقسيم العمل المعجمي التراثي إلى مدارس معجمية، إلا أنّ هذه التقسيمات "لا تحقق المعايير التصنيفية الدقيقة والشاملة، فهي لا تستوعب جميع المعاجم اللغوية المهمة، فضلاً عن عدم قدرتها على التمييز بينها على نحو كاف"²، لأنها "تقوم على أساس شكلي لا يتجاوز النظر إلى ترتيب مداخل المعجم، ولا يستند إلى أية نظرية علمية، أو اتجاه فكري يتصل بنظرة المعجمي إلى اللغة من حيث الجمع أو التعريف أو الدلالة"³، فكل معجمي له خلفيات فكرية وتوجهات مذهبية ينطلق منها، وتشكل له بعداً نظرياً يكون له الأثر البارز في بناء معجمه من حيث الجمع والوضع ترتيباً وتعريفاً ودلالة.

فنظرة الخليل بن أحمد إلى اللغة، التي ترمي إلى محاصرة ما يمكن تأليفه من الحروف العربية من كلمات وألفاظ، لا تتفق مع نظرة الأزهري التي تعتمد على جمع ما صحّ سماعه عن العرب الفصحاء، كما أنّ منهج ابن دريد في **جمهرة اللغة** الداعي إلى جمع الشائع الذي سماه جمهور اللغة،

¹ - من قضايا المعجم العربي قديماً وحديثاً، رشاد الحمزاوي، ص 44.

² - دراسات في المعاجم العربية، محمد جواد النوري وعلي خليل حمد، ص 49.

³ - المعجم العربي بين المدرسية والنظرية، الجيلالي حلام، ص 107، 108.

والوقوف عنده دون غيره، لا يتفق مع منهج ابن فارس في "مقاييس اللغة"، الذي يرمي إلى تطبيق نظرية التأصيل وتبني المعجم الاشتقاقي.

والملاحظة نفسها تقال حين نتحدث عن أساس البلاغة للزمخشري والمعجم الوسيط عند من جعلهما في مدرسة واحدة، فإن الصلة النظرية التي تجمع بينهما تكاد تكون منعدمة، بحكم أنّ الأول معجم دلالي، يقوم على رصد المجاز اللغوي، ولا يهدف إلى جمع مفردات اللغة عامة، في حين يسعى المعجم الوسيط إلى جمع الرصيد اللغوي الوظيفي عامة، وإهمال ما هجره الاستعمال¹.

ومن الملاحظات التي تم رصدها ونحن نتبع هذا التقسيمات المختلفة:

- أنّ أسماء المعاجم المجنسة أسماء تحمل دلالات معينة، عدا معجم "العين"، حيث يدل بعضها على الإحاطة والشمول مثل "العباب" و"لسان العرب" و"القاموس المحيط"، ويدل بعضها الآخر على نوعية المادة اللغوية التي يحتوي عليها المعجم مثل تهذيب اللغة والجمهرة الذي اختار صاحبه الجمهور من كلام العرب وألغى الوحشي المستنكر، والصحاح الذي أودع فيه صاحبه ما صحّ عنده من اللغة، ويدل بعضها الآخر، إلى جانب الشمول، على الدقة والإحكام مثل المحكم والمقاييس، ويؤكد هذا أن أصحاب هذه المعاجم لم يكونوا يستهدفون بتصنيفهم لتلك المعاجم التراثية فكرة الاستعمال اللغوي، بل كان هدفهم الأسمى هو جمع اللغة والمحافظة عليها².

- إهمال أغلب الدارسين لمدرسة المعاجم المبوبة، إذ لم يلتفت إليها ممن قدّمنا منهم إلا أحمد عبد الغفور عطار حين أشار إلى مدرسة أبي عبيد القاسم بن سلام في مصنفه "الغريب المصنف"، والذي يمثل فعلاً مدرسة المعاجم المبوبة أو معاجم الموضوعات، ورمضان عبد التواب، وعليّ القاسمي الذي خصها بثلاث مدارس هي مدرسة الترتيب المبوب ومدرسة الترتيب الموضوعي ومدرسة الترتيب

¹ - المعجم العربي بين المدارس النظرية والنظرية، الجيلالي حلام، ص 108.

² - ينظر: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، ص 123.

الدلالي والشرقاوي إقبال الذي خصص لها عدة تصنيفات أهمها: معاجم الموضوعات، معاجم المعاني، معاجم اللغات...

- اختلاف أغلب الدارسين في عدد المدارس المعجمية المجنسة اختلافا ظاهرا، حيث قسّمها أحمد عبد الغفور عطار وأحمد عمر مختار ورمضان عبد التواب وصلاح راوي إلى ثلاث مدارس، وقسّمها حسين نصار وعبد السميع أحمد إلى أربع مدارس، وقسمها عليّ القاسمي إلى سبع مدارس، وإقبال الشرقاوي إلى ثماني مدارس.

- اختلافهم في عدد ونوع المعاجم التي نسبوها إلى كل مدرسة على حدة، فبينما يكتفي أحمد عبد الغفور عطار بإيراد أربعة معاجم في مدرسة الترتيب المخرجي وهي "العين" و"الجمهرة" و"المحيط" و"التهذيب"، يورد حسين نصار خمسة معاجم في المدرسة نفسها، وهي "العين" و"البارع" و"التهذيب" و"المحيط" و"المحكم"، مختلفا عن سابقه، فالأول أدرج كتاب الجمهرة في مدرسة الترتيب المخرجي، في حين، أدرجه الثاني في مدرسة الترتيب الألفبائي على أول الكلمة، وهكذا مع بقية الاختيارات التي وقّع عليها الدارسون.

- اختلافهم في تسمية المدرسة، فهذا يسميها باسم رائدها الأول، وذلك يسميها باسم المعجم الإمام فيها، والآخر يسميها بحسب ترتيب مداخلها.

- خصّ بعض الدارسين مدرسة كاملة بمعجم واحد، كما فعل عبد السميع أحمد وأحمد مختار عمر حين أفرد كل منهما **جمهرة اللغة** لابن دريد بمدرسة معجمية مستقلة. فسمى الأول المدرسة باسم المعجم نفسه، وجعله الثاني صورة من صور مدرسة الترتيب الألفبائي.

- تدل هذه التقسيمات المختلفة والمتعددة على ثراء اللغة العربية وقدرتها على تحمّل الكثير من المفاهيم والقيم والمبتكرات، "فإن المعجم العربي قد حفظ حضارة الإسلام بكل ما فيها من ماديات ومعنويات جملة وتفصيلا، من غير فوت ولا نقصان"¹.

¹ - معجم المعاجم، الشرقاوي إقبال، ص: أ.

6. مآخذ على المعاجم العربية¹:

- رغم الجهود العظيمة التي بذلها المعجميون القدامى جمعاً ووضعاً، إلا أن عملهم هذا لم يسلم من بعض الهنات والمآخذ، لعل أبرزها:
- إهمال الترتيب الداخلي: فتجد الخلط بين الأسماء والأفعال والثلاثي والرباعي، والمجرد بالمزيد، وخاط المشتقات ببعضها...
 - الخروج على المنهج المرسوم الذي اختطه المؤلف لنفسه، فلا تكاد تجد أحداً من المعجميين التزم بالمنهج الذي أخذ على نفسه التقيد به والعمل بتمفصلاته.
 - الوقوع في بعض الأخطاء عند شرح المادة اللغوية، ويتجلى ذلك في غموض العبارة، أو عدم الدقة في التعبير، وقد ألفت كتبٌ كثيرة - قديماً وحديثاً - في التنبيه على هذه الأخطاء.
 - إهمال ضبط الكلمة بالشكل أو بالحروف، وعدم تبيين حركة عين الفعل في المضارع.
 - تقليد اللاحق للسابق، سواء من حيث جمع المادة، أو من حيث ترتيبها.
 - تجاوز وظيفة المعجم، وعدم تمثلهم للغرض الدقيق منه، حيث خلطوا بين بين المعاجم والموسوعات ودوائر المعارف.
 - عدم تحرير السّماع من قيود الزمان والمكان (القرن الثاني بالنسبة لساكنة الحضر، والقرن الرابع بالنسبة لساكنة البدو، والاقتصار على لغات عدد محدود من القبائل العربية الفصيحة)، فأصبحت هذه المعاجم لا تعيننا على مسايرة التطور التاريخي للغتنا بشكل واضح، لأنها أغفلت ذكر الألفاظ المولدة أو المعاني المستحدثة إلا قليلاً، وهي بذلك تقطع سلسلة التطور من معاني الألفاظ قطعاً اعتبارياً، وكأن أصحاب المعاجم اعتبروا اللغة العربية لغةً أزلية ثابتة لا تتغير.

¹ - ينظر: البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 295 وما بعدها،

وينظر: فصول في فقه العربية رمضان عبد التواب، ص 286.

- القصور، إذ يمكن القول: إنه ليس فيها إلى اليوم ما هو جامع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولعلنا نعذرهم لقلّة المصادر وحادثة العهد بهذا النوع من التأليف، ولأنهم لم يستقصوا الألفاظ الواردة في الرسائل اللغوية الصغيرة ودواوين الشعر، وقد اعترف بعض أصحاب المعاجم القديمة بذلك، فذكروا مصادرهم، ولم تكن شاملة.
- التصحيف؛ ويؤخذ هذا العيب على المعاجم جميعاً، فالكتابة العربية لا تبين نطق الحروف التي ترسمها، وتحتاج إلى إشارات مضافة لإبانة ذلك، وقد تقع الإشارات المضافة في موقعها غير الصحيح بسبب إهمال الكاتب أو تعبه فتسبب خطأ.
- اقتصار الجهود على الأفراد دون الجماعات.

ورغم أننا كثيراً ما نصادف في الدراسات الحديثة عبارة: (عيوب معاجمنا القديمة)، ورغم أننا لا ننكرها، ولكنها تبدو الآن عيوباً بعد مضي اثني عشر قرناً على تأليفها، فهذه سنة التطور، ولا يمكن أن نحاسب، أو ننقد أعمالاً أنجزت في زمن مضى بمقاييس اليوم، لأنّ في ذلك ظلماً لها ولمؤلفيها. وكذلك فإن هذه المعاجم في تنوعها وغزارة مادتها قد حفظت لنا لغتنا وأدبنا وحضارتنا ومعارفنا في تلك الحقب المتتالية.

وإذا كان العمل المعجمي التراثي لم يخلُ من العيوب والمآخذ، فإن المعاجم الحديثة هي كذلك وقعت فيما يعيبها، وينأى بها عن أصول وأبجديات المعجمية الحديثة، وهذه بعض العيوب التي لم تستطع المعاجم الحديثة تجاوزهها، والتخلص منها:

- لم يلتزم مؤلفوها بما اختطّوا لأنفسهم من مناهج ليسلكوها في أبحاثهم أو قواعد ليعتمدوها في بناء مؤلفاتهم، شأنهم في ذلك شأن القدامى، وهي كثيرة في معاجمنا العربية الحديثة، فتجد مثلاً **المعجم الوسيط** الذي أصدره مجمع اللغة العربية، جاءت في مقدمته عدة نقاط ألزمت اللجنة المشرفة على إنجازها نفسها باتباعها، لكن الواقع أثبت أن الالتزام بها كان ضعيفاً في نواحٍ كثيرة، نكتفي بذكر واحدة منها فقط، جاء في مقدمة المعجم الوسيط:

"أهملت اللجنة كثيرا من الألفاظ الحوشية الجافية، أو التي هجرها الاستعمال لعدم الحاجة إليها، أو قلة الفائدة منها، كبعض أسماء الإبل وصفاتها..."، ولكننا لو لأنعمنا النظر في بعض الأمثلة لوجدنا ما يخالف ما خطته اللجنة العلمية لنفسها في مقدمة المعجم، ففي مادة (ه ل ع) أوردت اللجنة كلمة (هلواع): يقال ناقة هلواع أي سريعة، وشديدة. وجاء في مادة (ه ص م) كلمة: (المهصم) بمعنى الأسد، و(الهصاهص): القوي من الناس أو الأسود. وغير ذلك مما ورد في المتن على خلاف ما في المقدمة.¹

● اعتماد أصحابها على المعاجم القديمة دون اللجوء إلى مقياس علمي، معتمدين على علمهم الغزير ومعرفتهم العميقة للغة العربية، فهم لا يرجعون في الغالب إلى الاستعمال الموضوعي للغة العربية.

● عدم لجوئهم إلى تدوين واسع لما يستعمل بالفعل الآن باللغة الفصحى.

● لا يتعرضون إلى المولد من الألفاظ (اللغة المعاصرة) إلا قليلا.

ورغم كل هذه العيوب، إلا أن المتمعن في المعاجم الحديثة، يتبدى له أنها تحتوي على كثير من ملامح التجديد من جميع الجوانب، كالترتيب، وإدخال اللفظ المولد، أو الأعجمي الشائع مما يدل على المسميات الحديثة في الحياة العامة، والمصطلحات العلمية، وكذا تقنية التعريف بالمفردة وما يصاحبه من الأمثلة والصور التوضيحية، كما توجه بعض هذه المعاجم إلى العناية باللغة التي يجب أن تُعَلَّم للطفل في الزمن الحاضر، فظهرت المعاجم المدرسية والطلايبية، نحو "منجد الطلاب" و"المعجم المدرسي السوري" و"الوجيز" وغيرها من المعاجم العصرية.

¹ - ينظر: المعجم العربي بين الماضي والحاضر، عدنان الخطيب، ص 65.

الفصل الثالث

**ابن الأثير الجزري وكتابه "النهاية في غريب
الحديث والأثر"**

المبحث الأول: ترجمة ابن الأثير الجزري (ت606هـ).

المبحث الثاني: بين يدي كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر"
لابن الأثير الجزري.

قبل الحديث عن حياة مجد الدين بن الأثير الجزري، لا بأس أن نوظئ لذلك بلمحةٍ عن عصره، والوسط الذي نشأ فيه، وكيف تأثر بهذا الوسط وأثر فيه في حياته الفكرية والعلمية.

المبحث الأول: ترجمة ابن الأثير الجزري (ت606هـ)

1. عصر ابن الأثير الجزري¹:

1.1. الحياة السياسية:

عاش ابن الأثير إبان الخلافة العباسية، في زمنٍ عانى فيه الخلفاء العباسيون من استبداد السلاجقة* بالحكم، حيث كانت بداية حكمهم لبغداد سنة 447هـ، وما لبثوا أن دبّ فيهم الخلاف والصراع على السلطة، فضعفوا واستكانوا، وصاروا عرضةً لتهديدات الصليبيين من جهة، والمغول من جهة أخرى، ولبثوا كذلك حتى قامت في إثرهم دولة الأتابكة** بأرض الموصل، فحفظت للمسلمين شوكتهم، وللإسلام هيئته، وكان لمجد الدين بن الأثير ولأبيه أثير الدين قبله حظٌّ في سياستها وإدارة أعمالها.

وكان من شأن الأتابكة، أن وحدوا صفوف المسلمين، وقارعوا الصليبيين وقاتلوهم، حتى طغى اسم الأتابكة على الخلافة في بغداد، وعلا اسمها، وكان مؤسس هذه الدولة عماد الدين زنكي التركي، الذي عينه السلطان السلجوقي محمود. وبعد أن تسلّم حكم الموصل، عمل على توسيع رقعة البلاد التابعة له، ووضع الحجر الأساس لدولة قوية موحدة، خاضت حروباً شرسة ضد الصليبيين، حتى أضحت الخطر الداهم عليهم، فخطط الصليبيون لقتل عماد الدين، فقيضوا له

¹ - اعتمدنا في تحرير هذه اللوحة التاريخية على: البداية والنهاية لابن كثير: ج59/12. والكامل في التاريخ لعز الدين ابن الأثير: ج350/10، وشذرات الذهب لابن عماد الحنبلي: ج42/7. ومن المراجع: التأويل في غريب الحديث، لعلي السحيباني، ص17 وما بعدها، وابن الأثير ومنهجه في النهاية لأميمة بدر الدين، ص13 وما بعدها.

* دولة السلاجقة (429هـ-552هـ): سلالة تركية أسسوا واحدة من أكبر الدول في تاريخ الإسلام على عهد بني العباس وسط آسيا، توسعوا حتى دخلوا بغداد عام (447هـ).

** الأتابكة: سميت بذلك نسبة إلى الأتابك عماد الدين مؤسس الدولة، وهو لقب تركي.

بعض الخونة من الباطنية^{***} فقتلوه غيلة وهو يحاصر قلعة جعبر سنة 541هـ، وكان قتله فاجعة كبيرة كادت تودي بأركان الدولة، لولا فضل¹ من الله ثم تضافر جهود خلفائه الذين أعادوا للدولة قوتها وهيبتها، واستمروا في الوقوف في وجه الصليبيين، يقاتلونهم ويصدونهم عن البلاد الإسلامية.

ومن حسن حظ ابن الأثير أنه عاش في كنف دولة الأتابكة وتحت ظلها، فقد تولى الخزانة لسيف الدين الغازي، ثم ولاء ديوان الجزيرة وأعمالها، ثم أصبح نائبا لوزيره جلال الدين، وثم اتصل بمجاهد الدين قايمار بالموصل فنال عنده درجة رفيعة، ثم اتصل بخدمة عز الدين مسعود بن مودود إلى أن توفاه الله، فاتصل بخدمة ولده نور الدين أرسلان، فحظي عنده بمكانة كبيرة، والظاهر أن خلافة نور الدين زنكي كان لها الأثر البالغ في حياة مجد الدين بن الأثير، فقد كان من أكثر الناس ملازمة له كما حكى ذلك عنه أخوه عز الدين، فقد كان كثير الأخذ برأيه، حتى قال مجد الدين: "ما قلت له يوما في فعل خيرٍ ما فامتنع منه، بل بادر إليه بفرح واستبشار"، وبلغ الأمر بنور الدين أن استوزره لكن مجد الدين رفض ذلك، لانشغاله بالعلم وزهده في الرياسة.

وكان حظّ مجد الدين بن الأثير من الشهرة في ظلّ الأتابكة بما لا غاية فوقه، حتى غدا وحيد عصره وفريد زمانه، وشاوره الملوك وكتب لهم وحضر مجالسهم، فأفادهم بعلمه، وعقله ومشورته، يقول عنه ابن الشعار: "كان كاتبَ الإنشاء لصاحب دولة الموصل نور الدين أرسلان شاه بن مسعود ابن مودود، وكان حاسبا كاتباً ذكياً..."¹. وما زال كذلك إلى أن مرض مرضه الأخير، الذي أقعده في رباطه، فصرفه عن مصاحبة الملوك والرؤساء، فقصدوه في مهمات أنفسهم، وقصده الطلاب من كافة أنحاء البلاد، فكانت هذه الفترة أغنى مراحل حياته وأخصبها، وما زال على هذا إلى أن توفي، ففقد السلطان نور الدين زنكي بوفاته صديقا وفييا مخلصا، وعقلا مفكرا سديدا، فبكاه بكاء مرّا، وتوفي بعده بقليل.

^{***} الباطنية: اسم لطوائف من غلاة الشيعة الروافض، يظهرون الرفض ويطنون الكفر المحض، وسموا باطنية لأنهم يزعمون أن لنصوص الشريعة ظاهرا وباطنا. (ينظر: الملل والنحل لأبي لفتح الشهرستاني، ص 201).

¹ - سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحق: بشار عواد وهلال السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1996م، ص489.

2.1. الحياة الاجتماعية:

يبدو أن استقلال الأتابكة بزمام الملك في الموصل كان فآل خير على أهل الموصل، فقد صبح ذلك ازدهاراً كبير في الحياة الاجتماعية، وعاشت الموصل أزهى أيامها في تلك الحقبة من الزمان، يقول السعيد الديوة جي: "إنّ أزهى أيام الموصل هي التي استقل بها الأتابكيون، واتخذوها قاعدة دولتهم، وكان حكمهم عصر استقرار وهدوء ورخاء وأمن بفضل ملوكهم الذين كانوا من أكثر الناس إقبالا على أهل العلم والفن، وهاجر إليها العلماء والأدباء، وأصحاب الصناعات، فكانت إحدى بلاد الإسلام كبرا وعظما، وسعة رقعة وكثرة خلق، فتوسعت عمارتها وضافت بسكانها، فخرجوا إلى الأرباض المحيطة بها وعمروها"¹، وصب ذلك كثرة المرافق، ورواج التجارة والصناعة، ونشطت بها حركة البناء والتعمير، وشجع ملوك الأتابكة اللغة العربية رغم أنهم كانوا أعاجم، ودانوا بالإسلام، فارتقى المجتمع رُقيًا عظيمًا.

ومما ينبغي الإشارة إليه؛ أنّ المجتمع الموصلّي آنذاك، كان يتكون من طبقتين اجتماعيتين: طبقة الأتابك والنواب والوزراء والحجاب والقضاة وقادة الجيش، وطبقة العامة، ولمّا كان من شأن هؤلاء القادة من الطبقة الأولى سياسة الناس بالعدل والرشاد؛ أحبّهم الناس وتعلقوا بهم والتفوا حولهم، فتوطّدت أركان حكمهم، حتى لقد جاء في كتب بعض من ترجم لتلك الحقبة أنّ الأتابكة أقاموا دارا للعدل، يجلس فيها الملك ومعه نفر من الفقهاء، فيقضى بين الناس بالقسط، كما كان لانتشار بعض الطرق الصوفية بعض الأثر في تهذيب أخلاق الشبان، وتوجيه سلوكهم.

كما نُقل عنهم أيضا انتشار كثير من المظاهر الاجتماعية، كالاحتفالات العامة التي كانت تقام بمناسبة عيدي الفطر والأضحى، وكثيرا ما كان الملوك يشاركون عامة الناس في هذه الاحتفالات، ويحضرون إلى تلك المجالس التي كانت تقام في المدينة، ويستمعون مع بقية الناس إلى ما يلقي على مسامعهم من سيرة المصطفى عليه السلام، كما كانوا يحتفلون بعودة الحجيج من البقاع المقدسة،

¹ - أعلام الصناعات الموصلية، السعيد الديوة جي، مطبعة الجمهور، الموصل، 1970م، ص26.

ولم يقفوا عند ذلك، بل كانوا يقيمون المهرجانات المختلفة من فروسية، وألعاب ساخرة، وانتشرت لعبة كرة القدم، وكان الملوك والأمراء يلعبون الكرة مع أفراد الجيش حتى يدفعوا عنهم الكسل والملل، فساهم هذا كله في توطيد أركان الدولة، وتلاحم شعبها مع حكامه.

1.3. الحياة الثقافية:

استعادت الموصل نشاطها العلمي في عهد الأتابكة، وراجت سوق الفكر والأدب في المساجد، وعمرت البلاد بالمدارس، وأصبح التعليم مجانياً، في ظل الأمن والرخاء اللذين عمّا البلاد، وغصت المساجد ودور العلم بجلق الذكر والتدريس، وكان وراء انتشار العلم واشتغال العامة به حبُّ الملوك والأمراء للعلم، وتشجيعهم له ولأهله، حيث كانوا يغدقون على العلماء بالهبات الوافرة، ويقدمون للطلاب التسهيلات الكثيرة، حتى أضحى الموصل من أشهر مراكز العلم والحضارة في ذاك الزمان، وصارت قبلة للعلماء والمحدثين والأدباء والشعراء، وأصحاب الفنون.

ومن حسن صنيع ملوك الموصل وأمرائها التنافس في إنشاء المدارس والكتاتيب والرباطات*، حتى إنك لا تكاد تجد ملكاً من ملوك الأتابكة إلا وقد أسس معهداً أو مدرسة علمية، وكان من أشهر تلك المدارس: المدرسة الأتابكية، ومدرسة الجامع النوري، والمدرسة العزية، والمدرسة النورية، والمدرسة القاهرية. ومع هذه النهضة العلمية اشتهرت في الموصل أسرٌ علمية بكامل أفرادها، ونبغت في مختلف العلوم، منها أسرة الأثير وأسرة أبناء يونس بن منعة، وأسرة أبناء هبل، وأبناء راجو، وأبناء النقيب، وغيرها من الأسر العلمية.

ولم يكن أبناء الأثير بعيدين عن هذه الحركة العلمية، فقد بنى مجد الدين رباطاً في درب درّاج، اتخذها مدرسة يدرّس فيه طلابه، ووقف عليه أملاكه، كما بنى رباط قصر حرب الذي عمّر بالطلاب، فكانوا يعكفون عليه يدرسون ويحققون، وهم مكفولون في هذا الرباط، ينفق عليهم مجد الدين

* الرباطات: جمع رباط، وهو بناء يجتمع فيه من تفرغ للعبادة من الزهاد والصالحين استعداداً للجهاد، وهذا النوع من الأبنية هو زوايا لأداء الشعائر الدينية، فهي تجمع بين الصفتين الدينية والحربية، خاصة مع كثرة الحروب مع الصليبيين وغيرهم.

ويرعاهم بما وقفه عليه، وفي هذا المكان نفسه، ألف معظم كتبه، وفيه أيضا جمع أخوه أبو الحسن عز الدين بن الأثير كتابه "الكامل في التاريخ".

ويظهر مما تقدم حجم التطور العلمي والاجتماعي والثقافي الذي شهدته بلاد الموصل في عصر دولة الأتابكة، كما لاحظنا الدور البارز الذي أدته أسرة ابن الأثير من خلال مشاركتها في الحياة السياسية وبناء وتنشيط الحركة العلمية، وبعد هذه اللوحة التاريخية عن الحياة السياسية والثقافية عن بلاد الموصل، صار من الأليق التطرق إلى حياة مجد الدين بن الأثير، والوقوف عند أشهر مؤلفاته، وفي مقدمتها كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" موضوع بحثنا.

2. حياة ابن الأثير الجزري¹:

1.1. اسمه ونسبه ومولده:

هو المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ثم الموصلية الشافعي، كنيته أبو السعادات، ولقبه مجد الدين، ويعرف بابن الأثير. وأجمعوا على أنه ولد في أحد الربيعين سنة 544هـ بجزيرة ابن عمر، وهي جزيرة تقع على ضفاف دجلة، وفوق الموصل، بينهما مسيرة ثلاثة أيام.

2.2. نشأته وطلبه للعلم:

ابن الأثير الجزري اسم يكاد يعرفه كل من اتصل بالمكتبة العربية، محدثا أصوليا، ولغويا حصيفا، نشأ بالجزيرة، وفيها تلقى دروسه الأولى، ولما اشتد عوده انتقل إلى الموصل سنة 565هـ، مُقبلا على ألوان المعرفة يتشربها على مهل، ليخرجها بعد ذلك إلى الناس علما نافعا، وارفة ظلأه.

¹ - ينظر: وفيات الأعيان: 4/141، سير أعلام النبلاء: 21/488، بغية الوعاة: 2/284، إنباه الرواة: 3/257، كشف الظنون: 2/1989.

وهو ثالث ثلاثة إخوة من أبناء أثير الدين، اشتغلوا كلهم بالعلم: أما الأول، فهو مجد الدين أبو السعادات المبارك بن الأثير (ت606هـ)، صاحب كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر"، وهو أكبرهم سنًا، وأما الثاني، فهو الأديب اللغوي ضياء الدين بن الأثير (ت558هـ) الذي مال إلى البلاغة، وله كتاب "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر". وأما الثالث، فهو المؤرخ عز الدين بن الأثير (ت630هـ)، اشتغل بالتاريخ والأنساب، وله كتاب "الكامل في التاريخ"، وكتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة".

ومن لطيف ما قيل في هؤلاء الفرسان الثلاثة¹:

وبنو الأثير ثلاثةٌ قد حاز كلُّ مفتخرٍ
فمؤرخٌ جمع العلو مَ وآخرٌ ولي الوزر
ومحدثٌ كتب الحدي ث له النهاية في الأثر

وكان مجد الدين أبو السعادات عالماً فاضلاً مثل إخوته، جمع بين علوم العربية والقرآن والفقه والحديث، تلقى العلوم على كبار علماء عصره، وكان نبوغه في العلم سبباً في جلب أنظار الحكام إليه، فقرّبوه منهم، رغبة في الاستفادة من علمه، تولى ديوان الإنشاء في الموصل، ثم أقعده المرض، فتفرغ للعلم، ولزم بيته يتردد عليه العلماء ورجال الدولة، وفي ذلك يقول ياقوت: «حدثني أخوه أبو الحسن قال: تولى أخي أبو السعادات الخزانة لسيف الدين الغازي بن مودود بن زنكي، ثم ولاه ديوان الجزيرة وأعمالها، ثم عاد إلى الموصل فتاب في الديوان عن الوزير جلال الدين أبي الحسن علي بن جمال الدين محمد بن منصور الأصبهاني، ثم اتصل بمجاهد الدين قايماز وكان نائب المملكة بالموصل، فنال عنده درجة رفيعة، فلما قبض عليّ مجاهد الدين سنة 589هـ، اتصل بخدمة الأتابك عز الدين مسعود بن مودود ووليّ ديوان الإنشاء له، إلى أن توفي عز الدين فاتصل بخدمة ولده نور الدين

¹ - تاج العروس، الزبيدي، مادة (أثر)، ج10، ص24.

أرسلان شاه، فصار واحد دولته حقيقة، بحيث إن السلطان كان يقصد منزله في مهام نفسه، لأنه أقعد في آخر زمانه، فكانت الحركة تصعب عليه، فكان يجيئه بنفسه أو يرسل إليه بدر الدين لؤلؤ الذي هو اليوم أمير الموصل¹.

وكان أبو السعادات ذا خلق ودين متين، فلم تبهره أضواء الحكم، ولم تننه عمّا أخذ به نفسه من الدرس والتحصيل، فقد عرض عليه نور الدين الوزارة غير مرّة فرفضها، وهي منصب خطير تعشو إليه الأنظار، وتعنو له الوجوه. قال ياقوت: "حدثني أخو المذكور قال: حدثني أخي أبو السعادات قال: لقد ألزمني نور الدين بالوزارة غير مرة وأنا أستعفيه، حتى غضب مني وأمر بالتوكيل بي. قال فجعلت أبكي، فبلغه ذلك فجاءني وأنا على تلك الحال، فقال لي: أبلغ الأمر إلى هذا؟! ما علمت أنّ رجلا ممن خلق الله يكره ما كرهت! فقلت: أنا يا مولانا رجل كبير، وقد خدمت العلم عمري، واشتهر ذلك عني في البلاد بأسرها، وأعلم أنني لو اجتهدت في إقامة العدل بغاية جهدي ما قدرت أؤدي حقّه، ولو ظلم أكار في ضيعة من أقصى أعمال السلطان لنسب ظلمه إليّ، ورجعت أنت وغيرك باللائمة عليّ، والمملك لا يستقيم إلا بالتسمّح في العسف، وأخذ هذا الحق بشدة، وأنا لا أقدر على ذلك، فأعفاه، وجاءنا إلى دارنا فخبّرنا بالحال، فأما والده وأخوه فلاماه على الامتناع، فلم يؤثر اللوم عنده أسفا².

واستمرت حاله هذه وهو مُعرض عن الدنيا، مُقبل على العلم، راغب في المعرفة، مستكثر من الخير، حتى أصابه مرض النقرس، فشلّ حركة يديه ورجليه، فقابل هذه المحنة بقلب راض ونفس مطمئنة، بل جعل من المحنة منحةً، حيث ساعده ذلك على اعتزال الناس، والتفرغ للدرس والتصنيف، وكان قد صنف معظم كتبه في فترة مرضه، قال ابن خلكان: "وبلغني أنه صنّف هذه الكتب في مدّة العطلة، فإنّه تفرغ لها، وكان عنده جماعة يعينونه عليها في الاختيار والكتابة"³.

1- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج5، ص2268.

2- المصدر نفسه، ص2269.

3- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ص142.

وهكذا لزم الرجل بيته صابراً محتسباً، يغشاه الأكابر ويحفد إليه العلماء، يقبسون من علمه وينهلون من فيضه، وكان رحمه الله قد أنشأ رباطاً بقرية من قرى الموصل تسمى (قصر حرب)، ووقف أملاكه عليه، وعلى داره التي كان يسكنها بالموصل.

3.2. شيوخه وتلامذته:

أخذ مجد الدين العلم عن طائفة من العلماء والشيخوخ، فقرأ النحو والأدب على أبي محمد ناصح الدين سعيد بن المبارك بن علي بن الدهان البغدادي النحوي، المتوفى عام 569هـ، وأبي الحرم مكي بن ريان بن شبة بن صالح الماكيسيني النحوي الضرير، نزيل الموصل، المتوفى عام 603هـ، وأخذ النحو وسمع الحديث من يحيى بن سعدون الأزدي القرطبي النحوي اللغوي المقرئ الأديب المتوفى عام 567هـ، وسمع الحديث من جماعة بالموصل منهم: أبو الفضل عبد الله بن أحمد بن محمد الطوسي؛ خطيب الموصل المتوفى عام 578هـ. وسمع من أبي الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب ابن سعد الحراني ثم البغدادي الحنبلي، المتوفى عام 596هـ، وعبد الوهاب بن سكينه الصوفي الشافعي، المتوفى عام 607هـ.

ومن روى عنه من تلامذته: ولده، والشهاب القوصي وذكره بعضهم بالطوسي، والإمام تاج الدين عبد المحسن بن محمد بن محمد بن الحامض، والإمام القفطي المتوفى عام 646هـ، قال: "ورويث عنه-رحمه الله-... وكتب إليّ الإجازة بجميع مصنفاة ومسموعاته ومروياته"¹. وكان آخر من روى عنه بالإجازة فخر الدين بن البخاري.²

¹-إنباه الرواة، القفطي، ج3، ص258.

²- ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج21، ص490.

4.2. عقيدته ومذهبه الفقهي:

إذا رُمنا الحديث عن عقيدة ابن الأثير؛ فإننا ألفينا أنه لم يُفرد كتابا بعينه في العقيدة يفصح فيه عن معتقده، لكن ما يعتقده الإنسان لا شك أنه سيظهر عند أول حديث له عن أي مبحث من مباحث العقيدة، خاصة إذا كان من العلماء المصنّفين، وهذا ما حصل مع ابن الأثير حين عرض لبعض جوانب العقيدة في بعض مصنفاته، ككتاب "النهاية" مثلا، فتراه يوافق أهل الكلام في تأويل بعض الأسماء والصفات، وفي تعريفه لمعنى التوحيد، في حين تراه يرد بعض الاعتقادات الفاسدة مثل الحلف بغير الله، والاستسقاء بالأنواء، واعتقاد التأثير في النجوم، وما يعتقده أهل الجاهلية في الطيرة، والعدوى، والنشرة، والتمائم وغيرها.

أمّا فيما يتعلق بمسألة الإيمان، فنجده يعتقد أن الأحاديث التي ورد فيها نفي الإيمان إنما هو نفي كمال الإيمان، لا نفي أصل الإيمان، أما مرتكب الكبيرة فكُفّر ككفر دون كفر غير مخرج من الملة، وهو بهذا قد وافق منهج أهل السنة والجماعة، كما وافق قوله قول أهل السنة في مسألة القدر حين ردّ على القدرية¹، وبين أنّ الله خالق كل شيء. هذا إضافة إلى مسائل عقديّة أخرى ماثورة في كتاب "النهاية" وفي غيرها من الكتب التي صنّفها.²

وخلاصة القول: إنّ تلك التعليقات المختصرة لابن الأثير على بعض نصوص العقيدة لم تكن كافية للبتّ في حقيقة معتقده، أو نسبته إلى فرقة معينة، وإن كنا نجزم بموافقته لعلماء الكلام والأشاعرة في باب الأسماء والصفات، ولا شك أن لعقيدة ابن الأثير الأثر البارز في تأويل بعض

¹ - القدرية: فرقة تعتقد أن العبد يحدث فعله بنفسه، وتنكر علم الله بالأشياء قبل حدوثها، وهو قول المتقدمين منهم، بينما يثبت المتأخرون منهم العلم وينازعون في الخلق والمشية. ينظر: الملل والنحل، الشهرستاني (محمد بن أبي بكر)، تحق: محمد الوكيل، ط دار الفكر، بيروت، لبنان، ص43.

² - ينظر: التأويل في غريب الحديث من خلال كتاب النهاية لابن الأثير، عليّ السحيباني، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 2009، ص139.

الصفات التي وصف الله بها نفسه عزّ وجلّ، أو وصفه بها نبيُّه الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، والتي ورد ذكرها في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة.

أما عن مذهبه الفقهي، فإنّ من يطالع كتب ابن الأثير يجد أن الرجل ذو ثقافة فقهية واسعة، فقد خاض في مسائل كثيرة من أبواب الفقه كالزكاة والحدود، والبيع، وغيرها من المعاملات والعبادات، وقد حرص محقق كتاب "النهاية" محمود الطناحي على وضع فهرس للأعلام من الفقهاء، وعن طريق هذه الفهارس يمكن للمُراجع أن يطلّع على آراء العلماء الفقهية ومواطن اختلافهم واتفاقهم، وذهب المحقق الآخر لكتاب "النهاية" أحمد الخراط أبعد من ذلك، حيث وضع فهرسا لكل المسائل الفقهية المثبوتة في كتاب النهاية لتسهيل العودة إليها عند الحاجة.

ورغم أنّ ابن الأثير لم يصرّح بمذهبه الفقهي في أيّ من كتبه، إلّا أنّ هناك قرائن كثيرة تشير إلى اتباعه لمذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي، ومن تلك القرائن:

- أنّ معظم سكان الموصل كانوا على هذا المذهب، يقول سعيد الديوة جي -وهو مُوصليّ-: "وكان أهل الموصل يتبعون المذهبين الشافعي والحنفي في معاملاتهم، وأمور دينهم، ولكن المذهب الشافعي كان أكثر انتشارا من المذهب الحنفي..."¹.

- أنّ أسرة ابن الأثير كانت من أشهر الأسر الشافعية في إقليم الموصل، وهو ما أشار إليه سعيد الديوة جي بقوله: "ومن أشهر رجال المذهب الشافعي أبناء يونس بن مَنَعَة، وأبناء مهاجر، وأبناء الأثير، وبيت الشهرزوري، وخطيب الموصل، وغيرهم كثير"².

- أنّ مجد الدين تتلمذ لخطيب الموصل، وتلك قرينة أخرى تدل على أن ابن الأثير شافعي المذهب، هذا إضافة إلى إشارة كثير ممن ترجم له إلى كونه كذلك، ومن هؤلاء ياقوت الذي صرح بهذا قائلا:

¹ - الموصل في العهد الأتباكي، سعيد الديوة جي، مطبعة دمشق، بغداد، 1378هـ، ص76.

² - تاريخ الموصل، سعيد الديوة جي، مطبوعات الجمع العلمي العراقي، ج1، ص390.

"وكان مجد الدين شافعيًا"، وهو ما ذهب إليه ابن كثير (ت774هـ) في كتابه "البداية والنهاية"¹، وابن العماد الحنبلي في "شذرات الذهب"² وهما يترجمان لابن الأثير، ومن القرائن أيضا، أسلوبه في شرح مسند الإمام الشافعي، فتراه يقدم ما يراه الشافعي على الآراء الفقهية الأخرى في كثير من المواضع.

5.2. جهوده العلمية واللغوية:

مجد الدين بن الأثير رجل ذو مكانة علمية مرموقة، فقد كان عالما محبا للعلم شغوفًا به، صاحب العلماء ولازمهم وزاحمهم في مجالسهم، وبذل وسعه في تحصيل ما وُقِّق إليه من أنواعه، إلى أن تشبث من كلِّ علم بطرف، فدرس الفقه والأصول والنحو والحديث واللغة والتفسير والحساب، وغيرها من صنوف العلوم وفروعها، وتكلفت جهوده بتصانيف ومؤلفات كثيرة في علوم اللغة، تجاوزت تسعة عشرًا مؤلفًا، تم طبع بعضها ولا زال بعضها الآخر مخطوطًا.

ومما يلاحظ على مصنفاته أن أغلبها في النحو واللغة وغريب الحديث، فكتب في النحو زهاء ثلاثة كتب، هي "البدیع في علم العربية" الذي شرح فيه "فصول ابن الدهان"، وله كتاب "الباهر في الفروق"، وكتاب "الفروق والأبنية" كلها في النحو، و التي أبان فيها المصنف رحمه الله على علو كعبه في هذا العلم وتمكنه منه، وله كتاب في اللغة سماه "المرصع في الآباء والأمهات والأبناء والبنات والأذواء والذوات"، وهو "نمط طريف في التأليف المعجمي، يشتمل على مادة لغوية وأدبية تتصل بتاريخ العربية منذ أقدم عصورها"³، وهو معجم خاص من معاجم المعاني، تناول فيه ابن الأثير الكنى والألقاب التي صدرت بـ "أب" و "ابن" و "بنت" و "ذو" و "ذات".

¹ - البداية والنهاية، ابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1987م، ج13، ص59.

² - شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، ج7، ص42.

³ - المرصع في الآباء والأمهات والأبناء والبنات والأذواء والذوات (مقدمة المحقق)، مجد الدين بن الأثير، تحق: إبراهيم السامرائي، دار الجليل، بيروت، ط1، 1991م، ص5.

كما صنف كتباً جمعت بين غريب الحديث واللغة منها: "الشافى في شرح مسند الشافعى"، وعني فيه ابن الأثير بشرح ما ورد من غريب في الأحاديث التي جمعها الإمام الشافعى في مسنده، وكتاب "جامع الأصول في أحاديث الرسول" شرح فيه ما ورد من غرائب الأحاديث الواردة في الكتب الستة: صحيح البخارى وصحيح مسلم وموطأ الإمام مالك وسنن أبي داود وسنن الترمذى مرتبة مهذبة، وكتاب "منال الطالب في شرح طوال الغرائب"، الذي شرح فيه ابن الأثير غريب الأحاديث الطوال المأثورة عن النبي ﷺ، وعن الصحابة والتابعين، وآخر هذه الكتب "النهاية في غريب الحديث والأثر"، وهو أشهر كتب غريب الحديث وأفضلها. ولا بن الأثير كتب أخرى سنعرض لها في قابل.

6.2. أمانته العلمية:

لم يكن ابن الأثير مندفعاً ولا متهوراً في شرح الغريب وتفسيره من غير دليل، ولا كان "ممن" يطلق العنان لقلمه يسرح في ببداء مجهولة، لا يعرف أمدّه الذي يجري فيه، ولا مغبة ذلك عليه، بل كان يعقل قلمه بعقال التروي والتبصر، ويلجمه بلجام التحري والتحرز¹، فكان دقيقاً يتلمس البيّنة من مظانها الموثوقة، فإن وجدها وإلا توقف، أو أبدى تحفظه من الخوض في الشرح بغير بينة أو دليل، وأمثلة ذلك في كتابه كثيرة، وهذه بعضها:

* (مسح) في حديث ابن عباس «إذا كان الغلام يتيماً، فامسحوا رأسه من أعلاه إلى مقدّمه، وإذا كان له أبٌ فامسحوا من مقدّمه إلى قفاه». قال ابن الأثير: "قال أبو موسى: هكذا وجدته مكتوباً، ولا أعرف الحديث ولا معناه"² اهـ. وهنا نلاحظ كيف وقف ابن الأثير حيث وقف أبو موسى ولم يزد عليه.

¹ - النهاية (مقدمة المحقق)، تحق: رضوان مامو، ص 29.

² - النهاية: تحق: الخراط، 3934/8.

* (جشِب) في حديث صلاة الجماعة: «لو وجد عرقاً سمينا أو مرماتين جَشِبَتين لأجاب» قال ابن الأثير: هكذا ذكره بعض المتأخرين في حرف الجيم... وقد فسره أبو عبيد ومن بعده من العلماء ولم يتعرضوا إلى تفسير الجشِب والجشِب في هذا الحديث. وقد حكيتُ ما رأيتُ، والعهدة عليه".¹ ولعمري، هذه قَمّة الأمانة والتحرز عند هذا الرجل العالم الثبت.

* (بَسَأ) في أن النبي قال بعد وقعة بدر: «لو كان أبو طالب حياً لرأى سيوفنا بسئت بالمياثل» قال ابن الأثير: "بَسَأَت بفتح السين وكسرهما، أي: اعتادت واستأنست، والمياثل: الأماثل"². ثم قال: "هكذا فُسِّر، وكأنه المقلوب"³.

7.2. ثناء العلماء عليه:

كان مجد الدين عالماً فاضلاً وسيداً كاملاً، قد جمع بين علم العربية والقرآن، والنحو واللغة والحديث. قال عنه أخوه عزّ الدين أبو الحسن صاحب كتاب "الكامل في التاريخ": "كان عالماً في عدة علوم، منها الفقه والأصولان، والنحو والحديث واللغة، وله تصانيف مشهورة في التفسير والحديث والنحو والحساب وغريب الحديث، وله رسائل مدونة، وكان كاتباً مفلحاً يضرب به المثل، ذا دين متين، ولزوم طريق مستقيم -رحمه الله ورضي عنه- فلقد كان من محاسن الزمان، ولعلّ مَنْ يقف على ما ذكرته يتهمني في قولي، ومن عرفه من أهل عصرنا يعلم أنني مقصر"⁴.

وقال عنه ابن المستوفي في "تاريخ إربل": "أشهر العلماء ذكراً، وأكبر النبلاء قدراً، وأحد الأفاضل المشار إليهم، وفرد الأماثل المعتمد في الأمور عليهم"⁵. وقال عنه أبو شامة المقدسي:

¹ - النهاية، تحق، الخراط: 652/2.

² - المصدر نفسه: 303/1.

³ - المصدر نفسه.

⁴ - الكامل في التاريخ، عز الدين بن الأثير، تحق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط4، 2003م، ج10، ص350.

⁵ - وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج4، ص141.

"كاتب مصنف، صدر كبير، روى الحديث وانتفع به الناس، وكان عاقلا بهيا، ذا برٍّ وإحسان"¹. وقال عنه ابن خلكان: "كان فقيها محدثا أدبيا نحويا، عالما بصنعة الحساب والإنشاء، ورعا عاقلا مهيبا، ذا برٍّ وإحسان"². وقال عنه ياقوت الحموي: "كان عالما فاضلا وسيدا كاملا، قد جمع بين علم العربية والقرآن، والنحو واللغة والحديث"³.

وقال هو عن نفسه في مقدمة كتابه "جامع الأصول من أحاديث الرسول": "ما زلت منذ ريعان الشباب، وحدثان السن مشغوفا بطلب العلم ومجالسة أهله، والتشبه بهم حسب الإمكان، وذلك من فضل الله عليّ ولطفه بي أن حبه إليّ، فبدلتُ الوسع في تحقيق ما وفقْتُ له من أنواعه، حتى صارت فيّ قوة الاطلاع على خفاياه وإدراك خباياه، ولم أَلْ جهدا-والله الموفق-في إكمال الطلب وابتغاء الأرب، إلى أن تشبَّثتُ من كلٍّ بطرف، تشبهت فيه بأصراي، ولا أقول تميزت به على أتراي، والله الحمد على ما أنعم به من فضله، وأجزل به من طوله، وإليه المفزع في الإسعاد بالزلفى يوم المعاد، والأمن من الفزع الأكبر يوم التناد، وأن يوزعني شكر ما منحني من الهداية، وجنّبي من الغواية، وآتانيه من نعمة الفهم والدراية..."⁴.

ومجد الدين بن الأثير شاعر مُقلِّ كما هو شأن كثير من العلماء، قال ياقوت: "حدثني عزّ الدين أبو الحسن قال: حدثني أخي أبو السعادات رحمه الله قال: كنت أشتغل بعلم الأدب على الشيخ أبي محمد سعيد بن المبارك بن الدهان النحوي البغدادي بالموصل، وكان كثيرا ما يأمرني بقول الشعر وأنا أمتنع من ذلك، قال: فبينما أنا ذات ليلة نائم، رأيت الشيخ في النوم وهو يأمرني بقول الشعر، فقلت له: ضع لي مثلا أعمل عليه، فقال:

جُبِّ الْفَلَا مُدْمِنًا إِنْ فَاتَكَ الظَّفْرُ وَحُدَّ خَدَّ الثَّرَى وَاللَّيْلُ مَعْتَكُرٌ

¹ - تراجم رجال القرنين السادس والسابع، عبد الرحمان المقدسي، تحقق: محمد زاهد الكوثري، دار الجليل، ط2، 1974م، ص68.

² - شذرات الذهب، ابن العماد (شهاب الدين أبو الفلاح)، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1991م، مج7، ص42.

³ - معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج5، ص2268.

⁴ - جامع الأصول من أحاديث الرسول، مجد الدين بن الأثير، تحقق: حامد الفقي، السنة المحمدية، القاهرة، 1949هـ، ج1، ص12.

فقلت أنا:

فالعزّ في سهوات الخيل مركبه والمجد ينتجه الإسراء والسّهْرُ

فقال لي: أحسنت، هكذا فقل، فاستيقظت فأتممت عليها نحو العشرين بيتاً.¹

وكتب في إحدى المرات إلى صديق له، فقال:²

وإني لمهدٍ عن حنينٍ مبرّحٍ إليك على الأقصى من الدار والأدنى

وإن كانت الأشواق تزداد كلما تناقص بعدُ الدار واقترب المغنى

سلاما كنشر الروض باكره الحيا وهبت عليه نسمة السحر الأعلى

فجاء بمسكيّ الهوا متحلّيا ببعض سجايا ذلك المجلس الأسمى

8.2. مصنفاته:³

إن المتتبع لآثار مجد الدين بن الأثير، وما خلفه من أنواع المعرفة والعلوم؛ يعجب من نشاطه وكده في سبيل نشر العلم في وقت عصيب، لم تكن تتوفر فيه من الوسائل والتسهيلات التي أصبحت متوفرة في هذا الزمان، من نسخ، وطبع، ونشر، ويسر انتقال، وعلى الرغم من مرضه الذي ألمّ به في آخر حياته، فإنّ ذلك لم يمنعه من البحث، والتأليف، والتصنيف في فنون عديدة، كالتفسير والنحو والأدب والتراجم والفقه، وغريب الحديث، فقد سوّد قلمه العديد من القراطيس، لعلّ أشهرها:

1. "الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف" وهو كتاب في التفسير جمع فيه بين تفسيري

"الكشف والبيان في تفسير القرآن" للثعلبي و"الكشاف" للزمخشري.

2. "البدیع في علم العربية": وهو كتاب في النحو، وهو مطبوع.

¹ - معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج5، ص 2270.

² - المصدر نفسه.

³ - ينظر: وفيات الأعيان: 4/141، وسير أعلام النبلاء: 21/490، وشذرات الذهب: 7/44، ومعجم الأدباء: 5/2270.

3. "المختار في مناقب الأخيار" وهو كتاب في التراجم.
4. "تجريد أسماء الصحابة": وهو كتاب في التراجم أيضا.
5. "الرسائل".
6. "صنعة الكتابة" وهو كتاب في الأدب.
7. "الشافي في شرح مسند الشافعي"
8. "جامع الأصول في أحاديث الرسول": جمع فيه بين الكتب الستة، ورتبه على حروف المعجم، وهو مطبوع.
9. "منال الطالب في شرح طوال الغرائب" وهو كتاب في شرح ما اختاره من الأحاديث المطوّلة الغريبة، وهو مطبوع.
10. "المرصّع في البنين والبنات والآباء والأمهات والأذواء والذوات". وهو مطبوع.
11. "رسائل في الحساب مجدولات".
12. "المصطفى المختار في الأدعية والأذكار".
13. "الذوات والأذواء".
14. "بغية الراغب في تهذيب الفصول النحوية".
15. "الباهر في الفروق" وذكره بعضهم باسم "الفروق والأبنية".
16. "صنعة الكتابة".
17. "شرح كلمات لغوية مرتبة على حروف المعجم". غير مطبوع، وتوجد نسخة منه بدار الكتب.
18. "النهاية في غريب الحديث والأثر" في غريب الحديث. وهو موضوع دراستنا في هذا البحث.

9.2. مرضه ووفاته:

عاش ابن الأثير ثلاثا وستين سنة، فقد لازمه المرض حياتَه، وكان به نفرس، كَفَّ يديه ورجليه، ومنعه من الكتابة مطلقا، فكان يُحْمَل في محمَّة، وجيء إليه بطبيب فعالجه بدهن حتى قارب أن يبرأ، ولكنه صرفه عنه قبل أن يفعل، وفي ذلك يقول أخوه عز الدين: "أتانا رجل مغربي شرط على نفسه أن يبرئه مما هو فيه، وأنه لا يأخذ عليه أجرا إلا بعد برئه. فقال: فملت إلى قوله، وأخذ في معاناته بدهنٍ صنعه، وكان يمد رجليه في يوم وهي متجافية عن الأرض لما بها من اليبس، ويقيس ما بينها وبين الأرض، وكانت كلما لانت قربت من الأرض، فيعلم ذلك، ولم يزل يفعل هذا الفعل إلى أن ظهر فيها الصلاح وأشرف على البرء، فقال لي يوما: أعط لهذا المغربي شيئا يرضيه واصرفه، فقلت له: لماذا وقد ظهر نُجْح معاناته؟ فقال: الأمر كما تقول، ولكني في راحة مما كنت فيه من صحبة هؤلاء القوم والالتزام بأخطارهم، وقد سكنتُ روعي إلى الانقطاع والدعة، وقد كنت بالأمس وأنا معافئٌ أذلُّ روعي بالسعي إليهم، وها أنا اليوم قاعد في منزلي، فإذا طرأت لهم أمور ضرورية؛ جاءوا لي بأنفسهم لأخذ رأيي، وبين هذا وذاك كثير، وإنما أحدثه هذا الألم، ولا أرى زواله ولا معاناته، ولم يبق من العمر إلا القليل، فدعني أعيش باقيه حرا سليما من ذلِّ وصغار، فقد أخذت منه أوفر الحظ. قال أخوه: فقبلت قوله، وصرفت الرجل بإحسان"¹.

وتوفي ابن الأثير -رحمه الله تعالى- بمدينة الموصل يوم الخميس من ذي الحجة سنة ست

وستمائة، ودفن برباطه في درب دراج².

¹-إنباه الرواة، جمال الدين القفطي، ج1، ص259.

²- ينظر: وفيات الأعيان:4/141، وسير أعلام النبلاء: 491/21.

المبحث الثاني: بين يدي كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير الجزري

1. كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر":

كان من الواجب على ابن الأثير الجزري وقد خبر كتب الغريب وعركها وعركته أن يؤلف كتابا في غريب الحديث خدمةً للسنة النبوية واللغة العربية على حد سواء، يكون سهل الترتيب واضح الشروح والتعاريف، مستقصيا لألفاظ الحديث الغريبة، فجادت قريحته بكتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" وكان حقيقةً النهاية في هذا الفن.

وكتابه هذا أحد المصنفات التي يشار إليها بالبنان في فنّ غريب الحديث، فقد ذاع صيته، وطبقت شهرته الآفاق، حتى غطت على كل كتاب صنف في غريب الحديث، فكان ولم يزل أشهر كتب الغريب وأفضلها، به عُرف ابن الأثير، وإليه ينتسب، "شرح ما يربو على ثلاثة آلاف مفردة أو عبارة غريبة من غرائب الأحاديث والآثار"¹، و"ظهرت فيه ثقافة ابن الأثير المتعددة الجوانب، فهو لم يقف عند حدود المادة اللغوية في شرح غريب حديث رسول الله ﷺ وآثار الصحابة والتابعين، بل تراه يناقش مسائل فقهية... ويثير قضايا نحوية وصرفية، ويحاول التوفيق بين الأحاديث المتعارضة في الظاهر... كل ذلك في إيجاز واف بليغ"²، وهذا ما وقفنا عليه فعلا ونحن نطوّف بين صفحات هذا الكتاب.

ولهذا الكتاب من اسمه حظ ونصيب، يصدق عليه ما نعت به ابن الأثير نفسه كتاب "الفائق في غريب الحديث" للزمخشري، حيث قال فيه: "لقد صادف هذا الاسم مسمى، وكشف من غريب الحديث كلّ معمى"، ونحن نقول: إنّ كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" هو فعلا النهاية في بابه، وعليه المعوّل عند من جاء بعده، فمن رام أن يطلب غريبة من غرائب الحديث؛ فأول ما يعنّ له كتاب "النهاية"، فقد جمع فيه صاحبه ما تفرق في غيره شارحا ومفسرا، ومناقشا ومرجحا.

¹ - المعاجم اللغوية وطرق ترتيبها، أحمد الباتلي، ص 34

² - النهاية (مقدمة المحقق)، تحق: الطناحي، ج 1، ص 7.

وهو كما قال عنه مصنّفه، محصلة سِفْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ فِي فَنِّ غَرِيبِ الْحَدِيثِ هُمَا: كِتَابُ "الغَرِيبِينَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ" لِأَبِي عَبِيدٍ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْهَرَوِيِّ (ت401هـ)، و"الْمَجْمُوعُ الْمَغِيثُ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ" لِأَبِي مُوسَى مُحَمَّدَ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْمَدِينِيِّ (ت538هـ)، حَيْثُ يَقْرَأُ ابْنُ الْأَثِيرِ بِأَنَّهُ جَمَعَ مَا فِيهِمَا، وَأَنَّهُ تَرَسَّمَ خُطَاهُمَا، فَيَقُولُ: "رَأَيْتُ أَنْ أُجْمَعَ مَا فِيهِمَا مِنْ غَرِيبِ الْحَدِيثِ، مَجْرَدًا مِنْ غَرِيبِ الْقُرْآنِ، وَأَضِيفَ كُلُّ كَلِمَةٍ إِلَى أَخْتِهَا فِي بَابِهَا تَسْهِيلاً لِكُلْفَةِ الطَّلَبِ"¹.

وَمَا رَأَى ابْنَ الْأَثِيرِ أَنَّ هَذَيْنِ الْكُتَابَيْنِ قَدْ فَاتَحْتُمَا الْكَثِيرَ الْوَافِرَ مِنَ الْغَرِيبِ، رَاحَ يَجْمَعُ مَا فَاتَحْتُمَا مِنْ غَرِيبٍ مَتَنَاتٍ فِي غَيْرِهِمَا مِنْ كُتُبِ الصَّحَاحِ، وَالسَّنَنِ، وَالغَرَائِبِ، وَالْمَسَانِيدِ، وَالْمَجَامِيعِ، وَكُتُبِ اللُّغَةِ عَلَى اخْتِلَافِهَا، وَرَمَزَ إِلَى مَا أَخَذَهُ مِنْ كِتَابِ الْإِمَامِ الْهَرَوِيِّ بِالْحَرْفِ (هـ)، وَمَا أَخَذَهُ مِنْ كِتَابِ أَبِي مُوسَى الْمَدِينِيِّ بِمِزِهِ بِالْحَرْفِ (س)، وَمَا أَضَافَهُ مِنْ غَيْرِهِمَا جَعَلَهُ مَهْمَلًا بِلا عِلَامَةٍ، لِيُمَيِّزَ مَا فِيهِمَا عَمَّا لَيْسَ فِيهِمَا، كَمَا أَفَادَ الْقَارِئُ بِأَنَّ جَمِيعَ مَا فِي كِتَابِهِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مُضَافٌ إِلَى مُسَمًّى، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ الْمُسَمًّى هُوَ صَاحِبُ الْحَدِيثِ، أَوْ يَكُونُ رَاوِيًا لِلْحَدِيثِ، أَوْ يَكُونُ سَبَبًا فِي ذِكْرِ ذَلِكَ الْحَدِيثِ فَأَضِيفَ إِلَيْهِ، أَوْ يَكُونُ لَهُ فِيهِ دِكْرٌ عُرِفَ الْحَدِيثُ بِهِ. وَثَانِيَهُمَا: غَيْرُ مُضَافٍ، وَأَكْثَرُهُ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَلَعَلَّ أَبْرَزَ سِمَةٍ غَلَبَتْ عَلَى كِتَابِ "الْهِيَاةِ" حَسَنَ التَّبْوِيبِ وَجُودَةَ التَّرْتِيبِ، وَتِلْكَ عَادَةُ ابْنِ الْأَثِيرِ عَهْدِنَاهَا فِي أَغْلَبِ كُتُبِهِ وَمُصَنَّفَاتِهِ. رَتَبَهُ عَلَى حُرُوفِ الْمَعْجَمِ، الْأَوَّلُ فَالثَّانِي فَالثَّلَاثُ، الْأَمْرُ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَسْهَلَ عَلَى الْمُتَرَاجِعِ الْحَصُولَ عَلَى الْمَطْلُوبِ دُونَ بَذْلِ الْجُهْدِ أَوْ هَدْرِ لَوْقَتِهِ. كَمَا جَاءَ هَذَا الْمَعْجَمُ غَايَةَ فِي الدَّقَّةِ مِنْ حَيْثُ تَنَاوَلَهُ لِلْمَادَةِ اللُّغَوِيَّةِ؛ شَرْحًا وَتَفْسِيرًا.

وَإِذَا أَمَعْنَا النَّظَرَ فِي أَحَادِيثِ "الْهِيَاةِ" وَجَدْنَاهَا مَجْزَأَةً لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا حَدِيثًا تَامًا، خِلَافًا لِكِتَابِ "مَنَالِ الطَّالِبِ" لِلْمُؤَلِّفِ نَفْسِهِ، الَّذِي أَوْدَعَهُ الْأَحَادِيثَ كَامِلَةً عَلَى طَوْلِهَا أَوْ تَوَسُّطِهَا، ثُمَّ شَرَعَ فِي شَرْحِ مَا فِيهَا مِنْ غَرِيبٍ، غَيْرَ مَكْتَرِثٍ لِتَرْتِيبِ الْأَلْفَاظِ الْغَرِيبَةِ. وَمِنْ جَمِيلِ صَنْيعِهِ فِي كِتَابِ

¹ - النهاية (المقدمة)، تحق: الخراط: 17/1

"النهاية" أنه لم يقف به عند حدود المادة اللغوية في شرحه لغريب الحديث، وآثار الصحابة والتابعين، بل رصّعه بعدد المسائل الفقهية كونه فقيها شافعيًا كما أسلفنا، كما حاول أن يجمع بين الأحاديث التي يبدو أنّ في ظاهرها تعارضًا، ضف إلى ذلك تلك التخريجات البلاغية والنحوية والصرفية والصوتية التي حفّل بها الكتاب، والتي من شأنها أن تقرب معاني المداخل المعجمية.

ومما ينبغي التنبيه إليه؛ أنّ كثيرا من الأحاديث التي أوردها ابن الأثير في كتاب "النهاية" ضعيفة، بل شديدة الضعف أحيانا، أو موضوعة في أحيان أخرى، ورغم علم ابن الأثير بذلك، إلا أنه لم يُثْنِه هذا عن شرح غريب ألفاظها، ومسوّغ ذلك عنده أنّ الحديث من أفصح الكلام وأحسنه مأخذا واحتجاجا، ولأن غاية صاحبه لغوية بالدرجة الأولى، فالطعن في سند الحديث لا ينقص من قيمته اللغوية، إنما قد يترتب عليه تغيير في الحكم الشرعي الذي يستنبط منه، وهذه غاية أخرى. ومن أمثلة تلك الأحاديث التي شكك في صحتها ومع ذلك تناول غريبها بالشرح؛ حديث **فدك** الذي يروى عن السيدة فاطمة، حيث قال عنه: "هذا الحديث أكثر ما يروى من طرق أهل البيت، وإن كان رُوي من طرق أخرى، أطول من هذا وأكثر، وأهل الحديث يقولون: إنه موضوع على فاطمة"¹، وهذا ما يؤكّد أنّ الغاية التي تغياها المصنف -رحمه الله- من وضع كتابه لغويّة أصالةً، وإن كان في واقع الأمر كتاب حديث ولغة.

2. عنوان الكتاب:

عنوان هذا الكتاب كما اختاره ابن الأثير هو: "النهاية في غريب الحديث والأثر"، ولا خلاف بين العلماء حول ذلك، أمّا ما ذكره محقق طبعة (دار المعرفة) من أن عنوان الكتاب في إحدى نسخه الخطية هو: "النهاية في النظر في غريب الحديث النبوي والأثر"، حيث جاء بزيادة لفظتين هما: **النظر والنبوي**، فإنّ هذه الزيادة لا يلتفت إليها، وليست بشيء؛ لأنّها خالفت إجماع العلماء على التسمية الأولى.

¹ - في اللغة والأدب، دراسات وبحوث، محمود الطناحي، ص 430.

ثم إن النسخة التي وردت فيها هذه الزيادة جاء في الوجه الأخير من الجزء الأول منها: "كمل النصف الأول من كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر"، وجاء في الوجه الأخير من الجزء الثاني: "تمّ كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر". والراجح أن هذه الزيادة - كما ذكر أحد محققي الكتاب¹ - تبرّع بها قلمٌ بعض النساخ المولعين بالسجع، والله أعلم.

وكلمة (غريب) في العنوان، تصلح لكل ما ذكرناه في المدخل عن معنى الغريب عند أهل هذا الفن.

أمّا لفظاً: (الحديث والأثر)، فالمقصود به: الحديث في تقديرنا هو ما كان في حكم المرفوع إلى النبي ﷺ، والأثر ما عُزِيَ إلى غيره من كلام الصحابة أو كلام من دونهم، وهذا سبب ضخامة الكتاب، لأنه لم يقتصر فيه على غريب الحديث فقط، بل تعداه إلى غيره مما يحيط به، أو يندد عنه، ويؤكد هذا ما نصّ عليه ابن الأثير في مقدمة "النهاية"، حيث قال: "وجميع ما في هذا الكتاب من غريب الحديث والآثار ينقسم قسمين: أحدهما مضاف إلى مسمى، والآخر غير مضاف، فما كان غير مضاف فإن أكثره، والغالب عليه أنه من أحاديث رسول الله ﷺ، إلا الشيء القليل الذي لا تعرف حقيقته، هل هو من حديثه، أو حديث غيره؟ وقد نبهنا عليه في مواضعه، وأما ما كان مضافاً إلى مسمى فلا يخلو: إما أن يكون ذلك المسمى هو صاحب الحديث، واللفظ له، وإمّا أن يكون راوياً للحديث عن رسول الله ﷺ أو غيره، وإما أن يكون سبباً في ذكر ذلك الحديث أضيف إليه، وإما أن يكون له فيه ذكر عرف الحديث به، واشتهر بالنسبة إليه"².

3. توثيق نسبة الكتاب إلى ابن الأثير الجزري:

لا خلاف بين أهل العلم في صحّة نسبة هذا السِّفر العظيم إلى أبي السعادات مجد الدين ابن الأثير، وذلك لأمر عدة، منها:

¹ - ينظر: النهاية (مقدمة المحقق)، ابن الأثير، تحق: رضوان مامو، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط1، 2013م، ص23.

² - مقدمة النهاية، تحق: أحمد الخراط، ص19.

أولاً، جاء في مقدمة الكتاب عن ابن الأثير أنه قال: "وقد سميت: النهاية في غريب الحديث والأثر"¹.

ثانياً، تواتر نقلٌ من ترجم لابن الأثير ذكر هذا الكتاب في مقدم مصنفاته، ومن هؤلاء الإمام الذهبي في "سير أعلام النبلاء". وابن العماد الحنبلي في "شذرات الذهب"، وابن خلكان في "وفيات الأعيان"، والقفطي في "إنباه الرواة" والسيوطي في "بغية الوعاة" وغيرهم. ثالثاً، نقلُ أهل العلم عنه، وتعويلهم عليه، وفي هذا دليل على إثباتهم الكتاب لصاحبه، وثقتهم به، فقد قام ابن منظور بتفريغه في معجمه، وكذلك فعل آخرون كما سيأتي.

4. مقدمة الكتاب:

صدر ابن الأثير كتاب "النهاية"، بمقدمة طويلة لكنها نفيسة، أبان فيها عن مكنته واقتداره في اختيار ألفاظها وعباراتها، والعناية بما ينبغي أن يذكر فيها من عناصر لها علاقة بمضامين الكتاب، فمثل هذه المقدمات هي ما يطلب توافره في المعجم الحديث، وهي إحدى الإجراءات التي استقر نحوه عليها، بأن يُقدّم بين يدي المعجم "مقدمة تحدد منهجيته، وطريقة ترتيبه، ووسائل ضبط الهجاء والنطق فيه، وكيفية تصنيفه المعاني والدلالات، ووسائل التعريف المتبعة، وشرح الرموز والعلامات والاختصارات المستعملة في المعجم"².

فقد جاءت مقدمة "النهاية" مقدمة ضافية شافية، بدأ فيها بالحديث عن أهمية علم الحديث والأثر، وذهب إلى أنه من أشرف العلوم الإسلامية قدراً، وأحسنها ذكراً، وأكملها نفعاً وأعظمها أجراً، وأنه حقٌّ من حقوق الدين، يتعين إحكامه والتزامه، ومن صور إحكامه معرفة ألفاظه، ومعرفة معانيه، وأن معرفة ألفاظه مقدمة في الرتبة لأنها الأصل في الخطاب، وبها يحصل التفاهم، فإذا عُرفت ترتبت المعاني عليها، فكان الاهتمام ببيانها أولى، ثم تراه يقسم الألفاظ إلى عامٍ يشترك فيه السوقة

¹ - مقدمة النهاية، تحق: أحمد الخراط ص 19.

² - البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ص 167.

وصفوة الناس، وخاصّ لا يعرفه إلا من عُني به، وعلى هذا النوع مدار الأمر، إذ الحاجة إليه ضرورية في البيان، واجبة في الإيضاح والعرفان¹.

ثم يقسّم معرفة هذا الخاص إلى معرفة ذاته وصفاته، أما ذاته فهي معرفة وزن الكلمة وضبطها، وتأليف حروفها؛ لئلا يتبدّل حرفٌ بحرفٍ أو بناءٌ ببناء، وهذه المعرفة استقلّ بها علماء اللغة. وأمّا صفاته فهي معرفة حركاته وإعرابه ونحو ذلك؛ لئلا تختلّ المعاني التي يكون فهم الحديث مبنياً عليها، وهذه المعرفة استقلّ بها علماء النحو والتصريف².

ثم ينتقل بنا إلى الحديث عن حال العربية في عصر النبوة من حيث الفصاحة والبيان وسلامة الاستعمال، ثم يتحدث عن حالها في عصر الصحابة، وكيف أنها سارت على النمط نفسه من حيث الصحة والسلامة من الزلل، إلى أن فتحت الأمصار، واختلط العرب بغيرهم من الشعوب، فامتزجت الألسن، وتداخلت اللغات، وتسرب اللحن إلى العربية، ولم يعد الناس يعرفون منها إلا لغة الحياة اليومية، فاحتاج الناس مع ذلك إلى فنّ غريب الحديث لشرح ما غبّي عنهم من المعاني.

ثم ينتقل إلى الحديث عن أهم المصنفات التي ألّفت في موضوع غريب الحديث، وجهود من سبقه في هذا المضمار، فبدأ بالحديث عن نشأة علم غريب الحديث، وبواكير التأليف فيه، ومراحل تطوره ونموه، وطرائق المصنفين ومنهجهم في مصنفاتهم، ثم راح ينقد تلك المناهج إذا اقتضى الأمر ذلك، كاشفاً عن مواطن القوة والضعف فيها، وهو بهذا الصنيع يأخذ بيدك إلى ما يفيدك من هذه التوليفات، حتى إذا عسّر عليك جمعها كلّها، سهل عليك أن تختار بعضها، لتجد فيه ما يشفي عليك ويروي غليلك.

فكانت البداية بحديثه عن أوّل من صنّف في هذا الفن من غريب الحديث والأثر، حيث يرى أنّ أبا عبيدة معمر بن المثنى هو أول من وضع كتاباً في هذا الفنّ، ثم تثنّى بالحديث عن النّصّر

¹ - ينظر: النهاية (المقدمة)، تحق: أحمد الخراط، ص3، 4.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص4، 5.

ابن شُمَيْل، ثم الأصمعي عبد الملك بن قريب، ومن بعده حديثه عن قطرب ومصنفه، ليصل إلى أبي عبيد القاسم بن سلام صاحب المصنف الإمام في فنّ غريب الحديث، ثم يشير إلى مصنف أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ثم يذكر كتاب إبراهيم بن إسحاق الحربي، ويُنْبئ عليه لما فيه من الفوائد والمنافع، لكنه عاب عليه طوله الذي كان سببا في ترك الناس له وهجرهم إياه، ثم ذكر نفرا من المصنفين في غريب الحديث، وهم: شَمْر بن حَمْدَوَيْه، وثعلب، والمبرد، والأنباري، والزاهد، وغيرهم.

ثم تراه يحطّ الرحال عند أبي سليمان حَمْد بن محمد الخطّابي البُستِي، الذي سلك منهج أبي عبيد القاسم وابن قتيبة، وأضاف إلى أقوالهما المزيد، ويرى ابن الأثير أنّ هذه الكتب الثلاثة هي المعوّل عليها، يقصد غريب أبي عبيد القاسم بن سلام، وغريب ابن قتيبة، وغريب الخطّابي، بيد أنّه ينتقد مناهجهم في التأليف في هذا العلم، فيقول عنها: "إلا أنّها وغيرها لم يكن فيها كتاب صُنّف مرتباً ومُتَقَمّى، يرجع الإنسان عند طلب الحديث إليه إلا كتاب الحربيّ، وهو على طوله وعُسْر ترتيبه لا يوجد الحديث فيه إلا بعد عَناء، مع ما فيه من كون الحديث المطلوب لا يُعرف في أيّ واحد من هذه الكتب هو"¹.

ثمّ يتحدث عن كتاب أحمد بن محمد الهروي الذي جمع فيه بين غريب القرآن والحديث، ورَتَّبَه على حروف المعجم، مستفيدا من جهود سابقيه، فجاء مصنّفه "جامعاً في الحسن بين الإحاطة والوضع"². وأعقبه أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الذي صنّف كتاب "الفائق في غريب الحديث"، وفيه قال ابن الأثير عبارته الشهيرة: "لقد صادف هذا الاسم مسمّى، وكشف من غريب الحديث كل معمى"³، رتب الزمخشري على حروف المعجم، بيد أنّه يشرح ما في الحديث الواحد من غريب في حرف واحد من حروف المعجم، فَتَرَدُّ الكلمة في غير حرفها، وإذا تَطَلَّبها الإنسان

¹ - النهاية (المقدمة)، تحق: أحمد الخراط، ص 14.

² - المصدر نفسه، ص 14.

³ - المصدر نفسه، ص 15.

تعب حتى يجدها، لذا كان كتاب الهروي أسهل منه مأخذاً.¹

ليتحدث ابن الأثير بعد ذلك عن كتاب أبي موسى محمد بن أبي بكر الأصفهاني، الذي أفاد من كتاب الهروي في مادته ومنهجه، واستدرك عليه ما فاته. كما أشار إلى كتاب أبي الفرج ابن الجوزي، الذي اقتفى أثر الهروي "ولم يزد عليه إلا الكلمة الشاذة واللفظة الفاظة"² في نظره.

ويأتي بعد ذلك حديثه عن كتابه "النهاية في غريب الحديث والأثر"، حيث عرض منهجه في هذا الكتاب الذي يقدم له مقراً بأنه ترسّم خطأ كتابي: "الغريبين" لأبي عبيد الهروي، و"المجموع المغيث في غربي القرآن والحديث" لأبي موسى المدني، مادة وترتيباً، بعد أن جرّدهما من غريب القرآن، وكتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" هو موضوع بحثنا، وسنتحدث عنه بالتفصيل قريباً. ثم يتحدث عن الترتيب المعجمي الذي سلكه في كتابه، بالتزامه الترتيب الذي اشتملا عليه، رغبة منه في السهولة واليسير وتقريب المأخذ للمراجع، وسنفضّل الحديث في هذا الباب عند حديثنا عن مبدأ الوضع في مدونة ابن الأثير.

كما أشار إلى مختلف المصادر التي عاد إليها في جمع مادته، وشرحها، وترتيبها، سواء أكانت لغوية أم حديثية أم في علوم شتى، ليختتم مقدمته هذه بالحديث عن إسناد الأحاديث والآثار التي تضمّن كتابه هذا.

وما يُهمّنا في هذه المقدمة، هو مدى التزام ابن الأثير بما أورده فيها حال عرضه لمادته، هذا ما نستكشفه من خلال دراستنا لمتن "النهاية".

¹ - ينظر: النهاية (المقدمة)، تحق: أحمد الخراط، ص 14، 15.

² - المصدر نفسه، ص 17.

5. دوافع تأليف كتاب "النهاية":

من أبرز الأسباب التي دفعت بابن الأثير في تقديرنا إلى تحرير مصنفه هذا:

- تعظيمه لشأن السنة النبوية مصدر التشريع الثاني، حيث قال في مقدمة الكتاب: «فلا خلاف بين أولي الألباب والعقول، ولا ارتياب عند ذوي المعارف والمحصل، أن علم الحديث والآثار من أشرف العلوم الإسلامية قدرا، وأحسنها ذكرا، وأكملها نفعا وأعظمها أجرا، وأنه أحد أقطاب الإسلام التي يدور عليها، ومعاقده التي أضيف إليها، وأنه فرض من فروض الكفايات يجب التزامه، وحقٌّ من حقوق الدين يتعين إحكامه واعتزاه¹، وليس ذلك بغريب عن ابن الأثير، فقد تربى في أحضان علماء الحديث، ورضع من لبان الحديث منذ الصغر.
- حاجة الناس إلى شرح السنة النبوية، ليفهموا مراد رسول الله الذي يبلغ عن رب العالمين، فطاعة النبي ﷺ فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر لا يكون إلا بفهم منطوقه عليه السلام، ذلك لأن علم الحديث "ينقسم قسمين: أحدهما، معرفة ألفاظه، والثاني معرفة معانيه. ولا شك أن معرفة ألفاظه مقدمة في الرتبة، لأنها الأصل في الخطاب، وبها يحصل التفاهم، فإذا عُرفت؛ ترتبت المعاني عليها، فكان الاهتمام ببيانها أولى²، ولا يخفى ما في ذلك من مشقة، فمحاصرة المعاني من أجل الأعمال وأدقها.
- محاولة ابن الأثير استيعاب ما في كتابي: "المجموع المغيَّب في غربي القرآن والحديث" لأبي موسى المدني الأصفهاني، و"الغريبين"، لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي، وهما كتابان كبيران، يكمل اللاحق منهما السابق، فأراد ابن الأثير أن يجمعهما في كتاب واحد، بعد تجريدتهما من غريب القرآن، حتى يتسنى لطالب الغريب الوصول إلى مراده دون كلفة، بعيدا عن مشقة التنقل بينهما، وفي ذلك يقول: "وكان الإنسان إذا أراد كلمة غريبة يحتاج أن يتطلبها في أحد الكتابين،

¹ - النهاية (المقدمة)، تحق: أحمد الخراط، ص 3.

² - المصدر نفسه، ص 4.

فإن وجدها فيه، وإلا طلبها من الكتاب الآخر، وهما كتابان كبيران ذوا مجلدات عدة، ولا خفاء بما في ذلك من الكلفة، فرأيت أن أجمع ما فيهما من غريب الحديث مجرداً من غريب القرآن، وأضيف كل كلمة إلى أختها في بابها، تسهيلاً لكلفة الطلب¹، ولقد وُفق في الجمع بين الكتابين، وترتيب موادهما، وكل ذلك طلباً للتسهيل والتيسير.

- استدراك ما فات الكتابين من غريب الأحاديث والآثار، لعلمه أن ما فاتهما كثير، وعن ذلك يقول: "فوجدتهما -على كثرة ما أودع فيهما من غريب الحديث والأثر- قد فاتهما الكثير الوافر... فصدفتُ عن الاقتصار على الجمع بين كتابيهما، وأضفت ما عثرت عليه ووجدته من الغرائب، إلى ما في كتابيهما في حروفها مع نظائرها، وأمثالها"²، فقد أحسن الرجل في الاستدراك عليهما، في غير ملل، ودونما خلل أو زلل، ولا شك أنّ في هذا دليلاً على سعة اطلاعه على مدونات الحديث والآثار، وقوة استحضاره لما فيها من الغرائب.
- حاجة الناس إلى التيسير، وإقبالهم على طريقة الترتيب على حروف المعجم، دفعته إلى جمع كتاب مرتّب على هذه الطريقة، لسهولتها.

6. أهمية كتاب "النهاية":

كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" كتاب ذو مكانة رفيعة وأهمية بالغة في مسيرة فنّ غريب الحديث، وتبدي هذه الأهمية في النقاط التالية³:

- حجم التراث المعجمي الذي صنف في غريب الحديث قبل ابن الأثير حافل وغزير، ولم يصل إلينا منه إلا بعضه، ولعلّ من حسنات كتاب "النهاية" أنه جمع ما تفرق في تلك المصنفات، ما بلغنا منها، ككتب ابن قتيبة، وأبي عبيد، والمديني، والزمخشري، وما لم يبلغنا ككتابي "غريب الحديث" للحري، و"غريب الحديث" لشمر بن حمدويه، وحفظ لنا قدرًا واسعاً من أقوال علماء اللغة

¹ - النهاية (المقدمة)، تحق: أحمد الخراط، ص 17.

² - المصدر نفسه، ص 18.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 67-70.

والغريب، وجمع كثيراً من الأقوال والآراء التي قيلت في تأصيل مادة الغريب، سواء فيما يتعلق بخدمة الجانب اللفظي من الحديث، وما تضمنه من ثروة لغوية كمعرفة لغات القبائل، وتمييز الفصيح منها من غير الفصيح، وضروب من المشتقات والأوزان والنوادر، والتعريف بالأماكن، وسرد الشواهد النادرة، أو خدمة الجانب المعنوي في دلالات الحديث ومقاصده.

- أفاد ابن الأثير من هذا التراث الضخم في شرح غريب الحديث وتراكيبه، ومن جميل صنيعه في هذا المعجم أنه مزج بين عمل اللغويين والمعجميين والبلاغيين والفقهاء والمحدثين والمفسرين والمتكلمين والمؤرخين وغيرهم من العلماء، فكان معجم النهاية عملاً موسوعياً بامتياز.
- الأمانة العلمية التي تميز بها ابن الأثير في مصنف النهاية، والتي تجلت في حرصه على نسبة طائفة من الأقوال إلى أصحابها، والروايات إلى مصادرهما، الأمر الذي يساعد الباحثين على العودة إلى أصول هذه الأقوال والروايات في مظانها المطبوعة أو المخطوطة؛ لمتابعة بحوثهم وأحكامهم حولها، وصنيع ابن الأثير هذا في كتاب "النهاية" أهله أن يكون مصدراً مهماً اعتمده كثير من الباحثين الذين يدرسون مناهج التأليف في علوم الحديث واللغة، ويتتبعون مذاهب أصحابها؛ لأنه عزا كثيراً من النصوص إلى قائلها.
- كتاب النهاية مكنز ثر لأقوال الصحابة والتابعين، إضافة إلى الأحاديث النبوية الشريفة، فمن خلاله يستطيع الباحثون الوصول إلى أقوال طائفة كبيرة من أعلام السلف، الذين نثر ابن الأثير أقوالهم في كتابه من مثل: النخعي، وقتادة، والزهري، وسفيان، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وغيرهم. فنقرأ جوانب من فقههم وآدابهم وعزائمهم في عبادتهم، وورعهم في معاملاتهم مع الناس، وأساليب معيشتهم مع أسرهم وأفراد المجتمع من حولهم.
- اختيار ابن الأثير لأيسر الطرق المنهجية في ترتيب المادة اللغوية، سهّل عرض مادة الغريب والوصول إليها من قبل طلابها، رغم كثرتها.
- كتاب النهاية كتاب حديث ولغة، فكما عكف عليه المحدثون لاستيعابه لكم هائل من النصوص الحديثية وآثار الصحابة والتابعين، رجع إليه علماء اللغة والبلاغة لاستكناه نصوص الحديث والأثر

الفصيحة، التي اشتملت على استعمالات وفيرة ومتنوعة لأدوات العربية، وكثير من التطبيقات الإعرابية والبلاغية، كما استعانوا به للوصول إلى قواعد كلية في فقه اللغة، وكذلك التطور الدلالي لكثير من ألفاظها، وقد كان ابن الأثير يُعنى بالأصل الدلالي للاستعمال اللغوي قبل أن يتسع في المعاني الحضارية المتجددة، ويعلل التسمية التي أطلقت على المفردات اللغوية.

- كتاب "النهاية" مرجع مهم لرسم صورة حيّة عن شخصية ابن الأثير العلمية والمنهجية، فمن أراد دراسة جهود هذا العَلم في علوم الحديث واللغة ومناهج البحث، والدراسات المعجمية التاريخية، فعليه بكتاب **النهاية**، فهو بلا ريب مصدر مهمّ في هذا الباب.
- ومن مآثر هذا الكتاب أيضا أنّه يمثل مدرسة معجمية مهمّة، في تاريخ التأليف المعجمي عند علماء اللغة، - كما أشرنا في مقدمة هذا البحث - وهي مدرسة الترتيب الهجائي، وَفَقَّ الحرف الأول، ثم الذي يليه، وهكذا... وقد سبقته مدارس اعتمدت مناهج مختلفة في الترتيب، فيأتي كتاب "النهاية" ليمثّل حلقة من سلسلة منتظمة، اجتهدت في جمع التراث اللغوي وَفَقَّ منهج معيّن، يستدرك الصعوبات التي تكتنف سائر المناهج الأخرى.

7. لغة الكتاب:

لغة ابن الأثير في كتاب النهاية سهلة المأخذ بسيطة العبارة محبة مأنوسة، سار فيها على نمط واحد من الاتساق والجلاء والوضوح، فلا تكاد تجد فيها تعقيدا ولا تعقيرا، ولا تكلفا ولا تصنعا، فلا إسفاف فيها ولا ابتذال، وكأنّ الرجل يغرف من بحر، فأسلوبه من نوع السهل الممتنع الذي يخيل لقارّئه أنه يحسن مثله، حتى إذا اقتحم أسواره علم أنه دون ذلك، وأنه عاجز عن السير بجذائه. ويظهر ذلك جليا في مقدمته، التي أحسن اختيار ألفاظها، وأجاد سبك عباراتها، ووفّق في نظم تراكيبها.

ومع ذلك، فإننا لا نعدم أنّ الرجل مولع بالكلام المسجوع لكن في غير إسراف، جريا على طريقة القدامى، وهي عادة استحكمت فيهم حتى صارت علامة في مصنفاتهم، خاصة في زمن الكاتب الذي أُطلق عليه تجوزا عصر الضعف والانحطاط. كما يبدو أن الغريب قد أثر في لغة

المصنّف وفي أسلوبه، من ذلك ما ورد في مقدمة كتابه، كقوله: "وما علم أن الشوط بطين، والمنهل معين"¹. حيث إنّ عبارة "الشوط بطين" وردت مرتين في كتابه، مرة تحت مادة (بطن)، ومرة تحت مادة (شوط)، وهي من كلام سليمان بن صرد رضي الله عنه.

8. ثناء العلماء على كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر":

قلّمًا يخلو كتاب ترجم لابن الأثير من عبارات المدح والثناء عليه، وعلى مصنفاته، وبخاصة كتابه "النهاية"، فقد وصفه أهل الغريب فقالوا: "لم يعهد نظيره في بابه"².

وقال عنه ابن حجر: "ثم جمع الجميع ابن الأثير في النهاية، وكتابه أسهل تناولاً"³.

وقال عنه السيوطي: "إن النهاية في غريب الحديث للإمام ابن الأثير أجلُّ كتاب ألف في الغريب، وأجمعه للبعيد منه والقريب"⁴.

ونقل محمد بن جعفر الكتاني عن السيوطي قوله: "هو أحسن كتب الغريب، وأجمعها، وأشهرها، وأكثرها تداولاً"⁵.

وقال عنه ابن منظور: "... فرأيت أبا السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري قد جاء في ذلك بالنهاية، وجاوز في الجودة حدّ الغاية"⁶.

وقال عنه حسين نصار: "ويُعَدّ "النهاية" لدى أهل العلم من المعاصرين عمدة في بابه"⁷.

وقال عنه الشرقاوي: "هو أوفى الكتب في غريب الحديث، وأوسعها استيعاباً، وأغزرها مادة وأجودها تصنيفاً، وأحسنها ترتيباً"⁸.

¹ - النهاية (مقدمة المؤلف)، تحق: أحمد الخراط، ص 9.

² - شرح نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر، عليّ القاري، دار الأرقم، بيروت، 1994م، ص 504.

³ - نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، ابن حجر العسقلاني، تحق: عبد الله الرحيلي، مطبعة السفير، الرياض، 1422هـ، ص 122.

⁴ - النهاية، ومعه التذييل والتدنيب على ثمانية الغريب (مقدمة المحقق)، تحق: رضوان مامو، ص 33.

⁵ - الرسالة المستطرفة، الكتاني، ص 156.

⁶ - لسان العرب، ابن منظور، ص 12.

⁷ - المعجم العربي، حسين نصار، ص 60.

⁸ - معجم المعاجم، الشرقاوي ص 32.

وقال عنه **محمود الطناحي**: "وقد رُزقتِ النهايةُ الحظوةَ والقبولَ عند الناس، فغطتْ شهرتهاً على ما سبق من تصنيف، وأعجزت من أتى بعدها من المصنفين، فاقترصت جهودهم على الاختصار والتذييل"¹.

وقال في موضع آخر: "لقد انتهى إلى ابن الأثير حصاد طيب في شرح غريب الحديث، أفاد منه وأربى عليه في استقصاء معجز، ودأب مشكور، بحيث جاء كتابه بحق النهاية في هذا الفن، ولم تندّ عنه إلا أحاديث يسيرة ذكرها السيوطي في الدر النثير، والتذييل والتذنيب"².

وقال عنه **عمر علوش**-وهو أحد المعاصرين الذين ذيلوا على النهاية-: "ثم صنّف بعد هؤلاء جميعهم بارعةً مصنف الغريب، ومقرّ عين الأريب، الإمام العالم مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، صاحب النهاية كتابنا هذا الذي نبي عليه والذي غدا معول الطالبين، ومنهل المستفيدين، قد استحوذ على ضوء الأبصار، وأجلى الغريب في رابعة النهار"³.

ونحن نقول: لم يعد بعد "النهاية" في الإمكان أبدع مما كان.

9. كتبٌ صنّفت حول كتاب "النهاية":

لم يصنف أحد في غريب الحديث بعد ابن الأثير إلا ابن الحاجب (ت646هـ)، ولكنه لم يصل إلينا مصنّفه، ولا نعرف عنه شيئاً، غير أنه كان في عشر مجلدات، كذا قال حسين نصار⁴. ولقيمة كتاب "النهاية" وشهرته التي طبقت الآفاق، توالى عليه المؤلفات شرحاً ونظماً، واختصاراً وتذيلاً، واستدراكاً وتعليقاً.

¹ - في الأدب واللغة، دراسات وبحوث، محمود الطناحي، ج2، ص400.

² - ينظر: النهاية (مقدمة المحقق)، ابن الأثير، تحقيق: محمود الطناحي، ج1، ص7.

³ - الجامع في غريب الحديث، عبد السلام علوش، ص20.

⁴ - ينظر: المعجم العربي، حسين نصار، ج1، ص60.

ولعلّ أول كتاب يطالعنا في الباب هو كتاب لابن الأثير نفسه، سماه "منال الطالب في شرح طوال الغرائب"، حاول فيه المصنف -رحمه الله- أن يستكمل فيه ما أورده في كتاب "النهاية"، الذي جاءت ألفاظه مرتبة على حروف المعجم فتفرقت بها الأحاديث، إذ اعتاد ألا يذكر من الحديث إلا الجزء الذي يشتمل على لفظ الغريب، ولا يخفى أنّ الحديث إذا اجتمع في موضع واحد، ظهر وجهه، واتضحت مقاصده، بخلاف شرحه مفرقا، بحسب موضع كلّ لفظة منه، فإن ذلك يذهب بأكثر معنى الحديث وفحواه.

فكانت الغاية من وضع كتاب "منال الطالب" أن يذكر فيه متن الحديث كاملا، طويلا كان أو متوسط الطول، وقد صرح في مقدمة هذا الكتاب عن غايته من تأليفه فقال: "أحببت أن أستأنف كتابا مختصرا أجمع فيه من الأحاديث والآثار الطوال والأوساط ما أكثر ألفاظه غريبًا، ولا يفهمه أكثر الناس، ويعزّ إدراك بعضه على كثير من الخواصّ، أوردها كاملة متناسقة الألفاظ... وأتبع كلّ حديث وأثرٍ شرحٍ غريبه وتفسيرٍ معانيه"¹.

فكان ممن ذيل عليه: صفى الدين محمود الأرموي القرافي (ت723هـ)، وكذلك فعل السيوطي حين ذيل عليه بكتاب سماه كتابه: "التذليل والتذويب على نهاية الغريب" وهو مطبوع، وهو في أصله مختصر على "النهاية".

وذيل عليه عبد السلام بن محمد علوش -باحث معاصر- بكتاب سماه: "الذيل على النهاية في غريب الحديث والأثر". وله كتاب آخر سماه: "الجامع في غريب الحديث"، ويشتمل متنه على متن كتاب "النهاية" لابن الأثير إلى جانب كتب أخرى في الغريب. ونظمه شعراً إسماعيل بن محمد بن بردس البعلي المتوفى سنة 785هـ، وسماه "الكفاية في نظم النهاية".

¹ - منال الطالب في شرح طوال الغرائب (المقدمة)، مجد الدين بن الأثير، تحقق: محمود الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص3.

واختصره: عيسى بن محمد الصفوي، (ت953هـ) في قريب من نصف حجمه، وعليّ بن حسام الدين المتقي (ت975هـ)، هذا بالإضافة إلى اختصار السيوطي له في كتاب أسماه: "الدر النثير، تلخيص نهاية ابن الأثير"، وقد أضاف إليه بعض الزيادات، وهو مطبوع. وعلّق عليه إبراهيم السامرائي -وهو باحث معاصر أيضا- في كتاب أسماه: "اللؤلؤ النثير في التعليق على النهاية لابن الأثير".

11. أثر كتاب "النهاية" في غيره من كتب اللغة:

لا شك أن كتب غريب الحديث قد أسهمت بشكل واضح في بناء المعاجم اللغوية العربية، وذلك لما "قدّمته من تأصيل واسع لمفردات العربية، من حيث استعمالاتها وشواهداها، وجذورها اللغوية، ولغاتا وضبط حروفها، والتميز بين الفصح وغير الفصح منها، وما طرأ عليها من انتقال من المعنى المحسوس المحدود إلى الحضاري الواسع"¹.

وكتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" من المراجع اللغوية المهمة التي كان لها الأثر البارز في إثراء كتب العربية التي جاءت بعده، وإغنائها بمادة لغوية ثرة، "فقلّ أن تجد كتابا في اللغة أو التفسير أو الحديث، لم يأخذ "النهاية" في مصادره، ولم يعتدّها من مراجعه"²، وخير دليل على ذلك ما فعله ابن منظور في معجم "لسان العرب" حين أداره على أمّات الكتب اللغوية، وعلى رأسها كتاب "النهاية" لابن الأثير، حيث قام بتفريغه تفريفا تاما، يقول ابن منظور في مقدمة "لسان العرب": "وقصدتُ توشيحُه بجليل الأخبار، وجميل الآثار، مضافا إليه ما فيه من آيات القرآن الكريم، والكلام على معجزات الذكر الحكيم، ليتحلّى بترصيع دُرِّها عقده، ويكون على مدار الآيات والأخبار والأذكار والأمثال والأشعار حلُّه وعقده، فرأيت أبا السعادات المبارك بن محمد

¹ - النهاية (مقدمة المحقق)، تحق: أحمد الخراط، ص43.

² - في الأدب واللغة، دراسات وبحوث، محمود الطناحي، ص 428.

ابن الأثير الجزري، قد جاء في ذلك بالنهاية، وجاوز في الجودة حدَّ الغاية"¹.

ولقد عرف المتقدمون كتاب النهاية حتى صار من مصادرهم في اللغة²، ومن الذين عولوا عليه في مصنفاتهم الإمام النووي(ت676هـ)، ويظهر ذلك في كتابه "تهذيب الأسماء واللغات"، وفي شرحه على صحيح مسلم. وكذلك فعل العلامة أحمد بن علي الفيومي(ت770هـ) في معجمه الشهير "المصباح المنير في غريب الشرح الكبير"، حيث ذكر كتاب النهاية في قائمة المصادر التي اعتمدها.

ومن اللغويين الذين اعتمدوا كتاب النهاية، محمد مرتضى الزبيدي(ت1205هـ) في مصنفه الضخم "تاج العروس في شرح القاموس"، حيث قال في مقدمته: "قرعتُ ظنوب اجتهادي، واستسعت يعبوب اعتنائي، في وضع شرح عليه³... مستمداً ذلك من الكتب التي يسر الله تعالى بفضله وقوفي عليها... ونقلت بالباشرة لا بالوسائط عنها...، وأول هذه المصنفات كتاب الصحاح للإمام الجوهري...، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري"⁴، ولأن كتاب النهاية قد جمع ما تفرق في غيره من كتب الغريب، فقد صار مصدراً لغير واحد ممن ذكرنا، ولا زال كذلك إلى يوم الناس هذا.

12. طبعاته:

حظي كتاب النهاية بطبعات كثيرة، أشهرها:

- طبعة طهران، ظهرت عام 1269هـ، وتقع في مجلد واحد، وهي في 199 ورقة، غير مضبوطة بالشكل.
- طبعة المطبعة العثمانية، ظهرت عام 1311هـ.
- طبعة المطبعة الخيرية، ظهرت عام 1312هـ، وتقع في أربعة أجزاء، وطبع على حاشيتها "الدر النثير" للسيوطي، و"مفردات القرآن" للراغب الأصفهاني، وهذا الطبعة غير مضبوطة بالشكل.

¹ - لسان العرب، ابن منظور، ص12.

² - في لغة الحديث الشريف، إبراهيم السامرائي، المجلة الثقافية، الجامعة الأردنية، عمان، عدد3، 1984م، ص19.

³ - يقصد القاموس المحيط للفيروز آبادي.

⁴ - تاج العروس، الزبيدي، ص6.

● طبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة - عيسى البابي الحلبي وشركاه - ظهرت هذه الطبعة عام 1963م، قام بتحقيقها الأستاذان محمود محمد الطناحي و طاهر أحمد الزاوي معتمدين على نسختين، هما: الطبعة العثمانية السابقة، ومخطوطة دار الكتب المصرية، وتقع هذه الطبعة في خمس مجلدات، اشترك الأستاذان في تحقيق المجلدات الثلاثة الأولى، وانفرد الطناحي بتحقيق المجلدين الرابع والخامس، وهذه الطبعة أجود من سابقتها؛ لما بذل فيها من جهود معتبرة في ضبطها وفهرستها.¹

● طبعة دار الكتب العلمية، ظهرت ببيروت عام 1418هـ الموافق لـ 1997م، وهي طبعة تجارية تقع في خمسة مجلدات، مكتوب على غلافها: خرج أحاديثه، وعلق عليه: أبو عبد الرحمان بن محمد بن عويضة، والظاهر أن صاحبها اعتمد كلية على متن محمود الطناحي.

● طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بقطر، بتحقيق الدكتور أحمد بن محمد الخراط، وهي طبعة جديدة مضبوطة بالشكل ومذيبة بفهارس مفصلة، ترفل بجمال المظهر، وتزهو بصحة المخبر، وتقع في عشرة مجلدات، وهي الطبعة التي اعتمدها في بحثنا هذا.

13. سبب اختيارنا لطبعة وزارة الأوقاف القطرية بتحقيق: أحمد بن محمد الخراط:

لقد وقع اختيارنا على طبعة وزارة الأوقاف القطرية لعدة أسباب، لعل أبرزها:

- اعتماد محققها على نسخ عديدة (عشر نسخ) للوصول إلى المدونة الأصل، خلافا للطبعات الأخرى التي اعتمدت في الغالب على نسخة أو نسختين فقط.
- اختياره للفروق المهمة بين هذه النسخ، وتصحيح الكثير من الأغلط، انطلاقاً من عرض هذه النسخ على بعضها البعض، ومقارنتها فيما بينها.
- ضبطه المتن بالشكل.

¹ - ينظر: بنو الأثير، الفرسان الثلاثة، محمد بن عبد الله الحمدان، دار قيس للنشر، ط4، 1418هـ، ص34.

- ترقيم الشواهد.
- التعريف بالأعلام.
- توثيق النقول، وتخريج الأحاديث والآثار.
- وضع فهرس متعددة تعين الباحث على مدارسة الكتاب.

فقد كانت هذه الخصائص مجتمعةً كفيلاً باختيار هذه الطبعة دون أدنى تردد، إذا ما قورنت بغيرها من الطبعات، حيث بذل فيها المحقق أحمد الخراط جهداً معتبراً أخذ من وقته الكثير، جزاه الله عنا كل خير.

الفصل الرابع

منهج ابن الأثير في كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر"

المبحث الأول: كتاب "النهاية" ومبدأ الجمع.

المبحث الثاني: كتاب "النهاية" ومبدأ الوضع.

المبحث الثالث: أهم المعلومات المعجمية في كتاب "النهاية".

المبحث الرابع: منهج ابن الأثير في الاستشهاد في كتاب "النهاية".

المبحث الخامس: منهج ابن الأثير في ضبط النص المعجمي.

المبحث السادس: مآخذ على كتاب "النهاية".

منهج ابن الأثير في كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر":

سنحاول من خلال هذه الدراسة، الوقوف عند أركان التأليف المعجمي التي بنى عليها مجد الدين بن الأثير مدونته في ضوء الرؤية اللسانية الحديثة للمعجم، وذلك بالتركيز على جانبي الجمع والوضع، انطلاقاً من البحث في وحداته المعجمية كونها مداخل تجمع بين مصادر ومستويات لغوية معينة، ومن حيث هي مادة كتاب اعتمد صاحبه منهجاً محدداً في الترتيب والتعريف، مع الإشارة إلى المعلومات المعجمية المختلفة المتضمنة في ثنايا هذا الكتاب.

المبحث الأول: كتاب "النهاية" ومبدأ الجمع:

1. مصادره اللغوية وغير اللغوية:

لقد درج علماء غريب الحديث على أن يأخذ اللاحق منهم عن السابق، حتى وصل الأمر إلى ابن الأثير، فقد انتهى إليه حصاد طيب في غريب الحديث، فقلّب فيه النظر وأفاد منه كثيراً، ومن معالم منهجه أننا وجدناه "يحرص على تعيين موارده التي يستقي منها، وذلك شأن المحقق الذي يسير هذه الموارد، ويقف على أقوال صاحبها؛ لِيُمْكِنَ المُرَاجَعَةَ من مراجعة المسائل العلمية في مظانّها، ويدرس ما هو مبثوث فيها من أقوال"¹، حيث صرّح ببعض المصادر التي أخذ عنها مادته في مقدمته على النهاية، على غرار كتاب **المجموع المغيث في غربي القرآن والحديث** لأبي موسى المدني (ت586هـ)، وكتاب **الغريبين** لأبي عبيد الهروي (ت401هـ)، هذين الكتابين اللذين أدار عليهما كتابه، وألح إلى البعض الآخر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

ويمكننا تقسيم هذه المصادر إلى مجموعات، هي:

- مجموعة كتب السنن والغرائب، قديمها وحديثها.
- مجموعة كتب الحديث المدونة في أول الزمان وأوسطه وآخره من المسانيد والمجاميع.
- مجموعة كتب اللغة على اختلافها وتنوعها.

¹ - النهاية (مقدمة المحقق)، تحق: أحمد الخراط، ص 37.

وكان قد أشار إلى هذه المجموعات في مقدمة كتابه إجمالاً، حيث قال: "أمعنت النظر، وأنعمت الفكر في اعتبار الكتابين (يقصد كتابي الهروي والمديني)، فوجدتهما قد فاتهما الكثير الوافر، فإني مرّ بذكري كلمات غريبة من غرائب أحاديث كتب الصحاح كالبخاري ومسلم، لم يرد شيء منهما في هذين الكتابين، فحيث عرفت ذلك تنبعت لأعتبر غير هذين الكتابين من كتب الحديث المدونة؛ المصنفة في أول الزمان وأوسطه وآخره، فتبعتها، واستقرت ما حضرنى منها، واستقصيت مطالعتها من المسانيد والمجاميع، وكتب السنن والغرائب، قديمها وحديثها، وكتب اللغة على اختلافها... وأضفت ما عثرت عليه، ووجدته من الغرائب، إلى ما في كتابيهما في حروفها من نظائرها، وأمثالها"¹.

1.1.1. كتب غريب الحديث:

- كتاب "غريب الحديث" لأبي عبيدة معمر بن المثنى: وهو كتاب مفقود، ذكره ابن الأثير في موضعين، أمّا الأول²، فكان أثناء شرحه لمادة (شقاشق) الواردة في حديث: «إن كثيراً من الخطب من شقاشق الشيطان»، وأمّا الثاني³ فكان في شرحه لكلمة (الملا) الواردة في حديث: «أحسنوا الملا، كلّمكم سيروى».
- كتاب "غريب الحديث" لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت224هـ). أخذ عنه في مواطن كثيرة، وكما رأينا، فقد امتدح كتابه كثيراً في مقدمته على "النهاية"، ومن تلك النقول ما ذكره أثناء شرحه للفظ (حلّ) الذي ورد في حديث: «أحلّ بمن أحلّ بك»، حيث قال: والذي جاء في كتاب أبي عبيد عن النخعي في المُخْرِمِ يعدو عليه السبع أو اللّص. وذكر الحديث⁴.

¹ - النهاية (مقدمة المحقق)، تحق: أحمد الخراط، ص 17، 18.

² - النهاية، تحق: أحمد الخراط: 2191/5.

³ - المصدر نفسه: 3979/9.

⁴ - المصدر نفسه: 999/3.

- كتاب "غريب الحديث" لابن قتيبة. أخذ عنه كثيرا، وامتدحه في مقدمته، غير أنه كان يذكره بالاسم دون أن يصرح بكتابه إلا مرة واحدة، وذلك حين تكلم عن حديث استسقاء عمر: «حتى رأيت الأرنبة تأكلها صغار الإبل»، فقال ابن الأثير: "وفي حدّ معناها قولان ذكرهما القتيبي في غريبه"¹، ويقصد بالقتبي: ابن قتيبة.
- كتاب "غريب الحديث" لإبراهيم بن إسحاق الحرابي (ت258هـ)، وهو أحد المصادر التي أخذ عنها ابن الأثير في مواطن كثيرة نذكر منها: شرحه للفظ (يقرع) في حديث علقمة: «أنه كان يُقَرَّعُ غنمه ويحلب ويعلف»، حيث قال: "أي ينزي عليها الفحول، هكذا رواه الهروي بالقاف والزحشري، وقال أبو موسى: (هو بالفاء، وهو من هفوات الهروي) ... ومع هذا فقد رواه الحرابي بالقاف، وشرحه بذلك"².
- كتاب "غريب الحديث" لأبي محمد القاسم بن الأنباري (ت328هـ)، ذكره في سياق شرحه للفظ (قُلْعًا) الواردة في حديث ابن أبي هالة في صفته عليه السلام: «إذا زال، زال قُلْعًا»، حيث قال: "يروى بالفتح والضم... وقال الهروي: قرأت هذا الحرف في كتاب غريب الحديث لابن الأنباري"³.
- كتاب غريب الحديث لأبي سليمان الخطابي، وهو أحد الكتب الثلاثة التي امتدحها ابن الأثير في مقدمته: غريب أبي عبيد القاسم بن سلام، وغريب ابن قتيبة، وغريب الخطابي، حيث نعتها بأنها أمهات الكتب في غريب الحديث والأثر، وقد أخذ عنه في مواضع كثيرة، منها مثلا: شرحه لكلمة (الدَّمان) الواردة في حديث: «كانوا يتبايعون الثَّمارَ قبل أن يبدو صلاحُها، فإذا جاء التقاضي قالوا: أصابَ الثمرَ الدَّمانُ»، قال ابن الأثير نقلا عن الهروي: "هو بالفتح وتخفيف الميم: فسأدُ الثمر وعفنه قبل إدراكه" ثم قال: "والذي جاء

¹ - النهاية: 99/1.

² - النهاية: 3363/7، 3364.

³ - النهاية: 8 / 3480.

في غريب الخطابي بالضمّ، وكأنه أشبهه؛ لأن ما كان من الأدواء والعاهات فهو بالضم، كالسُّعال، والتَّحاز والزَّكام¹.

● كتاب "الغريبين" لأبي عبيد الهروي (ت401هـ). وهو أحد الكتابين الذين أدار عليهما ابن الأثير كتاب النهاية، وفرغه تفرّغاً كاملاً بعد أن جرده من غريب القرآن، وقد أشار إلى ذلك في مقدّمته، وميّز ما اقتبسه منه بالحرف (ه).

● كتاب "غريب الحديث" للحميدي، وهو كتاب مفقود، وذكره ابن الأثير في مواضع منها: حديثه عن لفظة (خشعنا) في حديث جابر رضي الله عنه: «أنه أقبل علينا فقال: أيكم يجب أن يعرض الله عنه؟ قال: فخشعنا» قال ابن الأثير: "أي خشينا وخضعنا... والذي جاء في كتاب مسلم (فجشعنا) بالجيم، وشرحه الحميدي في غريبه فقال: الجشع: الفرع والخوف"².

● كتاب "الفائق في غريب الحديث"، وكتاب "الكشاف" للزمخشري، أخذ ابن الأثير عن الفائق في مواضع عديدة تزيد على مئة وثمانين موضعاً³، ولكنه لم يصرح به إلا في عشرة مواضع، إنما كان يكتفي بالعزو إلى الزمخشري بعبارة: (قال الزمخشري). وأخذ عن الثاني في موضع واحد فقط، وربما نقل عنهما في موضع واحد معاً، وذلك في حديثه عن قوله عليه السلام: «أتاكم أهل اليمن أرقّ قلوباً وأبجع طاعة» قال ابن الأثير: «قال الزمخشري: هو من بجع الذبيحة، إذا بالغ في ذبحها، وهو أن يقطع عظمة رقبتها، ويبلغ بالذبح البخاع بالباء، وهو العرق الذي في الصلب، والنخع بالنون دون ذلك، وهو أن يبلغ بالذبح النخاع، وهو الخيط الأبيض الذي يجري في الرقبة، هذا أصله، ثم كثر حتى استعمل في كل مبالغة،

¹ - النهاية: 1411/4.

² - النهاية: 1173/3، 1174.

³ - الموازنة بين "الفائق" للزمخشري و"النهاية" لابن الأثير (غير مطبوع)، إبراهيم بن عبد الله المديهي، المكتبة الشاملة، النشرة الأولى،

1436هـ، ص6. الرابط: <https://shamela.ws/book/145425/39>

هكذا ذكره في كتاب الفائق في غريب الحديث، وكتاب الكشاف في تفسير القرآن، ولم أجده لغيره¹.

• كتاب "المجموع المغيث في غربي القرآن والحديث" لأبي موسى المدني، وهو الكتاب الثاني الذي قام بتفريغته في معجمه كاملاً، ورمز إلى ما أخذه منه بالحرف (س).

2.1. كتب الحديث والسنة:

• كتاب صحيح البخاري، ورد ذكره في مواطن كثيرة من النهاية، وقد أشار إليه ابن الأثير في مقدمته، وذكر كيف أنه وجد فيه من الغريب الكثير مما فات الهروي وأبا موسى المدني في كتابيهما الذين أدار عليهما كتابه، ومن تلك المواطن حديثه عن كتاب النبي عليه السلام إلى هرقل: «فإن أبيت فعليك إثم الأريسيين»، قال ابن الأثير: قد اختلف في هذه اللفظة صيغة ومعنى: فروي: الأريسين بوزن: الكرميين، وروي: «الإريسين بوزن الشرييين، وروي: الأريسيين بوزن العظييين، وروي بإبدال الهمزة ياءً مفتوحة في البخاري².

• كتاب صحيح مسلم، ويقال عنه ما قيل عن صنوه كتاب صحيح البخاري، ومن المواضع التي ذكره فيها ابن الأثير، قوله: "وقد جاء في صحيح مسلم: «لا أيقنُ بحديثه»، أي: لا أعجبُ، وهي كذا تروى³.

• كتاب سنن أبي داود، نقل عنه ابن الأثير في مواضع كثيرة، منها ما ذكره في شرح كلمة (أرن) التي وردت في حديث رسول الله ﷺ: «أرن، أو اعجل ما أهر الدم» فقال: "... فيكون معناه: أهلكها ذبحاً، وأزهق نفسها بكل ما أهر الدم غير السن والظفر". على ما رواه أبو داود في السنن: بفتح الهمزة وكسر الراء وتسكين النون⁴.

¹ - النهاية: 246/1.

² - النهاية: 89/1.

³ - النهاية: 182/1.

⁴ - النهاية: 97/1.

- كتاب سنن النسائي، ذكره في مواضع منها: حديث جرير وذِكْرُ الصَّدَقَةِ: «حتى رأيتُ وجهَ رسولِ اللهِ ﷺ يتهلل كأنه مُدْهَبَةٌ»، قال ابن الأثير: "هكذا جاء في سنن النسائي"¹.
- كتاب معالم السنن للخطابي، أشار إليه ابن الأثير في أكثر من موضع، من ذلك حديثه عن قول رسول الله ﷺ: «حافثاه الياقوت المجيب»، حيث قال: والذي جاء في "معالم السنن": «المجيب أو المجوب» بالباء فيهما على الشك.²
- كتاب أعلام السنة لأبي سليمان الخطابي، وهو كتاب مفقود، ذكره في موضع واحد، وذلك في سياق حديثه عن قول رسول الله ﷺ: «من صلّى نائماً فله أجرُ القاعد»، فنقل كلاماً للخطابي، ثم قال: هكذا قال الخطابي في معالم السنن، وعاد فقال في أعلام السنة، ثم ساق كلاماً آخر للخطابي.³
- كتاب شرح السنن للخطابي، ذكره ابن الأثير مرة واحدة، وذلك في أثناء كلامه عن حديث: «أنه مرّ على أرض تسمى عَفْرَةَ، فسَمّاها خضرة» حيث قال: كذا رواه الخطابي في "شرح السنن"⁴. ولعلّه هو نفسه كتاب معالم السنن أو أعلام السنة للإمام الخطابي، وذلك بمقارنة الكتابين في الموضع نفسه.
- مسند إسحاق بن راهويه، نقل عنه في موضع واحد وذلك في خلال كلامه عن حديث: «إنّ كلماته بلغت ناعوس البحر» قال ابن الأثير: هكذا وقع في صحيح مسلم، وفي سائر الروايات: (قاموس البحر)... وليست هذه اللفظة أصلاً في مسند إسحاق الذي روى عنه

¹ - النهاية: 1499/4.

² - النهاية: 773/2.

³ - النهاية: 4299/10.

⁴ - النهاية: 2815/6.

مسلم هذا الحديث¹. وإسحاق هذا هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد، المعروف بابن راهويه، توفي عام 238 هـ.²

- مسند أحمد بن حنبل، وهو الآخر كان له نصيب في اعتماد ابن الأثير عليه في توثيق بعض الروايات والزيادات وغيرها، فقد نقل عنه في مواضع، منها، كلامه عن حديث «من أخرج صدقته، فلم يجد إلا بزئياً، فيردها» قال ابن الأثير: هكذا جاء في مسند أحمد بن حنبل³.
- كتاب المعجم الأوسط للطبراني، نقل عنه في مواضع، ذكر أحدها في سياق كلامه عن حديث عليّ وذكر بناء الكعبة «فبعث الله السكينة، وهي ريح خجوج، فتطوقت بالبيت» قال ابن الأثير: هكذا قال الهروي... وفي كتاب المعجم الأوسط للطبراني عن عليّ: أن النبي ﷺ قال: «السكينة ريح خجوج»⁴.
- وفي كلامه عن قول عليّ ﷺ: «شرُّ بئر في الأرض برهوت» قال: «أخرجه الهروي عن عليّ ﷺ، وأخرجه الطبراني في المعجم عن عبد الله بن عباس ﷺ»⁵. يقصد المعجم الأوسط.
- كتاب المعجم الكبير للطبراني، أشار إليه في معرض كلامه عن حديث سُراقَة: «تمعّصتِ الفرس» قال ابن الأثير: "قال أبو موسى: هكذا روي في المعجم، ولعله من هذا"⁶.
- موطأ الإمام مالك. ذكره في مواضع منها كلامه عن حديث: «أنه نهي عن بيع المضامين، والملاقيح» قال ابن الأثير: "المضامين ما في أصلاب الفحول، وهي جمع مضمون. يقال:

¹ - النهاية: 4196/9.

² - ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج 11، ص 358.

³ - النهاية: 300/1.

⁴ - النهاية: 1119/3.

⁵ - النهاية: 295/1.

⁶ - النهاية: 3960/9.

ضمين الشيء، بمعنى تضمّنه. ومنه قولهم: مضمون الكتاب كذا وكذا. والملاقيح: جمع مَلقوح، وهو ما في بطن الناقة. وفسّرهما مالك في الموطأ بالعكس¹.

- كتاب سنن الترمذي، ونقل عنه في مواضع منها حديث البراء يوم حنين: «انطلق جُفَاءً من الناس إلى هذا الحيّ من هوازن» قال ابن الأثير: أراد سرعان الناس وأوائلهم... والذي قرأناه في كتاب البخاري ومسلم: «انطلق أخفّاء من الناس» جمع خفيف. وفي كتاب الترمذي: «سرعان الناس»².

3.1. كتب اللغة والنحو:

- العين للخليل، والكتاب لسيبويه، نقل عنهما ابن الأثير في مواضع، وربما جمعهما في موضع واحد، كما هو الشأن في كلامه عن حديث: «ليس في الإكسال إلا الطهور» حيث قال: "أكسل الرجل: إذا جامع، ثم أدركه فتور، فلم يُنزل. ومعناه صار ذا كسل. وفي كتاب العين: "كسِلَ الفحل، إذا فتر عن الضراب، وأنشد³:

أإن كسلتُ والحصانُ يكسلُ

ومعنى الحديث: ليس في الإكسال عُسل، وإنما فيه الوضوء. وهذا على مذهب من رأى أنّ الغسل لا يجب من الإنزال، وهو منسوخ. والطهور هاهنا يروى بالفتح، ويراد به التطهر. وقد أثبت سيبويه: الطهورَ والوضوءَ والوقود، بالفتح في المصادر⁴.

- الكامل للمبرد، ذكره في موضع واحد فقط، وذلك عند حديثه عن قول عبد الله بن خباب: «قتلته الخوارج على شاطئ نهر، فسال دمه في الماء فما امذقر» قال ابن الأثير: وذكر المبرد هذا الحديث في الكامل، قال: "فأخذوه، وقربوه إلى شاطئ النهر: فذبحوه، فامذقر دمه،

¹ - النهاية: 2483/6.

² - النهاية: 665/2.

³ - البيت للعجاج، وتماه: (عن السّفاد وهو طرف هيكلي)، ذكره ابن منظور في اللسان، مادة (كسل)، ج45، ص3878.

⁴ - النهاية: 3626/8.

أي: جرى مستطيلاً متفرقاً، هكذا رواه بغير حرف النفي، ورواه بعضهم بالباء، وهو بمعناه¹.

● **المجمل** لابن فارس (ت395هـ)، صرح بذكره في موضع واحد فقط، وذلك عند كلامه على حديث: «ثم انكفأ إلى كبشين أملحين، فذبحهما، وإلى جُرَيْعَةَ من الغنم، فقسمها بيننا» قال ابن الأثير: الجُرَيْعَةُ: القطعة من الغنم...والذي جاء في "المجمل" لابن فارس بفتح الجيم وكسر الزاي، قال: هي القطعة من الغنم، كأنها (فَعِيلَة) بمعنى (مَفْعُولَة)، وما سمعناها في الحديث إلا مصعرة².

● **النوادر** لابن الأعرابي، أشار إليه في موضع واحد، وذلك أثناء كلامه عن حديث: «اجتاز النبي ﷺ بِنِسْوَةٍ فَقَالَ: أَظَنُّكَ مَقْلَمَاتٍ». قال ابن الأثير: أي ليس عليك حافض، كذا قال ابن الأعرابي في نوادره³.

● **الصحاح** لإسماعيل بن حماد الجوهري، و"تهذيب اللغة" لأبي منصور الأزهري، ذكرهما ابن الأثير في مقدمة النهاية كمصدرين من مصادره التي اعتمدها، ورغم أنه أخذ عنهما في مواطن كثيرة، إلا أنه لم يصرح بذلك إلا في ثلاثة منها، وربما نقل عنهما في الموضع الواحد، من ذلك كلامه عن حديث عمر رضي الله عنه: «أنه سأل رجلاً استهوته الجن، فقال ما كان طعامكم؟ قال: الفول، وما لم يذكر اسم الله عليه. قال: فما كان شرابكم؟ قال: الجدف» قال ابن الأثير: الجدف بالتحريك: نبات يكون باليمن... وقال القتيبي: أصله من الجَدْف: القطع... والذي جاء في صحاح الجوهري: أنّ القطع هو الجَدْف، بالذال المعجمة، ولم يذكره في الدال المهملة. وأثبتته الأزهري فيهما⁴.

¹ - النهاية: 3901/8، 3902.

² - النهاية: 643/2.

³ - النهاية: 3487/8.

⁴ - النهاية: 593/2، 594.

4.1. مصادر أخرى:

يبدو أن ابن الأثير رجل موسوعي، برع في علوم شتى، فتجده مرة محدثاً ومرة شاعراً، ومرة فقيهاً، ومرة لغوياً مبرزاً، ومرة نحويًا متضلعا، ومرّد ذلك إلى نباهته وفطنته، وتوسعه في الطلب، ويشهد له بذلك مصنفاته المتنوعة، وهذا ما يفسر كثرة مصادره في "النهاية" وفي غيرها، إذ لم يكتب بكتب غريب الحديث وكتب السنة وكتب النحو واللغة، بل تعداها إلى غيرها من العلوم، ككتب العقيدة والتفسير والسيرة والتراجم والأعلام والطب وغيرها.

ومن المصادر التي نقل عنها غير ما سبق: كتاب "الأم" للشافعي¹، وكتاب "لغة الفقه" للأزهري²، وكتاب "الإبانة في أصول الديانة" لابن بطة³، وكتاب "ما قالت القرابة في الصحابة" للإمام الدارقطني⁴، وكتاب "المؤتلف والمختلف" للدارقطني أيضا⁵، وكتاب "الأمكنة" للزمخشري⁶، وكتاب "الأموال" لأبي عبيد القاسم بن سلام⁷، وكتاب "المنهاج في الطب" لمجهول⁸، وكتاب "التتمة" لمجهول⁹، وكتاب "الموازنة" لحمزة بن الحسن الأصفهاني¹⁰.

ومما يلاحظ على قائمة المصادر التي اعتمدها ابن الأثير أنها كثيرة ومتنوعة، وفي ذلك دليل على سعة اطلاعه، ونقل ابن الأثير عنها يدل على أنه وضع يده على كثير من المراجع التي لم تصلنا، رغم أنه في بعض المواضع لا يصرح بمن ينقل عنهم، بل يكتب في عبارات يكتنفها الإبهام، كقوله مثلا:

¹ - ينظر: النهاية: 2091/5.

² - ينظر: المصدر نفسه.

³ - النهاية: 2628/6.

⁴ - ينظر: المصدر نفسه.

⁵ - ينظر: المصدر نفسه.

⁶ - ينظر: النهاية: 3293/7.

⁷ - ينظر: النهاية: 90/1.

⁸ - ينظر: النهاية: 3187/7.

⁹ - ينظر: النهاية: 1120/3.

¹⁰ - ينظر: النهاية: 1893/5.

(رواه بعض المتأخرين)، و(قال بعض المتأخرين)، وعبارة (وفي كتب بعض المتأخرين)، و(قال بعض أهل العلم).¹

وترى هذا الإبهام في الإحالة ساريا في كل كتبه تقريبا؛ وإن قلّت مواضعه، بل ربما نقل عن بعض الكتب دون تصريح أو حتى أدنى تلميح، كما فعل مع كتب الزمخشري والإمام الخطابي، فتارة يذكر اسميهما، وتارة ينقل عنهما دون تصريح، رغم أنه نقل عنهما كثيرا.²

2. مستويات المادة المعجمية في كتاب "النهاية":

كان العرب يعتمدون على سليقتهم وسجيتهم في فهم معاني القرآن ومعاني الحديث النبوي الشريف، فهُم أصحاب اللسان وأساطين البيان، كيف وقد نزل القرآن على طريقتهم في الكلام، وتحدث النبي ﷺ بلسانهم، فهو واحدٌ منهم، يقول أبو عبيدة: "فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحي النبي ﷺ أن يسألوا عن معانيه؛ لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه"³.

بيد أن هذه السليقة أصابها ما أصابها بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأجناس، "حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يُعدُّ لحنًا مردودًا، وصار النطق بالعربية من المعايير معدودًا"⁴، فاحتاج الناس إلى المسألة عن معاني كثير من الألفاظ والعبارات التي وردت في أحاديث النبي ﷺ وصار عسيرا على الناس استيعابها.

¹ - ينظر: النهاية: مادة (جزا)، 646/2، مادة (حرت): 847/3، مادة (غور): 2997/7، مادة (فقر): 3222/7، مادة (نسج): 4128/9.

² - ينظر: في اللغة والأدب، دراسات وبحوث، محمود الطناحي، ص 417.

³ - مجاز القرآن، أبو عبيدة (معمّر بن المثنى)، تحق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1954م، ج 1، ص 8.

⁴ - مقدمة لسان العرب، ص 13.

وهذا الغريب الذي عسر فهمه، قد تأتيه الغرابة نتيجة لاستعمال الرسول ﷺ له بدلالات ربما خفيت على خاصة الناس بله عامتهم، لنقص في معرفتهم بكلام العرب أو لهجات بعض القبائل، "فهم مختلفون في ذلك على تفاوت ما بين طبقاتهم في اللغات، وعلى اختلاف مواطنهم، فمنهم الفصيح والأفصح، ومنهم الجاني والمضطرب، ومنهم ذو اللوثة والخالص في منطقته، إلى ما كان من اشتراك اللغات وانفرادها بينهم، وتخصص بعض القبائل بأوضاع وصيغ مقصورة عليهم، لا يساهمهم فيها غيرهم من العرب، إلا من خالطهم أو دنا منهم دنو المأخذ"¹.

لقد كان النبي ﷺ يعلم ذلك كله، كيف وقد ملك ناصية اللغة وأحاطها بها، حتى كأنها تبوح له بأسرارها، وتُسفر عن حقائقها، فكان يخاطب كل قوم بلسانهم، "ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابا، وأسدهم لفظا، وأبينهم عبارة، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب، لذلك قال علماء الغريب: إن هذه الغرابة التي تكون في حديث النبي ﷺ لا تخلّ بالفصاحة أبدا، لأنه عليه السلام نشأ وتقلب في أفصح القبائل وأخلصها منطلقا، وأعدبها بيانا، فكان مولده في بني هاشم، وأخواله في بني زهرة، ورضاعه في سعد بن بكر، ومنشؤه في قريش، ومتزوجه في بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو، وهم الأوس والخزرج من الأنصار، لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة، ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة، ولذا قال ﷺ: «أنا أفصح العرب، بيد أبي من قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر»².

فقد أوتي النبي ﷺ جوامع الكلم كما قال هو عن نفسه، وكما قالت عنه عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله ﷺ يحدث حديثا لو عدّه العادّ لأحصاه". وفي رواية: "ما كان رسول الله يسرد كسر دكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام فصل بين، يحفظه من جلس إليه"³.

¹ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2003م، ص 229

² - المرجع نفسه، ص 231.

³ - المرجع نفسه، ص 239.

لذلك صار ما اصطلاح على تسميته بغريب الحديث ينتظم كلمات وعبارات من مستويات لغوية متعددة هي:

- المستوى العام للفصحى التي تكلم بها النبي الكريم ﷺ.
- كلمات ذات استعمال لهجي معين تختص به قبيلة معينة.
- كلمات أجنبية اقترضتها العربية من اللغات التي احتكت بها قبل الإسلام واستخدمها النبي ﷺ، لأنها أصبحت جزءاً من الثروة اللفظية للعربية باعتبار الاستعمال لا باعتبار الأصل.

أما عن المستوى العام للفصحى التي تكلم بها النبي الكريم ﷺ، فإن علماء الغريب لم يصلوا بين غريب الحديث والفصاحة عند دراستهم هذا النوع من الغريب، لأنهم انطلقوا من مسلمة أن فصاحة النبي عليه السلام لا تضاهيها فصاحة بعد القرآن الكريم، خاصة ما ثبت لفظه من الأحاديث عن النبي ﷺ، إذ لا يخفى أن له عليه الصلاة والسلام في الفصحى رتبة بعيدة المرتقى، حتى أثرت عنه ألفاظ كثيرة لم تُسمع من العرب قبله، "ولم يتفق لأحد مثلها في حسن بلاغتها، وقوة دلالتها، وغرابة القريحة اللغوية في تأليفها، وتنضيدها، وكلها قد صار مثلاً"¹، من ذلك عبارة «مات حتف أنفه» التي وردت في حديث: «من مات حتف أنفه في سبيل الله فهو شهيد»، قال ابن الأثير: "هو أن يموت على فراشه، كأنه سقط لأنفه فمات. والحتف: الهلاك"².

ومن ذلك قوله عليه السلام في حديث حنين: «الآن حمي الوطيس»، قال ابن الأثير: "الوطيس: شبه التنور، وقيل: هو الضراب في الحرب، وقيل: هو الوطاء الذي يطسُّ الناس أي: يدُقُّهم"³.

¹- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص 253.

²- النهاية: 803/2.

³- النهاية: 4448/9، 4449.

وقوله في حديث الفتنة: «هُدْنَةٌ عَلَى دَخْنٍ»، قال ابن الأثير: "الهدنة: السكون، والهدنة: الصلح والموادعة بين المسلمين والكفار، وبين كل متحاربين. يقال: هَدَنْتُ الرجلَ وأهدنْتُهُ إذا سَكَنْتَهُ، وهدن هو، يتعدى، ولا يتعدى، وهدانه مهادنة: صالحه، والاسم منها الهدنة"¹. وقال مصطفى صادق الرافعي معلقاً: "وهذه العبارة لا يعدلها كلام في معناها، فإنَّ فيها لوثاً من التصوير البياني لو أذيت له اللغة كلها ما وَفَتْ به، وذلك أن الصلح إنما يكون موادعة ولينا، وانصرافاً عن الحرب، وكفّاً عن الأذى؛ وهذه كلها من عواطف القلوب الرحيمة، فإذا بني الصلح على فساد، وكان لعلّة من العلل، غلب ذلك على القلوب فأفسدها، حتى لا يسترخ غيره من أفعالها، كما يغلب الدخن على الطعام، فلا يجد آكله إلا رائحة هذا الدخان، والطعام من بعد ذلك مشوب مُفسد"².

وهذه عبارات أخرى ابتدعها النبي ﷺ ولم تسمع من أحد قبله، ولم يشاركه في مثلها أحد بعده، ولا يكاد يعدلها في معناها شيء، منها قوله: «كَلَّ أَرْضَ بِسْمَاتِهَا» وقوله: «يا خيل الله اركبي»، وقوله: «لا ينتطح فيها عنزان»، وقوله: «رفقا بالقوارير»، وقوله: «هذا يوم له ما بعده»، وفيها من الغريب ما هو ظاهر.

كان هذا على مستوى العبارات والتراكيب، أما على مستوى المفردات، فقد لامست الغرابة كثيراً من المفردات النبوية، حيث كان العرب أنفسهم يسألونه عن معانيها ويعجبون لتفرده بها وهو عربيٌّ مثلهم، ولم يخرج من بين أظهرهم، "حتى لقد قال له عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد سمعه يخاطب وفد بني نهد: يا رسول الله، نحن بنو أب واحد، ونراك تُكَلِّم وفود العرب بما لا نفهم أكثره، فقال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي، ورؤيتُ في بني سعد»"³. ومن ذلك قوله لأبي تيممة الهجيمي: «إياك والمخيلة»، فقال: يا رسول الله، نحن قوم عرب، فما المخيلة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «سَبَلُ الإِزَارِ»، ومنه حديث: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خَيْلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ»، قال ابن الأثير:

¹ - النهاية: 4549/10

² - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص 263، 264.

³ - النهاية: 6/1.

الخِيَلَاءُ والخِيَلَاءُ-بالضَّم والكسر-الكِبْرُ والعُجْبُ. يقال: اختال، فهو مختال. وفيه خِيَلَاءٌ ومَخِيلَةٌ، أي كِبْرٌ¹.

أما عن لغات العرب التي تكرر اتصالها بأحاديث النبي ﷺ وأخباره، فمن عجيب أمره عليه الصلاة والسلام أنه كان يخاطب وفود القبائل العربية بلغاتهم التي لم تكن قريش تعلم كثيرا منها، أو تهتدي إلى معانيها، فكان يفهم عنهم مرادهم، ويردّ عليهم على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، بل ويخاطبهم بلحونهم، ولا يكاد يتجاوز مناطقهم وأساليبهم فيما يريد أن يخاطبهم به، ومن ذلك كُتُبُهُ التي كان يملئها ويبعث بها إلى تلك القبائل، والتي كانت مليئةً بالغرائب ألفاظا وعبارات، "وهي ألفاظ خاصة بهم وبمن يداخلهم ويقاربهم، ولا تجوز في غير أرضهم، ولا تسير عنهم فيما يسير من أخبارهم، ولا تأتلف مع أوضاعهم اللغة القرشية"².

وهذه بعض كتبه إلى بعض القبائل العربية وشيوخها تشهد بذلك، من ذلك كتابه إلى وائل ابن حُجْر الحضرمي، أحد أقبال حضرموت وكتابه إلى همدان، وكلامه مع ذي المشعار الهمداني، وحديثه إلى طهفة النهدي، وقطن بن حارثة العليمي، والأشعث بن قيس، وغيرهم من رجال اليمن، قد أحصاه أهل الغريب في مصنفاتهم وشرحوه.

ومّا جاء في كتابه ﷺ إلى وائل بن حُجْر الحضرمي، قوله: «إلى الأقبال العباهلة والأرواح المشاييب، من أهل حضرموت، بإقام الصلاة المفروضة، وأداء الزكاة المعلومة، عند محلّها، على التّبعة شاةً لا مُقَوِّرة الألياط، ولا ضنّك، وأنطوا التّبجّة، وفي السّيوب الخمس، ومن زنى ممّ بكرٍ فاصقوه مائة، واستوفضوه عاما، ومن زنى ممّ ثيبٍ فضرّجوه بالأضاميم، ولا توصيم

¹ - النهاية: 1308/3.

² - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافي، ص255.

في الدين، ولا غُمة في فرائض الله تعالى، لكلّ عشرة من السرايا ما يحملُ القِرابُ من التّمير،
ووائل بن حجر يترقّل على الأقيال، أمير أمره الله فاسمعوا وأطيعوا»¹.

وكان ابن الأثير قد ذكر هذا الحديث على طوله في كتاب "منال الطالب"، ثم أتى على شرح غرائب، أمّا في كتاب "النهاية"، فقد اكتفى بذكر غرائب، مفرقة على مواضعها من الكتاب، ثم شرحها وفسر معانيها، على نسق ألفاظ الحديث على النحو التالي: الأقيال²: جمع قَيْل، وهو أحد ملوك حَمير، دون الملك الأعظم، ويروى بالواو. العباهلة³: الذين أُقِرّوا على ملكهم، فلم يزالوا عنه. الأرواع⁴: الذين يروعون الناس بحسن المنظر وجمال الهيئة والشارة، واحدهم رائع. المشاييب⁵: جمع مشبوب، وهو الزاهر المستنير الوجه. محل الزكاة: الوقت الذي تجب فيه التبعة⁶: الأربعون من الغنم، تطلق على أدنى ما تجب فيه الصدقة من الحيوان. المقوّرة الألباط⁷: المسترخية الجلود. الضنّاك⁸: المكتنزة اللحم، يريد أن شاة الصدقة لا يؤخذ منها الرديء ولا النفيس، بل تكون وسطا. أنطوا⁹: من الإعطاء لغة يمانية، أي: أعطوا، إذ يبدلون العين نونا. الشبجة¹⁰: الوسط. السيوب¹¹: الركاز، وهو المال المدفون في الجاهلية، أو المعدن جمع سيب وهو العطاء. مم بكر، ومم ثيب: أي من بكر ومن ثيب،

¹ - منال الطالب في شرح طوال الغرائب، مجد الدين بن الأثير، ص 64.

² - النهاية: 3544/8.

³ - النهاية: 2639/6.

⁴ - النهاية: 1731/4.

⁵ - النهاية: 2579/5.

⁶ - النهاية: 487/2.

⁷ - النهاية: 3519/8.

⁸ - النهاية: 2485/6.

⁹ - النهاية: 4188/9.

¹⁰ - النهاية: 495/2.

¹¹ - النهاية: 2065/5.

وهي لغتهم في إبدال النون ميماً، الصقع¹: الضرب على الرأس. ضرجوه بالأضاميم²: دمّوه بالضرب. لا توصيم³: لا تفتروا ولا تُحَابُوا. العُمة⁴: من غمّه إذا ستره وغطّاه. يترفل⁵: يتسوّد ويترأس.

وقد نقل هذه المكاتبات والمراسلات التي تمّت بين الرسول ﷺ ووفود العرب ضياء الدين ابن الأثير (ت637هـ) في "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"، وابن عبد ربه الأندلسي (ت328هـ) في "العقد الفريد"، وغيرهما من أصحاب التراجم والسير. وكلّ ما ورد فيها من غريب، شرحه وفسّر معانيه مجد الدين بن الأثير في مواضعه من كتاب "النهاية"، أو في كتابه "منال الطالب"، فمن أرادته فليتمسه هناك.

ولما كانت القبائل العربية تتفاوت لغاتها من حيث الفصاحة، فقد عني ابن الأثير في كتاب "النهاية" كغيره من اللغويين ببيان ذلك، فكان يشير في سياق شرحه لغرائب الحديث إلى لغات القبائل العربية المتصلة به، ونسبة كل لغة إلى قبيلة بعينها، وربما استشهد ببعض ما ورد في تلك اللهجات على تقرير أحكام بعض الألفاظ كإثبات وجودها في اللغة، أو ضبط نطقها، أو تحديد معناها.

ومن المواضع التي أشار فيها المصنف -رحمه الله- إلى بعض اللهجات العربية ما ورد في مادة (ج ز ا)، وفيها حديث صلاة الحائض: «قد كُنَّ نساءُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يَحْضُنَ فَأَمَرَهُنَّ أَنْ يَجْزِينَ»، حيث قال: "أي: يَفْضِينَ. قال الجوهري: "وبنو تميم يقولون: أجزأت عنه شاةً، بالهمز. أي: قَضَتْ"⁶.

¹ - النهاية: 2351/5.

² - النهاية: 2438/6.

³ - النهاية: 4430/9.

⁴ - النهاية: 3068/9.

⁵ - النهاية: 1663/4.

⁶ - النهاية: 646، 645/1.

وفي مادة (ح و ب) عَرَضَ لحديث: «واغفر لنا حُوبَنَا»، فقال: "أي: إثمنا، وتفتح الحاء وتضمّ، وقيل: الفتح لغة الحجاز، والضم لغة تميم"¹. بمعنى أنّ الحجازيين يقولون: (الحُوب) بفتح الحاء، والتميميّين يقولون: (الحُوب). وقد ذكر هذا الإمام الأزهري في كتابه: تهذيب اللغة².

ومن المواضع التي حكّم فيها ابن الأثير على فصاحة بعض الألفاظ من عدمها ما ذكره في مادة (أ م ر)، وفيها حديث: «آمروا النساء في أنفسهن»، حيث قال: "أي: شاوروهنّ في تزويجهن. ويقال فيه: وامرته، وليس بفصيح"³.

وربما حكّم على بعض اللغات التي قيلت إزاء لغة الحديث بغير الفصاحة، لكنه لا ينسب هذه اللغة إلى قبيلة بعينها. من ذلك مثلاً تعليقه على حديث: «ما إخالك سرقت»، أي: "ما أظنك. تقول: خِلْتُ إخال بالكسر والفتح، والكسر أفصح وأكثر استعمالاً، والفتح القياس"⁴. وذلك لأنّ همزة ضمير المتكلم من الثلاثي تكون بالفتح.

وقد يحكم على بعض اللغات بأنها رديئة أو ليست عالية، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في مادة:

* (أهل) معلقاً على حديث: «أنّ النبي ﷺ أعطى الأهل حظين، والأعزب حظاً» "الأهل: الذي له زوجة وعيال، والأعزب: الذي لا زوجة له. وهي لغة رديئة، واللغة الفصحى عزب"⁵.
ومن ذلك أيضاً:

* (م ل ح) وفي حديث عثمان: «وأنا أشرب ماء الملح» يقال: ماءٌ ملحٌ، إذا كان شديد الملوحة،

¹ - النهاية: 1059/3

² - ينظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ج5، ص 258.

³ - النهاية: 160/1.

⁴ - النهاية: 1308/3.

⁵ - النهاية: 201/1، 202.

ولا يقال: مالحٌ، إلا على لغة ليست بالعالية. وقوله: «ماء الملح» من إضافة الموصوف إلى الصفة.¹ وتراه في مواضع أخرى يخرج بعض ألفاظ الحديث على بعض اللغات العربية المختلفة، ومن تلك اللغات، لغة قريش، ولغة طيء، ولغة العُقَيْليين، ولغة الأزد، ولغة أهل اليمن، ولغة حمير، وغيرها. يقول في شرحه لغربية في حديث عمر: «في الحرام كفارة يمين»، "هو أن يقول: حرام الله لا أفعل كذا، كما يقول: يمينُ الله، وهي لغة العقيليين"²، ومن ذلك استعانه بلغة حمير في شرح غريب حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه: «كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يملي كتابا، فدخل رجل، فقال له: أنطُ» أي: اسكت، بلغة حمير، ومنه قوله في حديث الدعاء: «اللهم لا مانع لما أنطيت، ولا مُنطِي لما منعت»، "هو لغة أهل اليمن في (أعطى)"³. ويسمى هذا في لغة العرب: الاستنطاء، وهو جعل العين الساكنة نونا إذا جاورت الطاء⁴. وإن كان مفهوم الاستنطاء عند القدامى في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة فيه نظر، بحكم أن العين تختلف صوتيا عن النون.

أما عن الكلمات الأعجمية التي اقترضتها العربية من غيرها من اللغات التي احتكت بها، واستخدمها النبي عليه السلام، فهي كثيرة، وكان أبو منصور الجواليقي (ت450هـ) قد وضع كتابا سماه "المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم" جمع فيه هذه الكلمات، حيث قال في مقدمته: "هذا كتاب نذكر فيه ما تكلمت به العرب من الكلام الأعجمي، ونطق به القرآن المجيد، وورد في أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، وذكرته العرب في أشعارها وأخبارها؛ ليعرف الدخيل من الصريح"⁵، وكان قد حصر اللغات التي جاءت منها معظم الكلمات الدخيلة على العربية في اللغة الفارسية واللغة اليونانية واللغة اللاتينية والسريانية والعبرية والحبشية والهندية.

¹ - النهاية: 3985/9.

² - النهاية: 875/3.

³ - النهاية: 4188/9.

⁴ - ينظر: المزهر في علوم اللغة، السيوطي، 222/1.

⁵ - المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، الجواليقي، تحقق: ف. عبد الرحيم، دار القلم، دمشق، ط1، 1990م، ص95.

ومن تلك الكلمات الغريبة: كلمة (سُور) في حديث جابر رضي الله عنه: «أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه: قوموا فقد صنع جابراً سُوراً»، قال ابن الأثير: "أي: طعاما يدعو إليه الناس، واللفظة فارسية"¹.

وكلمة (سَنَه) في حديث أم خالد بنت خالد بن سعيد: «إنّه ألبسَ الحَمِيصَةَ أمَّ خالدٍ، وجعل يقول: يا أمَّ خالد: سَنَا سَنَا»، قال ابن الأثير: قيل: سنا بالحشية حَسَنٌ، وهي لغة، وتخفف نونها وتشدد. وفي رواية: «سَنَه سَنَه»، وفي أخرى: «سَنَاه سَنَاه»، بالتشديد والتخفيف فيهما².

وكلمة (كخ) في حديث «أكل الحسنُ-أو الحسين-تَمْرَةً من تمر الصَّدَقَةِ، فقال له النبيّ عليه الصلاة والسلام: «كخ كخ»»، قال ابن الأثير: "هو زجرٌ للصبيّ وردعٌ، ويقال عند التقدير أيضاً، فكأنه أمره بإلقائها من فيه، وتُكسّر الكاف وتفتح، وتُسكّن الحاء وتكسر، بتنوين وغير تنوين، وقيل: هي أعجمية عُربت"³.

ولفظ (الديباج) الذي ذكر في غير موضع من أحاديث الرسول ﷺ، حيث قال عنه ابن الأثير: "وهو الثياب المتخذة من الإبريسم، فارسي معرب"⁴.

ولفظ (الحواريّ)، قال رسول الله ﷺ: «الزبيرُ ابنُ عمّتي وحواريّ من أمّتي»، قال ابن الأثير: "أي: خاصتي من أصحابي وناصري، ومنه (الحواريون): أصحاب عيسى عليه السلام، أي: خُلصائه وأنصاره"⁵.

¹ - النهاية: 2040/5.

² - النهاية: 2029/5.

³ - النهاية: 3587/8.

⁴ - النهاية: 1315/3.

⁵ - النهاية: 1064/3.

ولفظ (الباعوث) في حديث عمر: «لما صالح نصارى الشام كتبوا: ألا نَحْدِثَ كَنِيسَةَ وَلَا قَلْبِيَّةَ، وَلَا نُخْرِجَ سَعَانِينَ، وَلَا بَاعُوثًا». قال ابن الأثير: الباعوث للنصارى كالأستسقاء للمسلمين، وهو اسم سرياني. وقيل: هو بالغين المعجمة، والتاء، فوقها نقطتان¹.

وهذه بعض الكلمات التي ورد ذكرها في كتاب النهاية متضمنة في أحاديث المصطفى ﷺ أو في أقوال الصحابة والتابعين، وهي من أصل غير عربي: الأُسْبُذِين²، والإسْتَبْرَق³، والإصْطَفَلِينَة⁴، وأَنْدَرَايِم⁵، وأَوْرَى شَلَم⁶، وإِيلِيَاء⁷، وبخْتَج⁸، والباذق⁹، والبربط¹⁰، والبريد¹¹، والبرازيق¹²، والبرف¹³ والبرنس¹⁴، والباسنة¹⁵، والدستفشار¹⁶، والباج¹⁷، وبهْرَج¹⁸، والترياق¹⁹، وغيرها كثير.

¹ - النهاية: 335/2

² - النهاية: 113/1.

³ - النهاية: 113/1.

⁴ - النهاية: 126/1.

⁵ - النهاية: 177/1.

⁶ - النهاية: 190/1.

⁷ - النهاية: 205/1.

⁸ - النهاية: 242/1.

⁹ - النهاية: 267/1.

¹⁰ - النهاية: 271/1.

¹¹ - النهاية: 279/1.

¹² - النهاية: 286/1.

¹³ - النهاية: 289/1.

¹⁴ - النهاية: 294/1.

¹⁵ - النهاية: 310/1.

¹⁶ - النهاية: 359/2.

¹⁷ - النهاية: 386/2.

¹⁸ - النهاية: 399/2.

¹⁹ - النهاية: 499/2.

وبالنظر إلى مصادر كتاب "النهاية"، يظهر لنا جلياً أنّ ابن الأثير واسع الاطلاع، رحب المطالعة، يُحسن مدارس الكتب، ويعرف كيف يفيد منها، فرغم أنه نصّ على أن المعوّل في مصنفه على كتابي "الغريين" للهروي و"المجموع المغيث" للمديني، إلا أنه بعد إمعان النظر فيهما وجد أنه قد فاتهما الكثير، الأمر الذي دفع به إلى استقصاء كتب اللغة والغريب والسنن والمجاميع، يريد بذلك أن يتميز مصنفه عن هذين الكتابين بما حمّله إياه مما في غيرهما من الكتب، فينأى بنفسه عن صفة التقليد والاقتصار على الجمع، مستدركا بذلك على من يظن أنه قد اعتمد عليهما اعتماداً كلياً، ويصبغه بصبغة الشمول والكمال، وهو ما تحقق له، فكتاب **النهاية** أحسن كتب الغريب، وأوسعها جمعا، وأشهرها ذيوعاً، وأكثرها تداولاً بين أيدي الناس.

وبالنظر إلى المستويات اللغوية التي تدرّج فيها كتاب **النهاية**، والتي اصطبغ بها حديث النبي ﷺ، كونه ﷺ كان يخاطب كل قوم بلسانهم، اجتهد ابن الأثير في تصنيفها بين فصيح ولهجي وأعجمي، فثبّت الفصيح الذي اختص به النبي الكريم، ونبه على المفردات ذات الاستعمال اللهجي، وعزاها إلى القبائل التي اختصت بها، وأشار إلى الكلمات الأعجمية التي وردت في حديث المصطفى ﷺ، وأحال على أصلها. ولا شك أن مثل هذا العمل لا يقوى عليه إلا من كانت له دربة ومكنة وإحاطة بأحاديث المصطفى ﷺ وكذا أساليب العرب وطرائق مخاطبتهم، وهو ما تجسد في شخص ابن الأثير المحدّث واللغوي المبرز.

المبحث الثاني: كتاب "النهاية" ومبدأ الوضع:

1. اختيار المدخل:

اعتمد ابن الأثير في اختياره للمداخل المعجمية على ما انتهى إليه من المعاجم المتاحة في فنّ غريب الحديث، ولا شك أنه تراث ضخّم نتج عن تراكم دراسات وبحوث على مدى ستة قرون، وقد أفاد ابن الأثير من هذا التراث، واستفاد من جميع ما ورد فيه ليستثمره في وضع كتاب "النهاية"، حيث بلغ عدد المداخل التي أودعها في هذا الكتاب ما يزيد على ثلاثة آلاف مفردة أو عبارة غريبة

من غرائب الأحاديث والآثار، مضافا إليها بعض المفردات الغريبة في القرآن الكريم وكلام العرب من شعر وأمثال وحكم على قلتها، لأن المقصود من وضع هذا الكتاب هو تتبع ألفاظ غريب الحديث النبوي وشرحها وتقريب معانيها للمتلقي.

2. ترتيب المداخل:

ترتيب المداخل المعجمية في ضوء علم اللسانيات الحديث كما سبق وأشرنا إليه في مدخل هذا البحث نوعان: ترتيب خارجي: ويتعلق الأمر بترتيب المداخل وفق طريقة من طرائق الترتيب القائمة على الحروف الهجائية أو غيرها، وترتيب داخلي: ويعنى بترتيب المعلومات الواردة تحت المدخل الواحد ترتيبا خاصا.

1.2. الترتيب الخارجي في كتاب "النهاية":

لقد سلك علماء غريب الحديث في تصنيف كتبهم منهجين شهيرين: أولهما، ترتيب الأحاديث على المسانيد وشرح الغريب الذي ورد فيها، وثانيهما، ترتيب الألفاظ الغريبة على حروف المعجم. وقد اختار ابن الأثير المنهج الثاني لسهولة ويسره، فكانت طريقته في الترتيب الخارجي لألفاظ غريب الحديث أن التزم فيه بالحرف الأول والثاني من كل لفظ، ثم أتبع ذلك بالحرف الثالث من اللفظ على سياق الحروف.

واختيار ابن الأثير لهذا النوع من الترتيب، نابغ من خبرته بالصناعة المعجمية في هذا الوقت المبكر، وقناعته بأن "هذه الطريقة أقرب تناولا، وأيسر سبيلا، ثم هي أجدى نفعا في الدراسات اللغوية، حيث تفيد في تتبع اللفظ، ومعرفة دورانه وتطوره الدلالي"¹، ثم إن نثر مادة الغريب وفق المسانيد ومن غير ترتيب قلّ من يستسيغه، لصعوبة الوصول إلى المادة المنشودة، ولا يختلف الأمر

¹ - في اللغة والأدب، الطناحي، ص 398.

كثيرا بالنسبة لطريقة التقاليد والمخارج، الأمر الذي دفع بابن الأثير إلى أن يختار طريقة الترتيب على حروف المعجم منهجا ومسلكا.

ولم يكف ابن الأثير بذلك، بل راح ينتقد مناهج التأليف الأخرى في هذا العلم، حيث قال عنها: "لم يكن فيها كتاب صُنِّف مرتباً ومُقَمَّى، يرجع الإنسان عند طلب الحديث إليه إلا كتاب الحُرَيْبِيِّ، وهو على طوله وعُسْر ترتيبه لا يوجد الحديث فيه إلا بعد عَنَاء، مع ما فيه من كون الحديث المطلوب لا يُعرف في أيِّ واحد من هذه الكتب هو، فيحتاج طالب غريب حديث إلى اعتبار جميع الكتب، أو أكثرها، حتى يجد غرضه من بعضها"¹، في الوقت الذي يشيد فيه بمصنف «الغريبين» الذي وُقِّق فيه أبو عبيد الهروي وأجاد في جمع مادته وترتيبها، حيث يقول عنه: "صنّف كتابه المشهور السائر في الجمع بين غربي القرآن العزيز والحديث، ورتبه مقمّي على حروف المعجم، على وضع لم يُسبق في غريب القرآن والحديث إليه، فجاء كتابه جامعا في الحسن بين الإحاطة والوضع"².

وقد جسد ابن الأثير هذا المنهج في كتاب النهاية، حيث بدأه بحرف الهمزة، وأدرج تحته "باب الهمزة مع الباء"، وتحت هذا العنوان مادة (أبب)، ثم مادة (أبد)، ثم مادة (أبر)، فمادة (أبس)، فمادة (أبض)، وهكذا، مع مراعاة ترتيب الحرف الأول فالثاني فالثالث داخل المادة الواحدة إن توافرت معها مادة حديثة تستوفي ذلك، وساعده على هذا طبيعة كتاب "النهاية" الذي تعيّن من خلاله ابن الأثير غاية لغوية، كونه عمداً إلى الأحاديث فانتزع منها الجزء المشتغل على الغريب فقط، ثم استخرج منه الكلمات الغريبة، فدوّنها ثم رتبها بعد أن جردها من الزوائد إلا ما اشتهر منها بحروفه الزوائد، ثم شرحها، وفي ذلك يقول: "التزمنا في وضعه التّقفية على حروف المعجم، والابتداء بالأول فالأول، والأقدم فالأقدم، فلا تكاد تجد فيه حديثاً تاماً وإن قلّ كلمه، ولا أثراً متّسقا

¹ - مقدمة النهاية، تحق: الخراط، ص 14.

² - المصدر نفسه.

وإن استقلَّ منتظمه¹، لذلك عُدَّ كتاب "النهاية" كتاب لغة أكثر منه كتاب حديث كما ترى.

وخلاصة القول: إنَّ منهج ابن الأثير في الوضع يحكمه نظامان:

أما النظام الأول فهو: الترتيب بحسب حروف المعجم، الحرف الأول فالثاني فالثالث للجذر.

وأما النظام الثاني فهو: وضع بعض الكلمات دون تجريدها من حروف الزيادة.

2.2. الترتيب الداخلي في كتاب "النهاية":

يبدو أن ابن الأثير كغيره من اللغويين القدامى لم يوفق في العناية بالترتيب الداخلي للمداخل المعجمية، حيث تراه يخلط بين الفعل الثلاثي والرباعي، والخماسي والسداسي، ويخلط بين الأسماء والأفعال، بل ربما وجدت أحد معاني الأفعال أو الأسماء في أول المادة، وباقي معانيها في آخرها.

كما تراه يخلط بين المجرد والمزيد، فقد تعرَّضَ له كلمات كثيرة في أوائلها حروف زائدة، فيضعها في غير أبوابها حملاً لها على ظاهرها دون تجريدها من الحروف الزوائد، رغم أنه ينبه على أن تلك الحروف زائدة، وفي ذلك يقول: "وجدت في الحديث كلمات كثيرة، في أوائلها حروف زائدة، قد بنيت الكلمة عليها، حتى صارت كأنها من نفسها، وكان يلتبس موضعها الأصلي على طالبها، ولا سيما وأكثر طلبة غريب الحديث لا يكادون يفرقون بين الأصليِّ والزائد، فرأيت أن أثبتها في باب الحرف الذي هو في أولها، وإن لم يكن أصلياً، ونبهت عند ذكره على زيادته، لئلا يراها أحد في غير بابها، فيظنُّ أنني وضعتها فيه للجهل بها فلا أنسب إلى ذلك..."².

وصنيع ابن الأثير هذا لم يكن له من دافع إلا طلب التيسير، والنأي عن التعسير، ومع ذلك، فإن مقصده هذا لم يشفع له عند غيره، فهذا ابن منظور يستدرك عليه قائلاً: "...غير أنه لم يضع الكلمات في محلها، ولا راعى زائد حروفها من أصلها"³، فقد يتعذر أحياناً على طالب الغريب

¹ - منال الطالب في شرح طوال الغرائب، ابن الأثير، تحقق: محمود الطناحي، ص 3.

² - النهاية (المقدمة)، ابن الأثير، ص 19.

³ - لسان العرب (مقدمة المؤلف)، ابن منظور، ص 12.

معرفة الزائد من الأصلي في الكلمة، كما أنه يصعب عليه في الوقت نفسه الجمع بين نظامين مختلفين في الترتيب، لما قد يقع من لبس واضطراب، وحينها لا يكون العذر بجهل طلبة الحديث لمعرفة الأصلي من الزائد ممكنا ولا مستساغا.

وإن كنا لا نعدم أن بعض المحدثين من اللغويين ينادون بصناعة معجم لغوي يراعي ظواهر الألفاظ، دون ردها إلى أصولها، وذلك تماشيا مع حاجيات العصر، وطلبا للسهولة واليسر، وإذا كان الأمر كذلك، فهل يمكننا القول: إن ابن الأثير بصنيعه هذا كان سباقا إلى هذا النهج، ورائدا في هذا المهيع؟ ومع ذلك، فإن هذا المسلك عند جمهور مصنفي المعاجم فيه نظر، إذ ينصون على أن الأصل في الترتيب الهجائي مراعاة جذر الكلمة وتجريدها من حروف الزيادة، واعتماد هذه الطريقة يجنب الباحث هدر الوقت، والوقوع في لوثة اللبس والاضطراب، فقد يظن أن المصنف قد أهمل هذه المفردة أو تلك، لأنه لم يجدها وفق تلك الطريقة التي تنتظم جميع المفردات اللغوية الواردة في المعجم.

وفي هذا المقام ينقل لنا محمد أبو الفرج كلاما صدر عن مؤتمر جمع كوكبة من اللغويين والمعجميين انعقد في جامعة إنديانا بأمريكا عام 1960م ينص على ما يلي: "لا بد أن تكون كل المواد واضحة الترتيب في موضعها، وتوضع الصيغ الشاذة كمواد قائمة بنفسها إن أمكن، وإلا فيشار إلى موضعها في المادة الأصلية، وقد اتفق بوجه عام على أنه مهما كانت الطريقة التي توضع بها الكلمات المتصلة اشتقاقيا علمية، فإن الدارسين لا يُعوضون عن الساعات التي يضيعونها في البحث عن الكلمات التي لا تكون في موضعها الألفبائي الواضح"¹.

وإن كان ولا بد إيراد اللفظة حملا على ظاهرها مراعاة لمن ليس له دراية بالتفريق بين المجرد والمزيد، فما عليه إلا أن يورد تلك الكلمة المنشودة دون أن يتناولها بشرح أو تفسير، بل يحيل عليها في موضعها الصحيح وفق قواعد الصرف في المجرد والمزيد، والصحيح والمعتل.

¹ - المعاجم العربية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، محمد أحمد أبو الفرج، دار النهضة العربية، ط 1966، ص 21.

واختيار ابن الأثير لبعض الكلمات ووفق لفظها لا وفق جذرها لا شك أنه يوقع الباحث في حيرة، فلا يدري هل المصنف يراعي اللفظ أو الجذر فيما يطلبه من غريب؟ فيدفعه ذلك إلى العودة إلى مادتين: الأولى مزيدة والثانية مجردة، ومن أمثلة ذلك:

* (إذخر) في حديث الفتح وتحريم مكة: «فقال العباس: إلا الإذخر، فإنه لبيوتنا، وقبورنا»، "الإذخر بكسر الهمزة: حشيشة طيبة الرائحة، تسقف بها البيوت فوق الخشب، وهمزتها زائدة، وإنما ذكرناها هاهنا حملا على ظاهر لفظها"¹. ولما جاء إلى مادة (ذخر) لم يورد الحديث ولم يعرج على لفظة الإذخر.

ومن ذلك أيضا:

* (أبرد) فيه: «إِنَّ الْبَطِيخَ يَقْلَعُ الْإِبْرِدَةَ». "الإبردة: - بكسر الهمزة والراء - علة معروفة من غلبة البرد، والرطوبة، تُفْتَر عن الجماع، وهمزتها زائدة، وإنما أوردناها هاهنا حملا على ظاهرها"². ولم يشتر إلى لفظة (الإبردة) في مادة (برد).

ولم يمنعه هذا من أن يورد بعض الألفاظ مرتين: مرة على ظاهر لفظها، ومرة يردها إلى أصلها مجردة، وكأنه شعر بأن أحد الموضعين لا يغني عن الآخر، من ذلك مثلا:

* (أبض) (س) فيه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَالَ قَائِمًا لَعْلَةً بِمَبْضِيهِ». المأبض: باطن الركبة هاهنا. فلما شرح ابن الأثير لفظ (المأبض) في موضعه الأصلي، قال: "وسيجيء في حرف الميم"³.

وعناية ابن الأثير بالترتيب الخارجي للمداخل على حساب الترتيب الداخلي هي ميزة لم ينفرد بها دون غيره ممن تقدم من المعجميين العرب، بل اصطبغت بها جلّ المعاجم العربية القديمة، ولم يظهر اعتناء المعجميين بالترتيب الداخلي للمادة المعجمية إلا حديثا، حيث كان من شأن من يروم الكشف

¹ - النهاية: 77/1.

² - النهاية: 25/1.

³ - النهاية: 26/1.

عن معنى كلمة أن يراجع المادة كلها من أولها إلى آخرها، ولا يخفى ما في ذلك من كبير جهد وهدر للوقت، وفي ذلك يقول أحمد فارس الشدياق: "ولا جرم أن هذا التخليط والتشويش في ذكر الألفاظ ليذهب بصبر المَطَّلَع، ويحرمه من الفوز بالمطلوب، فيعود حائراً بائراً"¹.

فلو عدنا مثلاً إلى ترتيب المشتقات تحت المدخل، لوجدنا أن ابن الأثير يقتصر على ذكر ما ورد منها في الأحاديث النبوية إلا قليلاً مما قد يرد في آية، أو قول صحابي أو تابعي، فيأتي به في سياق الشرح، كما أنه يأتي بها من غير ترتيب واضح، وللكشف عن طريقة ابن الأثير في ترتيبه للمشتقات تحت المدخل الواحد، ارتأينا أن نقوم بتحليل مادة من مواد هذا المعجم، ولتكن على سبيل المثال مادة (عرب)، فتجده يبدأ بالفعل أعرب، ثم عرّب، ثم الفعل عَرَبَ، ثم ينتقل إلى اسم التفضيل: أعرب، ثم ينتقل إلى مصدر السداسي الاستعراب، ثم إلى مصدر الرباعي: الإعراب، ثم العرابة، ثم المعاربة، ثم العُربان، ثم يعود إلى الفعل أعربوا، ثم يعود مرة أخرى إلى مصدر الرباعي: الإعراب، ثم ينتقل إلى النسبة: عربي، ثم العربية، ثم التعرّب، ثم يعود إلى الفعل: تعرّب، ثم عَرَبَ، ثم يعود إلى الفعل يُعَرَّب، ثم العرْبَةُ، ثم عروبة، ليختم ب: عروباء.²

وما يمكن ملاحظته على هذه المشتقات أنها تتوزع على الأسماء والمصادر والصفات والأفعال، أمّا من ناحية الترتيب فلا نكاد نجد نظاماً يبيّن يتبعه ابن الأثير، فقد بدأ بالأفعال ثم ينتقل إلى الأسماء، وقد يفعل العكس تماماً، فيبدأ بالأسماء ثم ينتقل إلى الأفعال، أو ربما خلط بين الأسماء والأفعال، فيبدأ بالاسم ثم الفعل، ثم يعود إلى الاسم، ثم الفعل المزيد، ثم يعود إلى المجرد، وهكذا، والراجح أنّ الذي يوجه اختياره بأيّهما يبدأ، هو لفظ الحديث الذي يشرح معناه، فإذا كان فعلاً بدأ

¹ - الجاسوس على القاموس (مقدمة المؤلف)، أحمد فارس الشدياق، دار النوادر، سورية، لبنان، الكويت، ط1، 2013م، ص10.

² - ينظر: النهاية: مادة(عرب)، ج6، ص 2693-2698.

بالأفعال، كما فعل مع المداخل تحت مادة (عرب)، وإذا كان اسماً بدأ بالأسماء، كما هو الشأن مع مداخل أخرى¹.

فهذا الترتيب كما هو ملاحظ عشوائي، لا يكاد يقوم على خطة ثابتة، خلافاً لما تدعو إليه الصناعة المعجمية الحديثة، ومثال ذلك **المعجم الوسيط** الذي اعتمد واضعوه ترتيباً معيناً، حيث قدموا الأفعال على الأسماء، ورتبوا الأفعال انطلاقاً من المجرد إلى المزيد بحرف ثم بحرفين ثم بثلاثة أحرف، ثم الرباعي المزيد بحرف، أما الأسماء، فقد رتبها ترتيباً هجائياً².

3. المعنى المعجمي وطرائق شرحه في معجم "النهاية":

المعنى هو أهم مطلب لدى مستخدمي المعاجم، ولأجله وضعت المعاجم، لذا كان لزاماً أن نجده في مركز اهتمام المعجمي، وقد تحدثنا في مدخل هذا البحث عن تقنية الشرح والتعريف في المعاجم العربية، وأنواع التعريف ووسائله المتعددة، وسنحاول هنا أن نتبع مدى تجسيد ابن الأثير لهذه التقنيات وهو يشرح الكلمات أو المداخل المعجمية في مدونته، ونمثل لكل ذلك بشواهد من "النهاية" نفسها.

ولعل أول ما يلاحظ على مدونة **النهاية** أنّ عامّة ما فيها هو شرح وتفسير لما ورد من غريب في أحاديث النبي ﷺ، وآثار الصحابة والتابعين، وقد يعرض المصنف لشرح بعض الألفاظ الغريبة الواردة في القرآن والشعر العربي على قلّتها، وشرح ما ورد من غريب في بعض الأمثال العربية.

ومن الوسائل اللسانية التي استعان بها ابن الأثير في شرح المعنى المعجمي:

- **الشرح بالمرادف:** وهو أن يأتي المعجمي بكلمة مكافئة في المعنى للكلمة المراد شرحها، واختلف اللغويون في وجود الترادف في اللغة من عدمه، ولكل فريق حججه وبراهينه، وابن الأثير كغيره

¹ - ينظر مثلاً: المصدر نفسه، مادة (عجم): 2665/2-2668. ومادة (جرد): 613/6-617.

² - ينظر: المعجم الوسيط (المقدمة)، ص 29.

من علماء غريب الحديث، كان يرى بوجود الترادف في العربية، وأمثله في كتاب النهاية كثيرة، وإن لم ينص على مصطلح الترادف صراحة، ولكنه كان يوظف بعض العبارات التي تدل على وجود الترادف في الكلمة، ومن تلك العبارات الاصطلاحية التي تنوب عن مصطلح الترادف عند ابن الأثير عبارة (واحد) التي ورد ذكرها تحت مادة:

* (س ن خ): وفيها حديث عليّ: «ولا يظماً على التقوى سنخ أصل»، قال: "السنخ والأصل واحدٌ، فلما اختلف اللفظان أضاف أحدهما إلى الآخر"¹. يقصد أن كلمتي (سنخ) و(أصل) اختلفتا من حيث اللفظ واتفقتا من حيث المعنى، فكان لفظ السنخ مرادفاً للفظ الأصل. ومن تلك العبارات كلمة (بمعنى) يقصد بمعنى واحد، ومن أمثله:

* (س ب س ب) (س) وفي حديث قُسن: «فبيننا أنا أجول بسببها». "البسبس: البئر القفرّ الواسع، والمفازة. ويروى: «سبببها»، وهو بمعناه"²، ويعني بذلك أن السببس والبسبس هما بمعنى واحد. وقد يعرض الترادف بين مفردتين دون أن يشير إليه بأي مصطلح مما مضى، وصور ذلك كثيرة في كتاب "النهاية"، منها: "الحفر (بالفتح): الحياء".

ومن ذلك أيضاً: "الدُّبَاءُ: القَرَعُ"³.

وقوله في:

* (ب ع ج): ومنه حديث أمّ سليم: «إنّ دنا منّي أحد أبعج بطنه بالخنجر» أي: أشقُّ⁴، يريد أن معنى كلمة (أبعج) هو: أشقُّ.

وقد يرى ابن الأثير أنه يوجد بين بعض الألفاظ المتقاربة في المعنى بعض الفروق اللغوية، من ذلك مثلاً تفريقه بين الظل والفيء، حيث أورد في ذلك ما نصّه:

¹ - النهاية: 2015/5.

² - النهاية: 303/1.

³ - النهاية: 1313/3.

⁴ - النهاية: 337/2.

* (ظ ل ل) (س) وفيه: «الجنة تحت ظلال السيوف» الظلّ: الفيء الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس أيّ شيء كان. وقيل: هو مخصوص بما كان منه إلى زوال الشمس، وما كان بعده فهو الفيء¹.

● الشرح بأكثر من كلمة: قد يعتمد ابن الأثير إلى شرح مداخله بأكثر من كلمة ليجلي المعنى، وبخاصة إذا لم تفِ الكلمة الواحدة بالغرض، وصوره في كتاب "النهاية" كثيرة، نذكر منها مثلاً ما ورد تحت مادة:

* (ب ع ث): في أسماء الله تعالى: «الباعث» هو الذي يبعث الخلق، أي: يحييهم بعد الموت يوم القيامة².

ومن ذلك أيضاً:

* (غ ص ب): قد تكرر في الحديث ذكر «العُصْب» وهو أخذ مال الغير ظلماً وعدواناً. يقال

غصبه يغصبه عُصْباً، فهو غاصِبٌ ومغصوب.³

وإذا وجد في شرح الغريب الوارد في الشاهد أكثر من قول، فإنه يأتي بهذه الأقوال مجتمعة، كما في حديث «لا تقتلوا عَسِيفاً ولا أَسِيفاً»، حيث قال: «الأسيف: الشيخ الفاني، وقيل: العبد، وقيل: الأسير»⁴. وقوله في حديث: «إن الجفاوة والقسوة في الفدّادين». الفدّادون بالتحديد: الذين تعلقوا أصواتهم في حروثهم، ومواشيهم، واحدهم: فدّاد. يقال: فدّ فديداً؛ إذا اشتدّ صوته. وقيل: هم المكثرون من الإبل. وقيل: هم الجمّالون، والبقّارون، والحمّارون، والرّعيمان. وقيل: إنما هو (الفدّادين)

¹ - النهاية: 2609/6.

² - النهاية: 334/2.

³ - النهاية: 3030/7.

⁴ - النهاية: 116/1.

مُخَفَّفًا، واحدها: فِدَان، مشدد، وهي البقر التي يُحْرَثُ بها، وأهلها أهل جفاء وغلظة¹. وقد يرجح ابن الأثير بين ما يعرضه من أقوال في شرح مفردة ما، أو يسردها سردا مكتفيا بذلك.

• **الشرح بالاشتقاق:** وهو شرح الكلمة بذكر أحد مشتقاتها، وذلك بإحالة الكلمة أو المدخل

على ذلك المشتق باعتباره معروفا أو سبق تعريفه، من ذلك مثلا:

* (ج ه ر) ومنه الحديث: «وإنَّ من الإجهار كذا وكذا» وفي رواية: «الجهار»، قال ابن الأثير: "وهما بمعنى المجاهرة"².

ومنه:

* (س ب ح): قد تكرر في الحديث ذكر «التسييح» على اختلاف تصرف اللفظة... وقد يطلق التسييح على غيره من أنواع الذكر مجازا، كالتحميد والتمجيد، وغيرهما، وقد يطلق على صلاة التطوع والنافلة، ويقال أيضا للذكر ولصلاة النافلة: سُبْحَة، يقال: قضيت سُبْحَتِي، والسُّبْحَة من التسييح، كالسُّحْرَة من التسخير³. فأحال في شرحه لكلمة (سُبْحَة) على المصدر الذي هو التسييح، وكان قد شرحه من ذي قبل.

ومنه:

* (أ ث ف) (س) في حديث جابر: «والبرومة⁴ بين الأثافي» الأثافي: هي جمع (أثفية)، وقد تُخَفَّفُ الياء في الجمع، وهي الحجارة التي تنصب، وتجعل القدر عليها. يقال: أثفيت القدر، إذا جعلت لها الأثافي. وثَقَيْتُهَا: إذا وضعتها عليها⁵، حيث قام بشرح كلمة (الأثافي) بذكر أحد مشتقاتها وهو الفعل: أثفى وثقى.

¹ النهاية: 3130/7

² - النهاية: 767/2

³ - النهاية: 1848/5

⁴ - البرومة: القدر.

⁵ - النهاية: 48/1، 49.

ومنه أيضا:

* (أ ب ن) (هـ) في وصف مجلس رسول الله ﷺ: «لا تُؤَبَّنُ فِيهِ الْحُرْمُ». أي: لا يُذَكَّرُنْ بِقَبِيحٍ. كان يسان مجلسه عن رفث القول. يقال: أَبَنْتُ الرَّجُلَ، أَبْنُهُ وَأَبْنُهُ، إِذَا رَمَيْتَهُ بِجَلَّةٍ سُوِّءٍ، فَهُوَ مَأْبُونٌ، وَهُوَ مَأخُودٌ مِنَ الْأَبْنِ، وَهِيَ الْعُقْدُ تَكُونُ فِي الْقِسِيِّ تَفْسِدُهَا، وَتَعَابُ بِهَا¹. حيث شرح الفعل (تؤبن) مروراً بصيغته في الماضي (أَبَنْتُ)، ثم في المضارع بكسر عينه وضمها على التوالي: (أَبِنُ) و(أَبُنُّ)، وصولاً إلى صيغة الجمع: الأَبْنُ، ومفردة: (أَبْنَةٌ) بمعنى: عُقْدَةٌ.

ومنه: الحديث: «فَإِذَا الْمَسْجِدُ يَتَأَزَّرُ» أي: يَمُوجُ فِيهِ النَّاسُ، مَأخُودٌ مِنَ أَزِيرِ الْمَرْجَلِ، وَهُوَ الْعَلْيَانُ².

● الشرح بالصِّدِّ: من ذلك قوله: "الخير ضد الشر"³، والغش ضد النصح⁴. والقار ضد الحار⁵.

● الشرح بكلمة (معروف): وهذا النوع من الشرح يتداوله كثير من صنّاع المعاجم، خاصة القدامى منهم، معتمدين فيه على الرصيد القبلي للمتلقي، لكنّ هذه الطريقة في الشرح محلّ نظر، لأنّ معرفة القارئ بمعنى كلمة ما أمرٌ نسبي يتعلّق أساساً بالزمان والمكان، إذ ليس كل ما هو معروف في بيئة صاحب المعجم يكون مألوفاً لدى القارئ، وما هو معروف مشهور في زمن المعجميّ ليس بالضرورة أن يكون كذلك في زمنٍ بعده، ولقد أقلّ ابن الأثير من توظيف هذا النوع من التعريف إلى حد الندرة، ومن أمثلة ذلك قوله في مادة (خيم) تعليقا على حديث «الشهيد في خيمة الله تحت العرش»: "الحَيِّمَةُ معروفة"⁶.

¹ - النهاية: 32/1

² - النهاية: 108/1.

³ - النهاية: 1301/1.

⁴ - النهاية: 3027/7.

⁵ - النهاية: 858/3.

⁶ - النهاية: 1310/3.

ومن صور هذا النوع من التعريف أيضا: * (عظا) في حديث عبد الرحمن بن عوف:

كفعل الهَرَّ يفترس العظايا¹

العظايا جمع عظاية، وهي دُوَيْبَة معروفة.²

● الشرح بالسياق اللغوي: وهو كما أشرنا في المدخل استخدام الكلمة التي يشرحها المعجم

في عبارات وجمل توضح معناها أو من خلال السياقات اللغوية المقتبسة، ونعني بها الشواهد

القرآنية والحديثية والشعرية والنثرية وغيرها:

فمن القرآن الكريم قوله تحت مادة (حبل):

* (ح ب ل) في صفة القرآن: «كتابُ اللَّهِ حبلٌ ممدودٌ من السماءِ إلى الأرضِ» أي: نور ممدود،

يعني نورَ هُداة، والعرب تشبّه النور الممتدّ بالحبل والحيط.

ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾³.

يعني بذلك نور الصبح من ظلمة الليل⁴. فجاء بالآية الكريمة ليستدل على معنى عبارة:

"الحبل الممدود"، ألا وهو النور الممتد.

ومن الشعر قوله في (ظهر): "ومنه حديث النابغة الجعدي: أنشده صلى الله عليه وسلم:

بلغنا السماءَ مجدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فغضب، وقال لي: «أين المظهر يا أبا ليلى»؟! قال: "إلى الجنة يا رسول الله"، قال: «أجل،

إن شاء الله»، المظهر: المصعد⁵.

¹ - البيت لعسكلان بن عواكن الحميري، وصدرة: ولاعب في العشي بني بنيه (ينظر: تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحق: محب الدين العمري، دار الفكر، بيروت، 1995م، 250/35).

² - النهاية: 2813/6.

³ - البقرة: 187.

⁴ - النهاية: 791/2.

⁵ - النهاية: 2625/6.

ومن كلام العرب: في (ج ل ا) وفيه حديث العقبة: «إنكم تبايعون محمداً على أن تحاربوا العرب والعجم مُجَلِيَّةً» أي: حرباً مجلية، مخرجة عن الدار والمال، ومن كلام العرب: "اختاروا، فإمّا حرب مجلية أو سلم مخزية"، أي: إمّا حرب تخرجكم عن دياركم، أو سلم تُخزِيكم، وتُذَلِّكم.¹ فكشف المصنف عن معنى كلمة (مُجَلِيَّة)، من خلال سياق آخر من كلام العرب، اشتهر على ألسنتهم، وهو الطرد عن الديار.

● الشرح بالسياق الاجتماعي: وهو كما ذكرنا مقام الكلام وسياقه الذي يضيف على بعض الكلمات دلالة خاصة في بيئة اجتماعية معينة، لا يمكن إدراك معناها إلا في إطار هذا السياق، من ذلك مثلاً:

* (ع ظ م) (س) وفيه: «بيننا هو يلعب مع الصبيان-وهو صغير-بعظم وضّاح مرّ عليه يهودي، فقال له: "لتقتلنّ صناديد هذه القرية"». وهي لعبة لهم كانوا يطرحون عظماً بالليل يرمونه، فمن أصابه غلب أصحابه، وكانوا إذا غلب واحد من الفريقين ركب أصحابه الفريق الآخر من الموضع الذي يجدونه فيه إلى الموضع الذي رموا به فيه².

ومنه ما ذكره في مادة:

* (ع ق ر) (هـ) في حديث ابن عباس: «لا تأكلوا من تعاقر الأعراب، فإني لا آمن أن يكون مما أهّل به لغير الله» هو عقيرهم الإبل، كان يتبارى الرجلان في الجود والسخاء، فيعقر هذا إبلاً ويعقر هذا إبلاً حتى يعجز أحدهما الآخر، وكانوا يفعلونه رياءً وسمعةً وتفاخراً، ولا يقصدون به وجه الله، فشبهه بما دُبِح لغير الله³.

¹ - النهاية: 698/2.

² - النهاية: 2813/6.

³ - النهاية: 2837/6.

- **التعريف الموسوعي:** هو تعريف شمولي ليس له ضابط معين¹، يتجاوز فيه المعجمي المعنى اللغوي لاسم الشيء، إلى بعض الخصائص الأخرى التي تميزه عن غيره، وقد اعتنى ابن الأثير بهذا النوع من التعريف، خاصة في حديثه عن الأشجار والنباتات والحيوانات والأماكن، ومن الشواهد على ذلك في كتاب النهاية ما ورد ذكره تحت مادة:
- * (أ ر ك) في حديث الزهري عن بني إسرائيل: «وَعِنْبُهُمُ الْأَرَاكُ» الأراك: هو شجر معروف له حَمَلٌ كعناقيد العنب، واسمه (الكَبَاث) بفتح الكاف، وإذا نضج يسمى المَرْدَ².
- وقوله في (الأَصْلَة): الأصل بفتح الهمزة والصاد: الأفعى. وقيل: هي الحية العظيمة الضخمة القصيرة.³

¹ - تقنيات التعريف في المعاجم العربية المعاصرة، جيلالي حلام، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999م، ص 141.

² - النهاية: 94/1.

³ - النهاية: 127/1.

المبحث الثالث: أهم المعلومات المعجمية في كتاب "النهاية":

1. وظيفة المعلومات الصرفية والنحوية:

تعد الإشارات النحوية والصرفية من أهم المعلومات التي يقدمها المعجم لمستخدميه، كونها تساعد على إدراك المعنى ومحاصرته، ولابن الأثير عناية خاصة بالمسائل النحوية والصرفية في مدونته المعجمية، وهذه العناية نابعة من إمامه بهاذين العلمين ونبوغه فيهما، فقد صنّف في النحو كُتُبًا، لعلّ أبرزها كتاب "البديع في علم العربية" الذي أحسن تبويبه وأبدع في ترتيبه، ولم تكذ تنبو عنه مسألة إلا قليلا، وعن هذا الكتاب يقول ياقوت الحموي: "كتاب (البديع في النحو) نحو الأربعين كراسة وقفني عليه- يقصد عز الدين بن الأثير أخا مجد الدين- فوجدته بديعا كاسمه، سلك فيه مسلكا غريبا، وبوّبه تبويبا عجيبا"¹. ومن تلك المصنفات كتاب "الفروق والأبنية"، ذكره السيوطي وابن السُّبكي، وكتاب "تهذيب فصول ابن الدهان"، وهو كتاب في النحو أيضا.

ومن بديع إفاداته في مقدمة النهاية، أنه يقسم الألفاظ إلى قسمين: عام وخاص، فالعام عنده هو ما يشترك في معرفته جمهور أهل اللسان العربي، أما الخاص فهو ذلك اللفظ الغريب الذي لا يعرفه إلا من عني به، ومعرفته تقوم على "معرفة ذاته وصفاته، أما ذاته فهي معرفة وزن الكلمة وبنائها وتأليف حروفها، وضبطها لئلا يتبدل حرفٌ بحرف، أو بناءٌ ببناء، وأما صفاته فهي معرفة حركاته وإعرابه لئلا يحتل فاعل بمفعول، أو خبر بأمر، أو غير ذلك من المعاني التي مبني فهم الحديث عليها، فمعرفة الذات استقل بها علماء اللغة والاشتقاق، ومعرفة الصفات استقل بها علماء النحو والصرف، وإن كان الفريقان لا يكادان يفترقان لاضطرار كل منهما إلى صاحبه في البيان"².

ونحن نتصفح كتاب "النهاية"، تبين لنا أن ابن الأثير -رحمه الله- قد التزم بما نص عليه في مقدمة مدونته بأن عالج الألفاظ من حيث الصيغ، والاشتقاق، والوظائف النحوية والصرفية،

¹ - معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج5، ص2270، 2271.

² - مقدمة النهاية، ص 5.

بما له علاقة بالمعنى، دفعه إلى ذلك علمه بأن لغة النبي ﷺ وأسلوبه يحتاجان إلى دراسة لغوية خاصة من حيث التركيب والدلالة، ومقارنة ذلك بما ورد في كتب علماء النحو والصرف على حد سواء.

وكثيرة هي **المباحث الصرفية** التي ذكرها في كتابه، لعل أبرزها: الإعلال والإبدال، والقلب، والإدغام، والاشتقاق، والإدغام، والتصغير، والنسب، والمبالغة، وأسماء الزمان والمكان والآلة والفاعلين والمفعولين، وأفعال التفضيل، والتقاء الساكنين، والصفة المشبهة، وغيرها من المباحث الصرفية، ومن أمثلتها:

- ما ورد في باب الاشتقاق:

من خلال تتبعنا لابن الأثير في هذا الباب، وجدنا أنه يرى أن الاسم أصل للفعل، وأن الفعل فرع عن الاسم لأنه مشتق منه، ولأنه لا تتم به الفائدة إلا مع الاسم، فهو بهذا يوافق البصريين الذين يقولون بأنّ الفعل مشتق من المصدر، لكنه في أثناء حديثه عن اشتقاق بعض الألفاظ الغريبة تجده مرة يشتق بعضها من الفعل، ومرات يشتق بعضها من الاسم، ففي شرحه للفظ **الحشاش** تراه يشتقه من الفعل حيث يقول: "**والحشاش مشتق من خشّ في الشيء؛ إذا دخل فيه**"¹، في حين؛ تراه وهو يشرح لفظي **الرحمن والرحيم** يشتق من الاسم حيث يقول: «وهما اسمان مشتقان من الرحمة مثل ندمان ونديم»².

- وما ورد في باب الإدغام:

* (أ ج ر) في حديث الأضحى: «**كلوا وادّخروا وائتجروا**» أي: "تصدّقوا طالبين الأجر بذلك. ولا يجوز فيه: **اتّجروا بالإدغام**، لأن الهمزة لا تدغم في التاء، وإنما هو من الأجر لا من التجارة، وقد أجازته الهروي في كتابه، واستشهد عليه بقوله في الحديث الآخر: "إنّ رجلاً دخل المسجد وقد قضى النبي عليه السلام صلاته، فقال: «**من يتّجر فيقوم فيصلّي معه**»، الرواية إنما هي: (ياتّجر)،

¹ - النهاية: 1172/3

² - النهاية: 1577/4

وإن صحَّ فيها (يَتَجَر)، فيكون من التجارة لا من الأجر، كأنه بصلاته معه حصل لنفسه تجارة، أي: مكسبا¹.

- وما ذكره في باب الإبدال:

* (أ ط أ) (س) في حديث عمر: «فِيمَ الرَّمْلَانُ²، وقد أَطَّ اللهُ الإسلامَ» أي ثبته وأرساه، والهمزة فيه بدل من واو (وطأ).³

- وما ورد في باب التصغير:

* (ب ح ر) (هـ) ومنه حديث عبد الله بن أبي: «ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرَة على أن يعصّبوه بالعصابة» البُحَيْرَة: مدينة الرسول ﷺ، وهو تصغير البحرة، وقد جاء في رواية مكبرا، والعرب تسمي المدن والقرى (البحار).⁴

ومنه:

* (ع ق ر) (هـ) وفي حديث أم سلمة أنها قالت لعائشة رضي الله عنها: «سكن الله عُقيرك، فلا تُصَحِّرِهَا» أي: أسكنك بيتك، وسترك فيه فلا تبرزبه. وهو اسم مصغر مشتق من عقر الدار.⁵

- وما أورده في باب القلب المكاني:

* (ر غ ل) (س) في حديث ابن عباس: «أنه كان يكره ذبيحة الأرغل»، أي: الأقف، وهو مقلوب الأرغل⁶. فحدث فيه قلب مكاني كجذب وجذب، لأن وزن الأرغل هو: (الأعفل).

¹ - النهاية: 55/1

² - الرملان: ضرب من السعي.

³ - النهاية: 130/1.

⁴ - النهاية: 239/1، 240.

⁵ - النهاية: 2841/6.

⁶ - النهاية: 1644/4.

أمّا عن المسائل النحوية التي أشار إليها في كتاب النهاية فكثيرة، ومنها: مسألة الاختصاص، والاستثناء والاشتغال والإضافة وأسماء الأفعال والأصوات، وأفعال المقاربة والأفعال الناسخة والبدل والبناء، والتثنية والتحذير والإغراء، والتعجب والتمييز، والتوكيد والجار والمجرور والحال، والظرف والعطف والعدد والفاعل، والفعل بأنواعه: المبني للمعلوم والمبني للمجهول، واللازم والمتعدي، والمبتدأ والخبر، والمدح والذم، والقسم، والنكرة والمعرفة والمفاعيل، والممنوع من الصرف، والمنقوص، والنداء، والنعته، وغيرها من المسائل النحوية.

فمن مواضع الاختصاص: حديث كعب بن مالك: «فَتَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ»، قال ابن الأثير: "يريد: تخلفهم عن غزوة تبوك، وتأخر توبتهم. وهذه اللفظة تقال في الاختصاص. وتختص بالمخبر عن نفسه. تقول: أمّا أنا فأفعل كذا أيها الرجل، يعني نفسه. فمعنى قول كعب: «أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ» أي: المخصوصين بالتخلف"¹.

ومنها ما ذكره في باب البدل، ومن مواضعه:

* (زقف) ومنه الحديث: «بلغ عمرَ أنّ معاويةَ قال: لو بلغ هذا الأمر إلينا بني عبد منافٍ -يعني الخلافة- تَرْقِفناه تَرْقِفَ الأُكْرَةَ». التَّرْقِفُ كالتَلْقِفِ... وهكذا جاء الحديث (الأكرة)، والأفصح: الكُرَّةُ. و(بني عبد مناف) منصوب على المدح، أو مجرور على البدل من الضمير في (إلينا)².

ومن مواضع الاشتغال، تعليقه على حديث عليّ: «أتاه قومٌ، فاستأمرّوه في قتل عثمان، فنهاهم، وقال: إنْ تَفْعَلُوا فَبَيضاً فَلْتَفْرَحْنَهُ»، نقل ابن الأثير عن أبي موسى قوله: "أراد إن تقتلوه تُهَيِّجُوا فِتْنَةً يَتَوَلَّدُ مِنْهَا شُرٌّ كَثِيرٌ، ثُمَّ عَلِقَ قَائِلًا: "وَنَصَبَ (بَيضاً) بِفَعْلٍ مُضْمَرٍ دَلَّ الْفِعْلَ الْمَذْكُورَ عَلَيْهِ، تَقْدِيرُهُ: فَلْتَفْرَحَنَّ بَيضًا فَلْتَفْرَحْنَهُ، كَمَا تَقُولُ زَيْدًا أَضْرِبُهُ، أَي: ضَرَبْتُ زَيْدًا أَضْرِبُهُ، فَحَذَفَ

¹ - النهاية: 212/1.

² - النهاية: 1794/4.

الأول، وإلا فلا وجه لصحته بدون هذا التقدير، لأن الفاء الثانية لا بدّ لها من معطوف عليه، ولا تكون لجواب الشرط لكون الأولى لذلك"¹.

ومن فرط اهتمامه بالوظائف النحوية في أحاديث المصطفى ﷺ أفرد بابا خاصا بحرف الباء أحد حروف المعاني، سماه: "باب الباء المفردة"، وراح يسرد معانيها المختلفة وذلك لكثرة استعمالها في الحديث النبوي وفي غيره، وفي ذلك يقول: "أكثر ما ترد الباء بمعنى الإلصاق لما ذكر قبلها من اسم أو فعل بما انضمت إليه، وقد ترد بمعنى الملازمة والمخالطة، وبمعنى: من أجل، وبمعنى: في، ومن، وعن، ومع، ومعنى الحال، وال عوض، وزائدة، وكلّ هذه الأقسام قد جاءت في الحديث، وتعرف بسياق اللفظ الواردة فيه"². ثم أورد جملة من السياقات الحديثية التي تحمل المعاني المختلفة التي عدّها لحرف "الباء"³.

وابن الأثير، وهو يتناول عديد المسائل النحوية والصرفية في معجم "النهاية"، لم يكن توجهه هذا بدعا من الأمر، بل سبقه إلى ذلك أصحاب الغريب، فلا تكاد تخلو كتب الغريب التي تقدمت على "النهاية" من مباحث صرفية ونحوية على تفاوت فيما بينها، لكن ما ميز ابن الأثير في تناوله لهذه المباحث أنه لم يتوسع فيها كما كان يفعل سابقوه، بل كان في إعرابه وتوجيهاته النحوية يكتفي بتعليقات بسيطة وإشارات سطحية، ويميل - في الغالب - إلى الإيجاز المؤدي إلى فهم الحكم الإعرابي فيما له علاقة مباشرة بالمعنى من أقصر طريق، إلا ما اضطر إلى التفصيل فيه، فتراه حينها يعرض أقوال المتقدمين، ويناقشها ويرجح بعضها ويرد بعضها، بطريقة تنبئ بتضلعه في الصناعة النحوية والصرفية، وتمكنه من تفرعاتها وتشعباتها.

أما عن مذهبه النحوي، فإن المتتبع لآرائه النحوية يجد أنه يعتد في غالب أقواله بالمدرسة البصرية، وذلك بالعودة إلى المصطلحات النحوية التي يستعملها، كتوظيفه لبعض المصطلحات

¹ - النهاية: 3142/7

² - النهاية: 422/2.

³ - ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

التي اشتهرت بها مدرسة البصريين، منها مصطلح المفاعيل الخمسة؛ المفعول به والمفعول المطلق والمفعول فيه والمفعول معه والمفعول له، في حين يكتفي الكوفيون بالمفعول به، وغير المفعول به من المفاعيل الأخرى عندهم ليس بشيء، كذا نقل عنهم السيوطي في كتابه: **همع الهوامع**¹، كما أنه يستعمل مصطلح الصفة في مقابل النعت، ومصطلح حروف الجر في مقابل حروف الخفض، وهي مصطلحات لصيقة بالمدرسة البصرية كما هو مقرر في كتب النحاة البصريين.

ومن القرائن التي تدلُّك على أن الرجل بصريّ المذهب؛ انتصاره للمذهب البصري في المسائل الخلافية، خذ على سبيل التمثيل لا الحصر ميله إلى أن الفعل المضارع ينصب بأن مضمرة بعد أو وحتى واللام، خلافاً للكوفيين الذين يرون أن الفعل المضارع ينصب مباشرة بـ: (حتى واللام) ولا يرون داعياً لتقدير (أن) مضمرة بعدهما².

ومهما يكن من أمر، فإن براعة ابن الأثير في الصناعة النحوية والصرفية مكنته من حسن استغلال ذلك في ترشيح المعنى المعجمي والإحاطة به، ذلك لأن الإعراب شقٌّ عن المعنى كما هو معلوم. فقد برزت مهاراته اللغوية وهو يستدرك على بعض اللغويين والنحاة في ضبط كثير من دلالات ألفاظ الحديث النبوي ومفرداته.

2. الوظيفة الصوتية:

تعد المعلومات الصوتية من أبرز الوظائف التي يقدمها المعجم، وذلك لمساعدة الباحثين على معرفة الكيفية السليمة لنطق الكلمات، وهو ما نصّ عليه أحمد مختار عمر في إحدى كتاباته، حيث قال: "من الوظائف الهامة التي يؤديها المعجم بيان نطق الكلمة أو صور نطقها، مع التمييز

¹ - همع الهوامع شرح جمع الجوامع في العربية، السيوطي (جلال الدين)، دار المعرفة، بيروت، ج1، ص 165.

² - الإنصاف في مسائل الخلاف، الأنباري (أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد)، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ج3، ص593.

بين النطق المعياري واللهجي"¹، وكلما كانت الكلمات قليلة الاستعمال غير مألوفة لدى القارئ كلما زادت الحاجة إلى هذه المعلومات، خاصة إذا كانت اللغة المستعملة هي اللغة العربية، بما أن النظام الإملائي الذي ينتظم العربية لا يمكن في بعض الحالات من ضبط الطريقة السليمة لنطق بعض الكلمات، على غرار ما نراه في بعضها من زيادة في بعض الحروف التي لا تنطق، مثل الألف في (مائة)، والواو في (أولو، أولئك، عمرو...)، وبعضها حذفت منها حروف ولكنها تنطق، مثل: الألف في (هذا، ذلك، الله...).

ولا شك أن للحديث النبوي أثرا في التطور الصوتي، وفي حفظ عديد اللهجات العربية غير القرشية، وتجلى ذلك في ظواهر صوتية كثيرة تتبعها ابن الأثير في كتاب **النهاية** بعناية فائقة²، على غرار ما يحدث من تبدلات صوتية في كثير من المفردات، بسبب المجاورة أو الشبوح في الاستعمال، أو الاشتراك أو القرب في المخرج والصفة، أو التعاقب بين أصوات المفردات، وهي معايير اعتمدها ابن الأثير في الحكم على غرابة بعض ألفاظ الأحاديث والآثار من الناحية الصوتية³، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على ذلك القدر من الوعي اللغوي والحس الصوتي الذي يتمتع به ابن الأثير وهو يتناول مختلف المباحث الصوتية التي تجلت في بعض ألفاظ الحديث النبوي، وآثار الصحابة ومن تبعهم.

ومن مظاهر حفظ الحديث النبوي لبعض اللهجات العربية من غير لهجة قريش، حفظه للغة أهل اليمن في بعض استعمالاتها، كإبدال كاف الخطاب جيما، ومثالها:

¹ - صناعة المعجم الحديث، أحمد مختار عمر، ص 150.

² - ينظر: ابن الأثير المحدث ومنهجه في كتاب النهاية، أميمة رشيد بدر الدين، دار النوادر اللبنانية، بيروت، لبنان، ط 1، 1914م، ص 331.

³ - المعيار الصوتي لغرابية الحديث في كتاب النهاية، دراسة في بنية الكلمة العربية، عمر عبد المعطي، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، 2001م، ص 163.

* (ع م م) في حديث عائشة: «استأذنت النبي ﷺ في دخول أبي القعيس عليها، فقال: ائذني له، فإنه عمج» يريد عمك من الرضاعة، فأبدل كاف الخطاب جيما، وهي لغة قوم من اليمن¹. وهذا ما يعرف في لغة العرب بالشنشنة وهو أن تجعل الكاف شيئا مطلقا كأن تقول: لبّيش اللهم لبّيش، أي: لبّيك².

وزعم الخطّابي أن هذا إنما جاء من بعض النقلة، فإن رسول الله ﷺ كان لا يتكلم إلا باللغة العالية، لكن ابن الأثير رد كلامه قائلا: "وليس كذلك، فإنه ﷺ قد تكلم بكثير من لغات العرب، منها قوله ﷺ: «ليس من أمبر امصيام في امسفر» وغير ذلك"³. والحديث رواه أحمد من طريق كعب بن عاصم الأشعري. وهي لغة الأشعريين في اليمن، يقبلون اللام ميما⁴.

ومن صور حفظه للغة الحجازيين ما ورد في مادة:

* (أ ف ع) (س) في حديث ابن عباس: «لا بأس بقتل الأفعو» أراد الأفعى، فقلب ألفها في الوقف واوًا، وهي لغة أهل الحجاز، والأفعى ضربٌ من الحيات معروف⁵.

ومن المواضع التي حدثت فيها تبدلات صوتية في المفردة بسبب المجاورة أو الشبوح في الاستعمال، وكان ابن الأثير قد علق عليها، ما يلي:

* (س ل ق) ومنه حديث: «لعن الله السالقة والخالقة» قال ابن الأثير: "ويقال بالصّاد"⁶، يريد (الصّالقة). وقد أورد هذا الحديث بالصاد بدل السين مسلمٌ في صحيحه⁷. وأورد ابن الأثير تحت

¹ - النهاية: 2899/7.

² - ينظر: المزهر، السيوطي، ج1، ص222.

³ - ينظر: النهاية: 2899/7.

⁴ - ينظر: تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ابن حجر العسقلاني، تحقق: حسن بن قطب، مؤسسة قرطبة، ط1،

1995م، ج2، ص393.

⁵ - النهاية: 135/1.

⁶ - النهاية: 1980/5.

⁷ - صحيح مسلم، الحديث رقم: 104، ج1، ص100.

الجذر نفسه حديثاً آخر، هو حديث المبعث، وجاء فيه: «فانطلقا بي إلى ما بين المقام وزمزم، فسلقاني على قفائي»، قال ابن الأثير: "سلقه، وسلقاه بمعنى. ويروى بالصاد، والسين أكثر وأعلى"¹.
وسلقاه على قفاه بمعنى: ألقياه على ظهره.

ومنها أيضاً:

* (ف ز ع) في حديث فضل عثمان: «قالت عائشة للنبي ﷺ: مالي لم أرك فرغت لأبي بكر وعمر كما فرغت لعثمان؟ فقال: إن عثمان رجلٌ حيٌّ» يقال: فرغتُ لمجيء فلان إذا تأهبت له متحوّلاً من حال إلى حال، كما ينتقل النائم من حال النوم إلى حال اليقظة. قال ابن الأثير: "ورواه بعضهم بالراء والغين المعجمة، من الفراغ والاهتمام، والأول أكثر"². بمعنى أن رواية الحديث بـ (فرغت لعثمان) بالراء والغين المعجمة أكثر استعمالاً وأشهر من الرواية بـ (فرغت لعثمان) بالزاي والعين المهملة.

ومن مواضع تبادل الأصوات في المفردة بسبب القرب في المخرج والصفة:

* (ه ب ت) (ه) في حديث عمر: «لما مات عثمان بن مظعون على فراشه، قال: هَبَّتْهُ الموت عندي منزلةً حيث لم يمت شهيداً» أي: حطّ من قدره في قلبي. قال ابن الأثير معلقاً: "هَبَطَ وهَبَّتْ أخوان"³. فأنت ترى أن الطاء والتاء متقاربان في المخرج (مخرجهما من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا)، والصفة (كلاهما حرف شديد).

ومنه: * (ب ز ق) (ه) في حديث أنس: «أتينا أهلَ خيبر حين بزقت الشمس»، قال ابن الأثير: "هكذا الرواية بالقاف، وهي بمعنى بزغت، أي طلعت، والغين والقاف من مخرج واحد"⁴.

¹ - النهاية: 1981/5.

² - النهاية: 3181/7.

³ - النهاية: 4520/10.

⁴ - النهاية: 301/1.

ومن ذلك أيضا ما ورد في حديث هجرة الحبشة، قال: «والله لأستأديته عليكم» أي: لأستعديته، فأبدل الهمزة من العين، لأنهما من مخرج واحد¹. وفي هذا دليل على إحاطة ابن الأثير بمخارج الحروف وصفاتها.

كما أشار ابن الأثير إلى بعض المصطلحات الصوتية في "النهاية" منها التعاقب والتحويل، أما مصطلح التحويل فقد ذكره تحت مادة:

* (س م ر) في حديث عمر في الأمة يطؤها مالؤها يُلحِق بها ولدها، قال: «فمن شاء فليمسكها، ومن شاء فليسمرها». قال ابن الأثير: "يروى بالسین والثين". ونقل كلاما لأبي عبيد قال فيه: "لم نسمع السين المهملة إلا في هذا الحديث، وما أراه إلا تحويلا كما قالوا: سمّت وشمّت"².

وأما مصطلح تعاقب الأصوات، فقد ذكره تحت مادة:

* (درن ك) ومنه حديث ابن عباس: «قال عطاء: صلينا معه على ذرنوك قد طبّق البيت كله»، قال ابن الأثير: وفي رواية: (درموك)، وهو على التعاقب³.

وقد يعبر ابن الأثير عن التعاقب بمصطلح القلب، كما في مادة:

* (ك ب ت) (هـ) فيه: «أنه رأى طلحة حزينا مكبوتا»، أي: شديد الحزن قيل الأصل فيه: (مكبودا) بالبدال، أصاب الحزن كبده، فقلبت الدال تاء⁴.

والتعاقب أو القلب هو ما يعرف بالإبدال، وهو قسمان: مطرد، وميدانه علم الصرف، وليس المراد هنا، وإبدال غير مطرد، وهو المقصود هنا، وهو إبدال لغوي مقتصر على السماع⁵، ويقصد

¹ - النهاية: 76/1.

² - النهاية: 1998/5.

³ - النهاية: 1361/4.

⁴ - النهاية: 3555/8.

⁵ - ينظر: ابن الأثير المحدث ومنهجه في كتاب النهاية، أميمة رشيد بدر الدين، ص 364.

به: "إبدال الحروف وإقامة بعضها مكان بعض"¹، أي اتحاد كلمتين معنى ولفظا إلا في حرف واحد اختلف في الكلمتين، ومن أمثلته: مَدَحٌ وَمَدَّةٌ، وَغَبْنٌ وَخَبْنٌ، وَمَكَّةٌ وَبَكَّةٌ.

ومن الشواهد على أن التعاقب والإبدال عند ابن الأثير بمعنى واحد ما ذكره في حديث القبائل، سئل عن مضر، فقال: «تَمِيمٌ بُرْثَمَتُهَا، وَجُرْثَمَتُهَا» قال الخطابي: "إنما هو بُرْثَمَتُهَا بالنون، أي: مخالبتها... والنون والميم يتعاقبان، فيجوز أن تكون الميم لغة، ويجوز أن تكون بدلا، لازدواج الكلام في الجرثومة، كما قال: (الغدايا والعشايا)². فنقل كلام الخطابي ولم يعقب عليه.

ومن الظواهر الصوتية التي أشار إليها ابن الأثير في كتاب "النهاية": تخفيفُ الهمز، ومواضعه كثيرة، منها ما ورد في مادة:
* (ب د ا) (س) وفيه:

بِاسْمِ الْإِلَهِ وَبِهِ بَدِينَا وَلَوْ عَبَدْنَا غَيْرَهُ شَقِينَا³

يقال: بَدَيْتُ بِالشَّيْءِ - بكسر الدال - أي: بدأتُ به، فلما خَفَّفَ الهمزة كسر الدال، فانقلبت الهمزة ياءً، وليس هو من بنات الياء⁴.

ومنه أيضا:

* (ف أ ر) (س) فيه: «خَمْسٌ فَوَاسِقٌ يُقْتَلَنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ، مِنْهَا الْفَأْرَةُ». الفأرة معروفة، وهي مهموزة، وقد يترك همزها تخفيفا⁵، فتقول: الفأرة.

¹ - فقه اللغة وأسرار العربية، أبو منصور الثعالبي، تحقق: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، ط2، 2000م، ص418.

² - النهاية: 272/1.

³ - البيت لعبد الله بن رواحة، ذكره ابن منظور في لسان العرب: مجلد1، ص235، مادة (بدا).

⁴ - النهاية: 263/1.

⁵ - النهاية: 3101/7.

ومن الظواهر الصوتية في "النهاية" أيضا؛ ما يسمى بالنعنة، ويقصد بها إبدال الهمزة عينا، وهي لغة بني تميم، والشاهد على ذلك من "النهاية" حديث قَيْلَةَ: «تَحَسَّبُ عَنِّي نَائِمَةٌ»، قال ابن الأثير: "أي: تحسب أتي نائمة، فأبدلت من الهمزة عينا، وبنو تميم يتكلمون بها، وتسمى العننة".¹ ولم يكتف ابن الأثير بالوقوف عند هذه المباحث الصوتية، بل راح ينبّه على بعض عيوب النطق في بعض المفردات التي اعتقد أن بعضها ممن ينطقها قد لا يحسن نطقها، وذكر من تلك العيوب: اللثغة، ومن شواهدا في "النهاية" مادة:

* (خ ل ب) (ه) ومنه الحديث: «إِذَا بَعَثَ فِقْلٌ: لَا خِلَابَةَ» أي: لا خداع. وجاء في رواية: «فِقْلٌ:

لَا خِيَابَةَ» بالياء، وكأنها لثغة من الراوي، أبدل اللام ياء.²

3. الوظيفة التأثيلية في معجم "النهاية":

تعد المعلومات التأثيلية في المعجم اللغوي جزءا مكتملا للتعريف، ويقصد بالتأثيل "دراسة نشأة الكلمات وتطورها من أجل الوقوف على البنية الأصلية لها، والصيغ التي تفرعت عنها صوتيا أو صرفيا أو دلاليا"³، وتاريخ ظهور التأثيل قديم في الدرس المعجمي، فقد كانت بداياته - وإن كانت محتشمة - مع الخليل في معجم العين، وابن فارس في معجم مقاييس اللغة، وغيرهما، لكنه لم يزدهر إلا في غضون القرن التاسع عشر في ظل الدراسات التاريخية المقارنة⁴، وابن الأثير باعتباره لغويا من القدامى، كانت له إشارات حول هذا الباب في كتاب النهاية.

¹ - النهاية: 2921/7.

² - النهاية: 1229/3.

³ - تقنيات التعريف في المعاجم العربية المعاصرة، جيلالي حلام، ص 326.

⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص 327.

ومن الشواهد على ذلك ما ذكره تحت مادة:

* (إس ت ب ر ق): "قد تكرر ذكر «الإستبرق» في الحديث، وهو ما غلظ من الحرير والإبريسم، وهي لفظة أعجمية معرّبة أصلها (استبره) وقد ذكرها الأزهري في خماسي القاف على أن همزتها وحدها زائدة، وقال: "أصلها بالفارسية (استفّره)". وقال أيضا: "إنها وأمثالها من الألفاظ حروف عربية وقع فيها وفاق بين العجمية والعربية". وقال: "هذا عندي الصواب"، فذكرناها نحن هنا حملا على لفظها"¹.

ومنه أيضا:

* (إص ط ف ل) (س) في كتاب معاوية إلى ملك الروم: «ولأنزعنك من الملك نزع الإصطفلية» "أي: الجزرة. لغة شامية، أوردها بعضهم في حرف الهمزة على أنها أصلية، وبعضهم في الصاد على أنّها زائدة، وليست اللفظة بعربية محضة؛ لأن الصاد والطاء لا يجتمعان إلا قليلا"².

فبعد أن أورد ابن الأثير لفظة (الإستبرق)، ذكر اللغة التي انحدرت منها، وهي الفارسية مشيرا إلى رسمهما الإملائي والتغيرات التي طرأت عليها فأصلها (استبره) بهمزة زائدة، ونقل عن الجوهري أن حروفها عربية وقع بينها وفاق مع العجمية. وكذلك فعل مع لفظة (الإصطفلية)، حين أشار إلى أنها لغة شامية، ليرجح في الأخير أنها غير عربية محضة، بحكم أنّ حرفي الطاء والصاد لا يجتمعان في العربية إلا قليلا.

¹ - النهاية: 114/1.

² - النهاية: 126/1.

3. التطور الدلالي لألفاظ غريب الحديث في معجم "النهاية":

يراد بالتطور الدلالي للألفاظ ذلك "التغير التدريجي الذي يصيب دلالات الألفاظ بمرور الزمن، وتبدل الحياة الإنسانية، فينقلها من طور إلى طور"¹. ولأن اللغة العربية لغة مرنة طيعة، فقد جعلت منها هذه الخصيصة لغةً متجددة، لا تفتأ تستقر على حال، فلا يكاد ينقضي عصرٌ في مصرٍ إلا وظهرت علينا بدلالات جديدة.

وهذا التطور والتغير الحاصلان في الدلالة لا شك أن لهما صلة وثيقة بالمجتمع وتاريخه وثقافته، لذا لا يمكن ضبط العوامل المؤثرة في تطور اللغة بدقة، ومع ذلك فقد حصرها إبراهيم أنيس في عاملين أساسيين هما: الحاجة، والاستعمال، فأما الحاجة فتكون بسبب التطور الحاصل في المجتمعات في جوانبه المختلفة؛ السياسية والتاريخية والحضارية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية وحتى التقنية منها، ولا بد للغة حينها من مواكبة هذا التطور، والاضطلاع بمهمة التغيير، وأما الاستعمال فيقصد به أن خضوع الألفاظ للاستعمال المتكرر يجعلها عرضة للتغيير، نتيجة لعوامل ناجمة عن هذا الاستعمال، منها: سوء الفهم وبلى الألفاظ وابتدالها².

ويضاف إلى هذين العاملين عامل آخر هو العامل الديني، إذ لا يخفى ما للدين من تأثير في توجيه هذا التطور؛ لِمَا يحمله من تشريعات ومعتقدات وعبادات وأحكام لم يعهدها المجتمع من قبل، فيلبس الألفاظ دلالاتٍ مستجدةً تعبر بجلاء عما جاء به، وهذا ما نلمسه في تلك الدلالات التي خلعتها على كثير من الألفاظ، كما هي الحال مع ألفاظ: المؤمن والمسلم والكافر والمشرک والمنافق والجهاد والصلاة والوضوء وغيرها من الألفاظ...

¹ - ينظر: في علم الدلالة، دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفصليات، عبد الكريم محمد حسن جبل، دار المعرفة الجامعية، 1997م، القاهرة، ص 33.

² - ينظر: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط6، ص 135 وما بعدها.

أما عن مظاهر وأشكال التطور الدلالي للألفاظ، فيمكن حصرها في ثلاثة مظاهر، وهي¹:
1-توسيع الدلالة أو تعميمها: وذلك عندما تنتقل من معنى خاص إلى معنى عام، فيصبح عدد ما تشير إليه الكلمة من الدلالات أكثر مما سبق، ومثاله: لفظ **الورد** الذي أطلق في الأصل على إتيان الماء، ثم صار إتيان كل شيء وردا.

2-تضييق الدلالة أو تخصيصها: ويعني ذلك تحديد معاني الكلمات وتقليلها، ومثاله: لفظ **الحجّ** الذي كان يدل على معنى القصد مطلقا، ثم خصّ بقصد بيت الله الحرام.

3-انتقال الدلالة بسبب المشابهة أو المجاورة: ويسميه بعضهم انتقال المعنى أو نقل المعنى، ويكون بانتقال اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى مشابه له أو قريب منه، أو بينه وبينه مناسبة، وأبرز طرقه الاستعارة والمجاز المرسل، ويكون في الغالب بالانتقال من الدلالات الحسية إلى الدلالات المعنوية. و"استعمال اللفظ بالمعنى الجديد يكون في بادئ الأمر عن طريق المجاز، ولكنه بعد كثرة الاستعمال وشيوعه بين الناس تذهب عنه هذه الصفة، وتصبح دلالاته على مدلوله الجديد دلالة حقيقية لا مجازية"²، فكلمة بحث مثلا تدل في الأصل على معنى تحريك اليد في التراب للتفتيش عن شيء ما، ثم استعيرت للدلالة على التفتيش عن أي شيء في أي مكان.

ومن آثار التطور الدلالي شيوع الظواهر اللغوية المختلفة كالترادف والمشارك اللفظي والأضداد والاشتقاق وغيرها. وقد بذل اللغويون جهودهم في دراسة هذه الظواهر وتحليلها، ومباحثة أسبابها، فتباينت آراؤهم واختلفت مواقفهم منها، وسنعرض لها في قابل. ومن آثار التطور والتغير في الدلالة أيضا الإسهام بشكل كبير وفعل في صناعة المعاجم التاريخية.

ولا شك أنّ عناية اللغويين القدامى بقضايا الدلالة والتطور الدلالي بادية لكل باحث مضطلع بشؤون اللغة، فلا يكاد يخلو منها مصنف من مصنفاتهم، ومن تلك الكتب: معاجم غريب الحديث،

¹ - ينظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 243 وما بعدها، وفقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، ص 218 وما بعدها.

² - فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، ص 221.

وأظهرها وأشهرها كتاب "النهاية" لابن الأثير، ومن خلال هذا الكتاب سنتعرف على ما لحق بالألفاظ الواردة في غرائب الحديث من تطورٍ في دلالتها، في ظلّ ما قرره مجد الدين بن الأثير هو ومن سبقه من شراح الغريب، باعتباره ناقلاً عنهم في الغالب. فقد وجدناه حريصاً كل الحرص على تتبع الأصل الدلالي للفظ الغريب، وعلاقته بالمعنى الذي لحق به فيما بعد، وسنسوق بعض الأمثلة للتدليل على ذلك من "النهاية"، مقتصرين على المظاهر الثلاثة التي تمّ انتواها سابقاً، وهي التخصيص والتعميم والنقل المجازي.

فمن ألفاظ الغريب التي تمّ رصدها في كتاب النهاية وقد اعترها التخصيص بعد العموم: كلمة (مأتم):

* (أ ت م) (س) وفيه: «فأقاموا عليه مأتماً» المأتم في الأصل: مجتمع الرجال والنساء في الغمّ، والفرح، ثم حُصّ به اجتماع النساء للموت. وقيل: هو للشوّاب من النساء لا غير¹. الشاهد في الحديث كلمة (مأتم) التي كانت تطلق على الاجتماع في الحزن والفرح، ثم خصص معناها للدلالة على الاجتماع في الموت. وكانت تشمل قبل التخصيص الرجال والنساء معاً، ثم خصصت لتشمل النساء فقط، ثم خصصت لتقتصر على الشوّاب من النساء فقط.

ومن تلك الألفاظ أيضاً: (الحج)

* (ح ج ج) في حديث الحجّ: «أيها الناس؛ قد فُرض عليكم الحجّ، فحُجُّوا» الحجّ في اللغة: القصد إلى كلّ شيء، فخصّه الشرع بقصد معين ذي شروط معلومة، وفيه لغتان: الفتح والكسر. وقيل: الفتح المصدر، والكسر الاسم، تقول: حججت البيت أحجّه حجّاً، والحجّة بالفتح². الشاهد في الحديث لفظ: الحجّ، فقد اعتره تخصيصٌ بعد عموم، حيث كان يطلق في الأصل على كلّ قصد، مهما كان المقصود، وبعد مجيء الإسلام أصبح يطلق على القصد إلى المسجد الحرام.

¹ - النهاية: 42/1.

² - النهاية: 810/2.

وكذلك الحال مع لفظ (العُمْرة)، قال ابن الأثير: "العُمْرةُ: الزيارةُ، يقال: اعتمر فهو معتمر، أي: زار وقصد، وهو في الشرع: زيارة البيت الحرام بشروط مخصوصة مذكورة في الفقه"¹. فأنت ترى أن لفظ: العمرة كان قبل الإسلام يدل على معنى الزيارة مطلقا، ولما جاء الإسلام ضيق معناه فجعله مقتصرًا على زيارة المسجد الحرام بشروط معينة.

أمّا عن ألفاظ الغريب التي اعترها تعميم بعد خصوص، وإن شئت قل: توسيع دلالة اللفظ وتعميمها، فمنها لفظ التثويب:

* (ث و ب) (هـ) فيه: «إِذَا تُؤْبَ بالصلاة فأتوها، وعليكم السكينة». التثويبُ هاهنا: إقامة الصلاة. والأصل في التثويب أن يجيء الرجل مستصرخا، فيلوح بثوبه، ليُرى، ويشتهر، فسمي الدعاء تثويبا لذلك، وكلّ داعٍ مثوّبٌ. وقيل: إنما سمي الدعاء تثويبا، من تاب يثوب، إذا رجع، فهو رجوع إلى الأمر بالمبادرة إلى الصلاة، فإن المؤذن إذا قال حيّ على الصلاة فقد دعاهم إليها، وإذا قال بعدها: الصلاة خير من النوم، فقد رجع إلى كلام معناه المبادرة إليها². اهـ

الشاهد في الحديث لفظ: التثويب، الذي كان يدل على المستغيث المستصرخ، الذي يرفع ثوبه ويلوح به عاليا طلبا للنجدة والإغاثة، ثم توسعت دلالة هذا اللفظ لتشمل كل دعاء، وهذا معنى قول ابن الأثير: "كلّ داعٍ مثوّبٌ".

ومن ذلك أيضا: لفظ (العقيلة):

* (ع ق ل) في حديث عليّ: «المختصّ بعقائل كراماته». جمع عقيلة، وهي في الأصل: المرأة الكريمة النفيسة، ثم استعمل في النفيس الكريم من كلّ شيء من الذوات، والمعاني³.

1 -النهاية: 2889/7.

2 -النهاية: 547/2.

3 -النهاية: 2856/6.

الشاهد في الأثر: لفظة (العقيلة) التي كانت تطلق في الأصل على المرأة الكريمة النفيسة، ثم توسعت دلالتها لتستعمل في الدلالة على كل نفيس كريم، ذاتا كان أو معنى.

وهناك ألفاظ انتقلت من الدلالة على معنى إلى معنى آخر عن طريق المجاز، نحو: (الجائزة):
 * (ج و ز) (هـ) وفيه: «الضيافة ثلاثة أيام، وجائزته يومٌ وليلةٌ، وما زاد فهو صدقةٌ»، أي: يضاف ثلاثة أيام فيتكلف له في اليوم الأول مما اتسع له من برِّ وإلطف، ويُقدَّم له في اليوم الثاني والثالث ما حضره، ولا يزيد على عادته، ثم يعطيه ما يجوز به مسافة يوم وليلة، ويسمى "الجيزة"، وهي قدر ما يجوز به المسافر من منهل إلى منهل فما كان بعد ذلك فهو صدقة ومعروف، إن شاء فعل وإن شاء ترك، وإنما كره له المقام بعد ذلك، لئلا تضيق به إقامته، فتكون الصدقة على وجه المن والأذى. ومنه الحديث: «أجيزوا الوفد بنحو ما كنتُ أُجيزُكم»، أي: أعطوهم الجيزة. والجائزة: العطية. يقال: أجازه يجيزه إذا أعطاه.¹ اهـ. ثم قال ابن الأثير: "والأصل الأول، فاستعير لكل عطاء".

وبمقارنة ما ورد في الحديثين يظهر لنا أن الجائزة في الحديث الأول هي: قدر ما يجوز به المسافر من منهل إلى منهل، وهذا المعنى هو الأصل، ثم استعير لفظ الجائزة ليتحمل معنى جديدا هو: العطاء، والعلاقة ما بين المعنيين هي البرّ والإلطف.

ومن الألفاظ التي أصابها النقل المجازي لفظ: (الإخبار):

* (حبت) في حديث الدعاء: «واجعلني لك مُحِبًّا»، "أي: خاشعا مطيعا. والإخبار: الخشوع، والتواضع، وقد أخبَتَ لله يُخبِتُ. ومنه حديث ابن عباس: «فيجعلها مُحِبَّةً مُنِيبةً»، وأصله من الحَبَّتِ: المطمئن من الأرض². فمعنى الحَبَّتِ في الأصل هو: الأرض المطمئنة - وهو معنى حسِّي - ثم استعير هذا اللفظ لمعنى جديد هو: الخشوع والتواضع - وهو معنى مجرّد - على سبيل الاستعارة.

¹ - النهاية: 751/2

² - النهاية: 1101/3

وبعد؛ فإنّ الألفاظ التي وردت في غريب الحديث ونالها تطور في الدلالة بمظاهره الثلاثة: التخصيص، والتعميم، والنقل المجازي كثيرة، ولا يتسع المقام في بحثنا هذا لذكرها كاملة، وإلا فإنها تستحق طرفاً من العناية، إذ ينبغي أن يخصص لها بحث مستقل لإحصائها، ورصد مختلف التطورات الدلالية التي اعترتها على مر الأزمنة والعصور، ولم لا يستفاد منها في صناعة المعاجم العربية التاريخية، ذلك لأن الأحاديث النبوية والآثار السلفية غنية بمادة كهذه.

4. الظواهر اللغوية في كتاب "النهاية":

يبدو من خلال كتاب النهاية، أن ابن الأثير عالم بقضايا اللغة العربية، ملّم بظواهرها المختلفة، بل تجده أحياناً صاحب رأي ونظر، يناقش ويرجح ويرد، وينفي ويثبت، كل ذلك بالحجة والبرهان، وتناوله لأحاديث النبي ﷺ دفع به إلى جعلها شواهد تعضد كثيراً من الظواهر اللغوية، مُبرزاً أثر الحديث النبوي في لغتنا العربية، فكان تميزه في هذا الباب تميزاً ظاهراً، بَزَّ به الأقران ممن صنّفوا في غريب الحديث؛ المتقدمين منهم والمتأخرين.

ومن الظواهر اللغوية التي وقف عندها في مدونة "النهاية"، ما يلي:

1.4. الترادف:

الترادف في اصطلاح القدامى كما يعرفه الفخر الرازي هو: "الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد"¹، وقال مجد الدين بن الأثير عن الأسماء المترادفة: "هي المختلفة الدالة على معنى يندرج تحت حقيقة واحدة"²، بمعنى أن يختلف اللفظان ويبقى المعنى واحداً، كالناس والبشر، والقمح والبر، والخمر والراح والعقار. والترادف: غالى فيه قوم، فأكثروا منه، وأنكره آخرون فنفوه بالكلية، وتوسط قوم آخرون في تصوره وتطبيقاته، واشترط المحدثون: الاتفاق في المعنى بين

¹ - المزهري في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ج 1، ص 402.

² - المرصع في الآباء والأمهات والبنين والبنات والأدواء والدوات، مجد الدين بن الأثير، تحقيق: إبراهيم السامرائي، دار الجليل، بيروت، ط 1، 1991م، ص 290.

الكلمتين، في أذهان مستعملي اللغة، واتحاد البيئة اللغوية، واتحاد العصر أو التزامن، وألا يكون أحد اللفظين نتيجة تصور صوتي للفظ آخر¹.

وكان ابن الأثير من الذين يرون بالترادف في اللغة، ومن أمثلة ذلك: قوله في (التعنيك): هو المشققة والضيق والمنع². ومنه الحديث: «مرّت بي سحابة، فقال: هل تدرّون ما اسم هذه؟ فقالوا: هذا السحاب، قال: والمزن، قالوا: والمزن، قال: والعنان، قالوا: والعنان»³. فسّمى السحاب مُزناً وعناناً على سبيل الترادف.

ويعود منشأ الترادف عند ابن الأثير إلى عوامل مختلفة، لعلّ أبرزها: اختلاف اللهجات وتداخل اللغات العربية، وسبقه إلى هذا المعنى ابن جني (392هـ) حين قال: "وكلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد، كان ذلك أولى بأن يكون لغاتٍ لجماعاتٍ اجتمعت لإنسان واحد من هنا وهنا"⁴، ومن الأمثلة التي ساقها ابن الأثير للدلالة على ذلك قوله في مادة (فشا):

* (ف ش ا) (هـ) ومنه حديث هوازن: «لما انهزموا قالوا: الرأي أن نُدخِلَ في الحصن ما قدرنا عليه من فاشيتنا» أي: مواشينا⁵. والترادف هنا بين الفاشية والمواشي، والفاشية لغة هوازن.

ومن تلك الأسباب أيضا شيوع الصفات، وذلك بأن يكون للشيء الواحد في الأصل اسم واحد، وله صفات متعددة، ومع تقادم الزمن يصبح ذاك الوصف كالاسم لذات الشيء، وأشهر مثال على ذلك، تلك الأسماء الكثيرة التي تنسب للسيف كالصارم والمهند وغيرها، وقد نصّ ابن الأثير على هذا في أحد مصنفاته قائلا: "وقد يوجد من الأسماء ما يطلق على المسمّى بالوضع اسما للذات لا لمعنى فيه كالسيف بإزاء هذه الآلة المعروفة كيف كانت، ومنها ما يطلق عليه لصفة

¹ - ينظر: مصطلح المعجمية العربية، أنطوان عبدو، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، ص203.

² - النهاية: 2918/7.

³ - النهاية: 2919/7.

⁴ - الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، ج1، ص374.

⁵ - النهاية: 3193/7.

فيه كالصَّارم، فإنه موضوع له كصفة الحدّة، ومنه ما يكون موضوعاً للمسمى بسبب الوصف كالناطق والفصيح فإن الفصيح صفة للناطق الذي هو صفة الإنسان¹.

ومن الشواهد على ذلك في النهاية ما ذكره تحت مادة:

* (ع ق ر) (س) في حديث قُسٍّ، ذكر: «العُقار» هو بالضم من أسماء الخمر².

ومن أسباب نشأة الترادف أيضاً الاقتراض اللغوي من اللغات المجاورة، أو ما يسمى بـ(المعرب)، وذلك باستعمال الكلمة المعربة مع ما يقابلها في العربية بحيث يحملان الدلالة نفسها، وقد أشار ابن الأثير إلى كثير من الألفاظ المعربة في مواضعها من النهاية مثل: الأسبذين، والإستبرق، وبختج، والبادق، والبربط، والبرازيق، والبرنس، والباسنة، والدستفشار، والباج، وبهرج، والبيشيارجات، والترياق. وقد سبق ذكرها.

وكنا قد أشرنا من قبل إلى أنّ ابن الأثير لم ينصّ صراحة على مصطلح الترادف، بل جنح إلى عبارات تحيل على معنى الترادف من قبيل: (بمعنى)، (بمعنى واحد)، (واحد)، ومثلنا لذلك بشواهد من "النهاية" في مبحث الشرح بالمرادف.

2.4. المشترك اللفظي:

المشترك اللفظي هو أحد مشكلات التصنيف المعجمي وعلم الدلالة، وحده "التقاء بعض الألفاظ في حروفها وأصواتها، مع أنها بدلالات مختلفة"³. وهو عند ابن فارس أن "تسمى الأشياء الكثيرة باسم واحد"⁴.

¹ - المرصع، ابن الأثير، ص 290.

² - النهاية: 2841/6.

³ - مصطلح المعجمية العربية، أنطوان عبود، ص 203.

⁴ - الصّاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها، أحمد بن فارس، ص 59.

وعرّفه السيوطي بأنه: "اللفظ الواحد الدال على معنيين دلالةً على السواء عند أهل تلك اللغة"¹، وضرب لذلك مثلاً، وهو لفظ (عين) الذي يدل على عين الماء، وعين السحاب، وعين المال، والعين الباصرة. وقد اختلفوا فيه كما اختلفوا في الترادف، فمنهم من أخذ به، ومنهم من صدّ عنه، ولكل فريق حججه وشواهدة.

وابن الأثير وإن لم ينص صراحة على مصطلح المشترك اللفظي في كتاب النهاية كما فعل أسلافه، إلا أنه ثمة قرائن تدل على أنه يرى بوجوده، ومن الشواهد على ذلك ما ذكره تحت الجذر (هدا):

* (ه د ا) (ه) في حديث محمد بن كعب: «بلغني أن عبد الله بن أبي سليط قال لعبد الرحمن ابن زيد بن حارثة - وقد أحر صلاة الظهر - أكانوا يصلون هذه الصلاة الساعة؟ قال: لا والله، فما هدى وما رجع» "أي: فما بيّن، وما جاء بحجة مما أجاب، إنما قال: لا والله وسكت، والمرجوعُ الجواب، فلم يجرى بجوابٍ فيه بيانٌ وحجّةٌ لِمَا فعلَ من تأخير الصلاة. و(هدى) بمعنى: بيّن، لغةً أهل العُور، يقولون: هَدَيْتُ لَكَ بِمَعْنَى بَيَّنْتُ لَكَ. ويقال: بلغتهم نزلت: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مَنِ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكَانِهِمْ﴾³¹².

فقد ذكر المصنف في هذا المثال معنيّ جديداً للفعل (هدى) غير المعنى الأصلي الذي وُضع له، وسبب وروده هاهنا كما قال السيوطي: "جوازُ أن يقع من واضعَيْن، بأن يضع أحدهما لفظاً لمعنى، ثم يضعه الآخر لمعنى آخر، ويشتهر ذلك اللفظ بين الطائفتين في إفادته المعنيين، وهذا على أنّ اللغات غير توقيفية"⁴، بمعنى أنه نتيجة حتمية لاختلاف اللغات واللهجات.

¹ - المزهر في علوم اللغة، السيوطي، ص 369.

² - السجدة: 26.

³ - النهاية: 4555/10.

⁴ - المزهر، السيوطي، ص 359.

ومن أمثلة المشترك أيضا، ما ورد في ماد(عور):

* (ع و ر) (ه) وفيه: «لما اعترض أبو لهب على النبي ﷺ عند إظهاره الدعوة، قال له أبو طالب: يا أعور، ما أنت وهذا؟» لم يكن أبو لهب أعور، ولكن العرب تقول للذي ليس له أخ من أبيه وأمه: أعور، وقيل: إنهم يقولون للردية من كل شيء من الأمور والأخلاق: أعور¹. فهذه ثلاثة معاني للفظ (أعور): عور العين، والذي ليس له أخ له من أمه وأبيه، والردية من كل شيء.

4.3. الأضداد:

الأضداد حقل من حقول اللغة، ولسنا نعني به وجود لفظين مختلفين نطقا متضادين معنى كما هو مقرر عند علماء اللغة المحدثين، إنما نعني به المفهوم القديم وهو مجموع الألفاظ التي تحمل معنيين مختلفين اختلاف تضاد لا اختلاف تنوع، يقول ابن الأنباري (ت328هـ) "هو أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى، فيكون اللفظ الواحد على معنيين متضادين"² وهو قليل في العربية.

وابن الأثير كغيره من شراح الغريب عني عناية خاصة بهذا الباب، فتراه يقف عند هذه الألفاظ ويشير إلى دلالاتها المختلفة، من ذلك مثلا:

* (ت ل ع) وفيه: «أنه كان يبدو إلى هذه التلاع»، التلاع: مسایل الماء من علو إلى سفلى، واحدها تلعة، وقيل: هو من الأضداد، يقع على ما انحدر من الأرض، وما أشرف منها³.
ومنه: حديث العباس -رضي الله عنه-: «قال يوم بدر: القتل جليل ما عدا محمدا»، أي: هين يسير، والجئل: من الأضداد، يكون للحقير والعظيم⁴.

¹ - النهاية: 2932/7.

² - الأضداد، محمد بن القاسم بن الأنباري، تحق: محمد أبو الفضل، دار المطبوعات والنشر، الكويت، 1960م، ص1.

³ - النهاية: 466/2.

⁴ - النهاية: 694/2.

4.4. الإِتباعُ والمزاوجة:

نقل السيوطي عن ابن فارس في فقه اللغة أنّ "للعرب الإِتباع، وهو أن تَتَّبِعَ الكلمةُ الكلمةَ على وزنها أو رويّها إشباعاً وتأكيذا"¹، ثم قال: "رُوي أن بعض العرب سئل عن ذلك، فقال: هو شيء نَتَدُّ به كلامنا، وذلك قولهم: ساغب لاغب، وهو حَبَّ ضَبِّ، وخراب يباب..."²، أمّا عن سبب تسميته بالإِتباع، فقد نقل السيوطي عن الكسائي قوله: "وإنما سمي إِتباعاً لأن الكلمة الثانية إنما هي تابعة للأولى على وجه التوكيد لها، وليس يتكلم بالثانية منفردة، فلهذا قيل: إِتباع"³. واشترطوا ألا يفصل بين الكلمتين واو، لذلك لم يُعَدَّوا عبارة: "حَيَّاكَ اللهُ وَيَيَّاكَ" من الإِتباع.⁴ وكذلك قول النبي ﷺ في حديث زمزم: «هي لِشَارِبٍ حِلٌّ وَبِلٌّ»، قال ابن الأثير: "البِلُّ المباح... وبعضهم يجعله إِتباعاً لـ (حِلٌّ)، ويمنع من جواز الإِتباع الواو"⁵.

ويرى ابن الأثير كغيره من علماء الغريب بوجود الإِتباع، ونلمس ذلك من خلال تتبعه للألفاظ التي وقع فيها إِتباع ومزاوجة، ومثال ذلك في النهاية كثير، بلغ ثمانية وعشرين موضعاً، منها: «لَقَّا بَقًّا»، قال ابن الأثير: يقال: رجل بَقَّاق لَقَّاق، وبَقَّاق لَقَّاق، إذا كان كثير الكلام، ويروى (لَقَّا بَقًّا) بوزن عصا، وهو تَبَعٌ لـ (لَقَّا)، واللَّقَى: المرمي، المطرُحُ⁶. ومنه: حديث عمر: «الرِّجَالُ ثَلَاثَةٌ: فَرَجْلٌ حَائِرٌ بَائِرٌ» إذا لم يتجه لشيءٍ. وقيل: هو إِتباع لحائر⁷. ومنه: حديث العباس: «فهي لهم تَالِدَةٌ بِالدَّةِ» يعني: الخِلافة. والبالد: إِتباع للتالد⁸.

¹ - المزهري، ص 414.

² - المرجع نفسه، ص 414.

³ - المرجع نفسه، ص 415.

⁴ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁵ - النهاية: 370/2

⁶ - النهاية: 354/2

⁷ - النهاية: 387/2

⁸ - النهاية: 366/2

المبحث الرابع: منهج ابن الأثير في الاستشهاد في كتاب "النهاية":

الشاهد في المجال المعجمي هو "كل عبارة أو جملة أو خطاب مقتبس يؤتى به ضمن التعريف، لتأكيد استعمال لغوي معين أو توضيحه، أو إتمام المعلومات المتصلة بالمدخل"¹، ويكون الشاهد متضمنا في التعريف بعد القيام بالتحليل الدلالي للمدخل في الغالب، ويوضع بين علامتي تنصيص كنص مقتبس للاستدلال والاحتجاج به لتوكيد استعمال لغوي معين، مع الإحالة على قائله الأول. ويرمي صنّاع المعاجم باستخدام الشواهد بأنواعها إلى تحقيق جملة من الأهداف، لعلّ أبرزها: دعم المعلومات الواردة في التعريف، أو تمييز معنى عن معنى آخر، أو بيان التلازمات المتنوعة للكلمة، أو توضيح السلوك اللغوي للمفردة، إضافة إلى توضيح المعنى، أو وضع الكلمة المشروحة في سياقات مختلفة، أو تعميق فهم مستخدم المعجم للقواعد النحوية والدلالية التي تتحكم في استعمال الكلمة، وأخيرا وليس آخرا، فإنّ في الشاهد المقتبس توثيقا وتدليلا على صحة التعريف الذي قدّمه المعجمي². فضلا عن ذلك، فإنّ للشاهد بصفة عامة بعدا مرجعيا يُسفر عن الخلفية الفكرية والثقافية واللغوية التي يتمتع بها المعجمي، وينتقل خلالها.

وابن الأثير لم يختلف كثيرا عمّن سبقه من أهل اللغة، فقد عُني بالشواهد على اختلافها عناية خاصة، يعضد بها ما كان يراه من آراء لغوية أو نحوية أو صرفية أو صوتية وحتى آراءه الفقهية. وأول ما لاحظناه على كتاب "النهاية" غزارة شواهد وتنوعها، يتصدّرها الشاهد القرآني بقراءاته المختلفة، والشاهد الحديثي بما في ذلك أقوال الصحابة، يليهما الشاهد الشعري، وما ورد عن العرب من الأمثال السائرة.

¹ - منهجية اعتماد الشاهد في المعاجم العربية الحديثة، سميرة نورين، مجلة اللسانيات، مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، الجزائر، ع19، 20، ص445.

² - ينظر: صناعة المعجم الحديث، أحمد مختار عمر، ص144، وينظر: علم اللغة وصناعة المعجم، عليّ القاسمي، ص138.

أمّا عن منهجه في الاحتجاج، فإنه يستعين على شرح غرائب الحديث بالحديث الشريف نفسه، أو بأقوال الصحابة والتابعين، ويستشهد تارة بالقرآن الكريم وقراءاته المختلفة، وبكلام فصحاء العرب من شعر ونثر في غير إسراف. وفي الغالب يرجع إلى أقوال اللغويين وشرح الغريب، وفي ذلك يقول عبد الكريم مرداوي: "أما منهجه في تفسير اللفظ الغريب؛ فأول ما يبدأ به شرح الحديث بالحديث أو بالأثر المنقول عن الصحابة، وقد يلجأ إلى شرح الحديث بالقرآن الكريم، وقد يشرحه بما درج عليه شرح غريب الحديث وشاع عندهم أكثر من غيره؛ وهو شرح الحديث بأقوال اللغويين وآرائهم التي قد ينقلها دون ترجيح، وقد يقوِّي رأياً على آخر، أو يرفض بعضها الآخر"¹.

1. الاستشهاد بالقرآن الكريم وبعض القراءات القرآنية:

لا يختلف اثنان في أن القرآن الكريم يأتي في مقدمة مصادر العربية وشواهداها، وابن الأثير شأنه شأن كبار أهل اللغة لم يتوان في رصد الشواهد القرآنية لإثبات معاني بعض الألفاظ أو توكيدها، أو إثبات قاعدة نحوية أو لغوية. وقد يورد آية لما عن له فيها من غريب، فيشرحه، ويبين المراد منه.

فمن الشواهد القرآنية التي أوردتها لتوكيد معنى معيناً، قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾² يحتج بها على معنى كلمة (الخطر) التي بمعنى: المنع.³ وقوله في حديث عمر رضي الله عنه: «لا تُغالوا في الصدقات» هي جمع صدقة، وهو مهر المرأة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾⁴5.

كما استدل على بعض أساليب العرب في مخاطبتها بآيات من القرآن الكريم، من ذلك قولهم: (ألم تر إلى فلان، وألم تر إلى كذا)، "وهي كلمة تقولها العرب عند التعجب من الشيء، وعند تنبيهه

¹ - مناهج التأليف المعجمي عند العرب، عبد الكريم مرداوي، ص 130.

² - الإسراء: 20.

³ - النهاية: 948/3.

⁴ - النساء: 4.

⁵ - النهاية: 2299/5.

المخاطب، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾¹، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾²، أي: ألم تعجب بفعلهم، وألم ينته شأنهم إليك³.

ومن مواطن الاستشهاد بالقرآن الكريم احتجاجه على معاني بعض الحروف، وقد عقد محقق الكتاب فهرسا خاصا بحروف المعاني في آخر الكتاب سماه: فهرس الأدوات. ومن أمثلة ذلك:

* لام العاقبة: وقد ورد ذكرها في حديث: «أنه بعث سرية، فبعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ فانتحى له عامر بن الطفيل فقتله، فلما بلغ النبي ﷺ قتله قال: أُعْنِقَ لِيَمُوتَ»، "أي: إنَّ المنيَّةَ أسرعَ به، وساقته إلى مصرعه، واللام لام العاقبة، مثلها في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عُدُوًّا وَحَزَنًا﴾⁴."5

* لوما الدالة على التحضيض: في حديث عمر: «لوما أَبْقَيْتَ» "أي: هلا أَبْقَيْتَ، وهي حرف من حروف المعاني، معناها التحضيض، كقوله تعالى: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ﴾⁶."7

ومن الآيات التي أوردها ليشرح ما فيها من غريب قوله تعالى: ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾⁸، يريد لفظة (إِرمَ)، حيث قال فيها: "اختلفوا فيها، فقيل: دمشق، وقيل: غيرها"⁹. وكذلك فعل مع كلمة (آسِن) في قوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنهَرُ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾¹⁰، حيث قال: "آسِنٍ أو ياسنٍ، آسِن المَاءِ

1 - البقرة: 243.

2 - آل عمران: 23.

3 - النهاية: 1509/4.

4 - القصص: 8.

5 - النهاية: 2914/7.

6 - الحجر: 7.

7 - النهاية: 3836/8.

8 - الفجر: 7.

9 - النهاية: 97/1.

10 - محمد: 15.

يَأْسِنُ، وَأَسَنَ يَأْسِنُ، فَهُوَ آسِنٌ، إِذَا تَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُ"¹. وعلى آية حال، فإن المواضع التي شرح فيها بعض ألفاظ غريب القرآن قليلة لا تكاد تذكر في مقابل غريب الحديث.

أمّا عن القراءات القرآنية فقد اختار طائفة منها، وكان اختياره لها على أساس صلاحها لأن تكون شاهداً، بغض النظر عن تواترها أو شدوذها، من ذلك قوله في مادة (طيف): في حديث المبعث: «فقال بعض القوم: قد أصاب هذا الغلام لممّ أو طيف من الجن» أي: عرض له عارض منهم، وأصل الطيف الجنون، ثم استعمل في الغضب، ومسّ الشيطان ووسوسته، ويقال له طائف، وقد قرئ بهما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾².³، فقرأ ابن كثير وأبو عمر والكسائي: (طَيْفٌ)، وقرأ الباقون: (طائفٌ).⁴

ومن ذلك أيضاً استشهاده بإحدى القراءات القرآنية على إثبات استعمال ماضي الفعل (وَدَعَ)، حيث قال: "يقال: وَدَعَ الشيءَ يَدَعُهُ وَدَعَا، إِذَا تَرَكَه. وَالنَّحَاةُ يَقُولُونَ: إِنَّ الْعَرَبَ أَمَاتُوا مَاضِي (يَدَعُ)، وَمَصْدَرَهُ، وَاسْتَعْنَوْا عَنْهُ بِ (تَرَكَ). وَالنَّبِيُّ ﷺ أَفْصَحَ (يَقْصِدُ قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَيْنْتِهِنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ أَوْ لِيُخْتَمَنَ عَلَى قُلُوبِهِمْ»)، ثُمَّ يُوَاصِلُ مَعْلَقًا عَلَى كَلَامِهِمْ: "وَإِنَّمَا يُجْمَلُ قَوْلُهُمْ عَلَى قَلَّةِ اسْتِعْمَالِهِ، فَهُوَ شَادٌّ فِي الْاسْتِعْمَالِ، صَحِيحٌ فِي الْقِيَاسِ. وَقَدْ جَاءَ فِي غَيْرِ حَدِيثٍ، حَتَّى قُرِئَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾⁵ بالتخفيف"⁶. أي: (مَا وَدَّعَكَ) بتخفيف حرف الدال في (ودَّعَكَ).

1 - النهاية: 119/1.

2 - الأعراف: 201.

3 - النهاية: 2592/6.

4 - ينظر: النهاية، تحقق: أحمد الخراط، 2592/6، هامش رقم: 06.

5 - الضحى: 03.

6 - النهاية: 4374/9.

2. الاستشهاد بالأحاديث النبوية وبعض الآثار:

تحدثنا في المدخل عن قضية الاستشهاد بالحديث النبوي في النحو واللغة والمعجم، وكيف أنّ العلماء اختلفوا في ذلك وكيف أنهم انقسموا إلى طوائف ثلاث: بين مجيز ومانع ومتوسط، وذكرنا موقف كل طائفة وحججها، وخلصنا في النهاية إلى أنّ الحديث النبوي أصل من أصول الاحتجاج خاصة عند اللغويين والمعجميين، وأنّ الاعتداد به يجعلنا نستثمر رافدا مهما في إغناء العربية وإثرائها. ومما لا شك فيه أنّ في شرح الحديث بالحديث دقّة متناهية في إصابة المعنى ومحاصرته، وهو المقصود من وضع المعاجم أصالة، ذلك لأن القائل واحد، وهو النبي الكريم ﷺ، وهو أدرى وأعلم بما يقول، وهو أفصح من يقول، لذا؛ نجد من المنطقيّ أن يأخذ ابن الأثير معظم شواهد من الحديث الشريف نفسه، على اعتبار أنّ الكتاب كتاب حديث إلى جانب كونه كتاب لغة، وتفسير الحديث بالحديث أدقّ في إصابة المعنى، لذلك نجد تحت بعض المواد اللغوية نصوصا كثيرة من أحاديث الغريب مثل مواد: (خلف، دين، ركب، دخل، سمع)، وذلك لاختلاف دلالاتها وتنوع استعمالاتها وتعدد مقاصدها.

ولعل أبرز المواضع التي احتج فيها ابن الأثير بالحديث الشريف كانت في ميدان اللغة، فاحتج به على بعض أساليب العرب في الخطاب، واحتج به على بعض اللهجات العربية، كما استعان به في إثبات معاني بعض الألفاظ التي استعملها العرب في غير معناها الذي اشتهرت به¹.

فمن الأول: أنّ من أساليب العرب ذكر الشيء وتوكيده رغم وضوحه، من ذلك ما جاء في حديث: «**رجبٌ مُضَرّ الذي بين جمادى وشعبان**» قال ابن الأثير: "أضف رجب إلى مضر، لأنهم كانوا يعظمونه خلاف غيرهم، فكأنهم اختصوا به. وقوله: «**بين جمادى وشعبان**» تأكيد للبيان وإيضاح"². ومعلوم أنّ رَجَبَ هو الشهر الذي يكون بين جمادى وشعبان، وإنما ذكر هذا التفصيل

¹ - ابن الأثير المحدث، أميمة بدر الدين، ص 301.

² - النهاية: 1550/4.

من قبيل التوضيح والبيان.

ومن الثاني: احتجاجه بالحديث على لغة أهل اليمن، وذلك في حديث: «لا مانع لما أنطيت، ولا مُنطِيَّ لما منعت» وقد مرّ معنا، وفيه قال ابن الأثير "هو لغة أهل اليمن في (أعطى)"¹.

ومن الثالث: إطلاق لفظ (الضالة) على المعاني، والأصل خلاف ذلك، يقول ابن الأثير في حديثه عن قوله ﷺ: «ضالَّةُ المؤمنِ حرقُ النَّارِ»، (الضَّالَّةُ): "هي الضائعة من كل ما يقتنى من الحيوان وغيره ... والمراد بها في هذا الحديث: الضَّالَّةُ من الإبل والبقر مما يحمي نفسه، ويقدر على الإبعاد في طلب المرعى والماء، بخلاف الغنم. وقد تطلق على المعاني، ومنه الحديث: «الكلمة الحكيمة ضالَّةُ المؤمن»²، وفي ذلك دليل على أن لفظ (الضالة) يطلق أصالة على الشيء المادي، لكن العرب قد تطلقه على بعض المعاني، كإطلاقها على معنى: الكلمة الحكيمة، اعتبارا بما ورد في الحديث.

ومنه أيضا: الفعل (قال) الذي تورده العرب بمعنى (أوما)، ويشهد لذلك حديث: «فقال بالماء على يده»، وفي حديث آخر: «فقال بثوبه هكذا» قال ابن الأثير: "العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال، وتطلقه على غير الكلام واللسان، فنقول: قال بيده، أي: أخذ، وقال برجله، أي: مشى وفي حديث السهوي: «فقال: ما يقول ذو اليمين؟ قالوا: صدق» روي أنهم أوماؤا برؤوسهم، أي: نعم، ولم يتكلموا ويقال: قال بمعنى أقبل، وبمعنى مال، واستراح، وضرب، وغلب، وغير لك"³.

وقد يستشهد ابن الأثير بالحديث النبوي على مسألة في النحو واللغة: ففي حديث: «أنه نهي عن قيل وقال»، يرى ابن الأثير أنّ (القَالَ) مصدر معنى القول، ونقل عن أبي عبيد تعليقا له

¹ - النهاية: 4188/9.

² - النهاية: 2474-2473/6.

³ - النهاية: 3527/8.

على هذا الحديث يقول فيه: "فيه نحوٌ وعربيةٌ، وذلك أنه جعل القالَ مصدرًا، كأنه قال: نهي قيلٍ وقولٍ، يقال: قلتُ قولًا وقيلًا وقالًا". ثم قال ابن الأثير: "وبناؤهما على كونهما فعلين ماضيين متضمنين للضمير، والإعراب على إجرائهما مجرى الأسماءِ خلوين من الضمير، وإدخال حرف التعريف عليهما في قولهم: القيل والقَال" ¹.

ومن صور الاستشهاد بالحديث أيضا أن المصنف -رحمه الله- يورد الحديث، ثم يشرح ما فيه من غريب، ثم يسوق شواهد حديثة أخرى تتفق وحديث الباب الذي منه بدأ، مبرزًا الصلة التي تربط بين هذه الأحاديث بطريقة توحى بقوة استحضارها، ومكنة تحليلها والربط بينها من حيث الدلالة والمعنى. من ذلك مثلا:

* (أ ص ر) (هـ) في حديث الجمعة: «وَمَنْ تَأَخَّرَ وَلَعَا كَانَ لَهُ كِفْلَانِ مِنَ الْإِصْرِ». الإِصْرُ: الإِثْمُ، والعقوبة، لِلْغَوْهِ، وتضييعه عمله، وأصله من الضِّيْقِ والحُبْسِ، يقال: أَصْرَهُ يَأْصِرُهُ، إذا حبسه وضيَّق عليه، والكِفْلُ: النصيب. ثم أتبعه بحديث: «من كسب مالا من حرام، فأعتق منه، كان ذلك عليه إصْرًا». ثم أتبعه بحديث آخر: أنه سئل عن السلطان فقال: «هو ظلُّ الله في الأرض، فإذا أحسن فله الأجر، وعليكم الشكر، وإذا أساء فعليه الإِصْرُ، وعليكم الصَّبْرُ». ² والإِصْرُ في الأحاديث الثلاثة معناه: الإِثْمُ.

ومن ذلك أيضا:

* (ن ض ب) وفيه: «ما نَضَبَ عنه البحرُ وهو حيٌّ فمات فكلَّوه»، نَضَبَ الماءُ: إذا غار ونَفِدَ. ومنه حديث الأزرق بن قيس: «كُنَّا على شاطئِ النهرِ بالأهوازِ وقد نَضَبَ عنه الماءُ»، وقد يُستعار للمعاني. ومنه حديث أبي بكر: «نَضَبَ عُمرُ، وضحا ظلُّه»، أي نَفِدَ عمره، وانقضى ³.

¹ - النهاية: 3523/8

² - النهاية: 125/1.

³ - النهاية: 4172/7.

وكذلك كان صنيعة - رحمه الله - مع آثار السلف من الصحابة والتابعين على قلتها، فقد استعان بما ابن الأثير في شرح معاني بعض غرائب الحديث أو لتوكيدها، من ذلك ما أورده تحت مادة (عرف)¹، وما أورده تحت مادة (ذدع)².

3. الاستشهاد بالأشعار وبعض الأمثال العربية:

لقد التزم ابن الأثير في الاستشهاد بالشعر بعصور الاحتجاج الجاهلية والمخضمة، والإسلامية المتقدمة، شأنه في ذلك شأن علماء العربية الأوائل، فقد سلك في ذلك طريق القتيبي، والحري، والزمخشري، وغيرهم، ولم يبدل تبديلاً، وكان مما درج عليه في عرض شواهد، أنه ينسب البيت إلى صاحبه، وقد يُغفل قائله أحياناً، كما أنه قد يورد البيت كاملاً أحياناً، وقد يقتصر على ذكر صدره أو عجزه خلافاً لما سار عليه سلفه الذين أفاضوا في ذكر الشواهد الشعرية على غرار الإمام الحري والزمخشري.

والشواهد الشعرية في كتاب "النهاية" نوعان:

أما النوع الأول؛ فقد أورده لا على سبيل الاحتجاج والاستشهاد، وإنما أورده ليشرح ما فيه من غريب، كما فعل مع غريب القرآن وغريب الآثار التي وردت عن الصحابة والتابعين، وخير مثال على ذلك: صنيعة مع قصيدة كعب ابن زهير: "بانت سعاد"، حيث شرح ما كان فيها من غريب، بعد أن وزعه على مواضعه بحسب الترتيب الهجائي الذي التزم به. ومثال ذلك شرحه لكلمة (حدباء) في قول كعب:

كُلُّ ابْنِ أَنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلِ حَدْبَاءَ مَحْمُولٌ

حيث قال فيها: "يريد على النعش، وقيل: أراد بالآلة: الحالة، وبالحدباء: الصعبة الشديدة"³.

¹ - ينظر: النهاية: 2727/6.

² - ينظر: النهاية: 1428/4.

³ - النهاية: 828/3.

وأما النوع الثاني؛ فمحلّ إيراده إنما هو تأكيد لمعنى ذهب إليه في شرح غريبة، أو إثبات لقاعدة لغوية أو نحوية أو صرفية، أو لهجة من اللهجات العربية.

فمما استعان به المصنف من الشعر على شرح بعض ألفاظ الغريب؛ قوله في شرح كلمة (البادرة): "البادرة من الكلام: الذي يسبق من الإنسان في الغضب. ومنه قول النابغة:

ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن له بوادٍ تحمي صفوه أن يكذرا¹

ومنه أيضا: ما ورد في حديث أبي الأسود: «أنه وضع النحو حين اضطرب كلام العرب، وغلبت السليقة»، قال ابن الأثير: أي اللغة التي يسترسل فيها المتكلم بما على سليقته، أي: سجيته، وطبيعته، من غير تعمد إعراب، ولا تجنب لحن. قال²:

ولست بنحويّ يلوك لسانه ولكن سليقيّ أقول فأعرب

أي: أجري على طبيعتي، ولا ألحن³. وسليقيّ نسبة إلى السليقة، وهو موضع الشاهد في البيت. ومنه أيضا: ما ورد تحت مادة: (خبأ) (ه) ومنه الحديث: «ابتغوا الرزق في خبايا الأرض» هي جمع خبيئة، كخطيئة وخطايا، وأراد بالخبايا: الرزق، لأنه إذا ألقى البذر في الأرض فقد خبأه فيها. قال عروة بن الزبير: "أزرع، فإنّ العرب كانت تتمثل بهذا البيت:

تتبع خبايا الأرض وادع مليكها لعلك يوما أن تجاب وتزرقا⁴

ومما احتج به من الشعر على بعض المسائل النحوية، مسألة دخول (إذا وإذ) الفجائيتين على جواب (بيننا وبينما)، وقد أشار إلى ذلك في حديث: «بيننا نحن عند رسول الله، إذ جاءه رجل» حيث قال: "أصل بينا: بين، فأشبع الفتحة فصارت ألفا، يقال: بينا وبينما، وهما ظرفا

¹ - النهاية: 255/1

² - لا يعرف قائله. ذكره الزمخشري في كتاب الفائق: 192/2، وابن منظور تحت مادة (سلق).

³ - النهاية: 1982/5.

⁴ - البيت لمحمد بن مسلم المعروف بابن شهاب الزهري، ذكره المرزباني في معجم الشعراء، ص345، بلفظ: تبع...

⁵ - النهاية: 1098/3.

زمان بمعنى المفاجأة، ويضافان إلى جملة من فَعَلَ وفاعل، ومبتدأ وخبر، يحتاجان إلى جواب يتم به المعنى، والأفصح في جوابهما ألا يكون فيه إذ وإذا، وقد جاء في الجواب كثيرا، ومنه قول الحرقة بنت النعمان¹:

وبينا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرنا
إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سَوْقَةٌ نَتَنصَّفُ²

الشاهد في البيت: دخول إذا الفجائية على جواب بينا، وهو دون الأفصح عند ابن الأثير، وتتنصّف بمعنى: نخدم.

ومن الأحكام النحوية التي ناقشها في كتابه؛ تعليقه على الحكم الإعرابي للفظ (أوان) في حديث: «ما زالت أكلة خيبر تعادني فهذا أوان قطع أبهري». فلما استوفى الحديث عن معاني لفظ (أبهر)، انتقل إلى الحديث عن الحكم النحوي للفظ (أوان)، فقال: "يجوز في أوان الضمّ والفتح، فالضم لأنه خبر المبتدأ، والفتح على البناء لإضافته إلى مبني، كقوله³:

على حين عاتبْتُ المشيبَ على الصِّبا
وقلت أَلْمًا تَصْحُ وَالشَّيْبُ وَاذُعُ⁴

والشاهد في البيت لفظة (حين) التي جاءت مبنية على الفتح، رغم أنها سبقت بحرف جر، كونها أضيفت إلى جملة ابتدأت بفعل مبني وهو الفعل (عاتب)، فكذلك الأمر بالنسبة للفظ (أوان) الذي يجوز فيه البناء على الفتح لإضافته إلى مبني (جملة فعلية مبدوءة بفعل مبني وهو: قطع).

ومما احتج به على بعض لغات العرب، قوله في حديث: «إنه تلده أمه، فيحملن النساء بالخطأين»، قوله: «يحملن النساء» على لغة من يقول: أكلوني البراغيث، ومنه قول الشاعر⁵:

¹ - البيت في: خزنة الأدب، لعبد القادر البغدادي، 59/7، ولم يسم قائله.

² - النهاية: 420/2، 421.

³ - البيت للناطقة الذيباني، وهو في ديوانه برقم 8، ص 32.

⁴ - النهاية: 37/1.

⁵ - البيت للفرزدق، وهو في ديوانه، ص 44.

ولكن دِيَافِيٌّ أبوه وأمهُ بحورانَ يعصِرْنَ السَّليطَ أقرنه

الشاهد في البيت: يعصِرْنَ السَّليطَ أقرنه، والمقصود بالدِّيَافِي: المنسوب إلى قرية بالشام.

والسَّليط: الزيت.¹

وقوله في حديث: «أَنَّ رجلاً قال له: يا نبيَّ الله، فقال: إِنَّا معشَرَ قريشٍ لا نَنبِرُ» وفي رواية: «لا تَنبِرُ باسمي، إِنَّمَا أَنَا نبيُّ الله» "النَّبِر: همز الحرف، ولم تكن قريش تهمز في كلامها"²، وقال: "النَّبِيءُ: فعيل بمعنى فاعل من النَّبَأ: الخبر، لأنه أنبأ عن الله، أي: أخبر. ويجوز فيه تحقيق الهمز وتخفيفها... ومن المهموز شعر عباس بن مرداس بمدحه:

يا خاتمَ النَّبَاءِ إِنَّكَ مُرْسَلٌ بالحق كلُّ هدى السَّبيلِ هُداكا"³

الشاهد في البيت لفظ: (النَّبَاء) جمع نبيء بالهمز، فإذا كانت قريش تقول: النَّبِيَّ بلا همز، فإنَّ غيرها يهمز، يقولون: النبيء، والدليل ما ورد في البيت.

وقد يورد ابن الأثير بعض الأمثال العربية، وإيراده لها إما على سبيل شرحها ورفع الغموض عنها وبيان المراد منها، وتلك فائدة جليلة وإن كان ليس هذا مكانها، أو يوردها على سبيل الاحتجاج للغريب الذي يوافقها، فمن الأول - وهو الغالب - ما ورد على لسان عمرو بن العاص لابنه: «يا بني، أنا أبو عبد الله، إذا حككتُ قَرَحَةً دَمِيَّتِها»، حيث قال ابن الأثير: "(تَدْمِيَةُ القَرَحَةِ) مثل، أي: إذا قصدتُ غايةً تفصَّيْتُها"⁴.

ومن الثاني، حديث: «يُخْرِجُ قَوْمٌ مِنَ العِراقِ والشَّامِ يَبْسُونَ، والمدينةُ خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون»، يقال: بَسَسْتُ الناقةَ، وأَبْسَسْتُها، إذا سُقَّتْها، وزَجَرْتُها، وقلتُ لها: بَسْ بَسْ، بكسر الباء وفتحها.

¹ - ينظر: النهاية: 1197/3.

² - النهاية: 4052/9.

³ - النهاية: 4045/9.

⁴ - النهاية: 3304/7.

ومنه حديث المغيرة: «أشأم من البسوس»، هي ناقة رماها كليب بن وائل فقتلها، وبسببها كانت الحرب المشهورة بين بكر وتغلب، وصارت مثلاً في الشؤم، والبسوس في الأصل: الناقة التي لا تُدر حتى يقال لها: "بُسُّ بُسِّ" بالضم والتشديد، وهو صُوِّتٌ للراعي تُسَكَّنُ به الناقة عند الحلب¹.

المبحث الخامس: منهج ابن الأثير في ضبط النّصّ المعجمي:

اهتم المعجميون العرب منذ القدم بضبط النصوص المعجمية، لأنهم كانوا يعلمون ما لذلك من تأثير في اختلاف المعاني وتباينها، فكانت "الحركة في الكتاب اللغوي ولا سيما المعجمات من الضرورات، لأنّ الإخلال بالضبط الصحيح يكون مُخرِجاً للكلمة من دلالتها إلى دلالة أخرى"². وكان الدافع وراء حرصهم على ذلك درة التصحيف ودفع التحريف، والبعث قدر الإمكان عن الغلط في القراءة، وإصابة النطق الصحيح للكلمة، فتنوعت أساليب الضبط عندهم، بين الضبط برسم حركات الحروف بالقلم، والضبط بالحروف، والضبط بالميزان الصرفي، والضبط بالمثال الشهير، والضبط بالعبارة، وغيرها من أساليب الضبط المعروفة عندهم.

وابن الأثير كغيره من المعجميين القدامى؛ لم يفرط في ضبط ألفاظ الغريب في كتاب **النهاية**، بل كانت عنايته بذلك أشد ما يكون إذا ما قورن بشرح الغريب من السابقين الأولين في هذا الفن، وأساليب الضبط عنده كثيرة ومتنوعة، نذكر منها:

• الضبط برسم حركة الحرف بالقلم: وقد وقفنا على هذا النوع من الضبط في كتاب **النهاية**،

بعد عودتنا إلى صور بعض الصفحات من مخطوط "النهاية"، سواء كان بخطّه، أم بخط أحد تلامذته، فيكون الشّكل بطلب منه، وإن كانت هذه الطريقة في الضبط عرضة لاختفاء الحركات مع مرور الوقت، خاصة أثناء عملية النقل والنسخ. وهذه إحدى الصفحات المكتوبة بخط اليد:

¹ - النهاية: 305/1.

² - في الصناعة المعجمية، إبراهيم السامرائي، دار الفكر، عمان، الأردن، ط1، 1998م، ص 412.



صورة الورقة الثالثة من نسخة (ش) المجلد الأول

- الضبط بالعبرة: وهو نوعان: الضبط بذكر اسم الحركة أو ذكر الحرف وصفته.
- أ- الضبط بذكر اسم الحركة: وأمثله في النهاية كثيرة، منها: قوله في لفظ: اللّحن بسكون الحاء: الخطأ، واللّحن بفتحها: الفطنة¹. وقوله في لفظ (الأُبلة): "هي بضم الهمزة والباء، وتشديد اللام: البلد المعروف قرب البصرة من جانبها البحري"².
- ب- الضبط بذكر الحرف وصفته: ومثاله: (البذاء): بالذال المعجمة³.
- الضبط بالميزان الصرفي، ويكون بذكر الميزان الصرفي للمفردة، فيذكر اسم الوزن مباشرة، من ذلك قوله في (الأقحوان): "بوزن أفعُلان"⁴. وفي حديث الحج: «الجمرة الدنيا» أي: القريبة إلى منى، وهي فُعَلَى من الدنو⁵.
- الضبط بالمثال الشهير: بحيث تضبط الكلمة المقصودة بالشرح بوزن كلمة أخرى تشبهها، وتكون أشهر منها في الاستعمال، كقوله في: (الأرومة): «بوزن أكولة»⁶، وفي (الأضائة): «بوزن حصاة»⁷، و(الأُبلة) بوزن العُهدة⁸. و(الأبيل) بوزن الأمير⁹.
- ضبط الوزن بكلمة مشابهة: ومثاله ما ورد في حديث: «خيارُ أمّتي أحداؤها»، هو جمع حديد، كشديد وأشداء¹⁰. ومَحَقَلَة من الحَقْل، كالمَبَقَلَة من البَقْل¹¹.

1 - ينظر: النهاية: 3759/8.

2 - النهاية: 31/1.

3 - النهاية: 265/1.

4 - النهاية: 140/1.

5 - النهاية: 1416/4.

6 - النهاية: 95/1.

7 - النهاية: 129/1.

8 - النهاية: 28/1.

9 - النهاية: 30/1.

10 - النهاية: 834/3.

11 - النهاية: 972/3.

• الضبط بإبراز بنية الأفعال: ويكون بذكر أبواب الفعل الستة المعروفة، نحو: "أَرَكْتُ تَأْرِكُ وتأْرُكُ"¹، "خَابَ يَخِيبُ وَيَخُوبُ"²، وقد يذكر المعجمي بعض الأفعال المشهورة من الباب نفسه دون أن يسمي الباب وحركته، فتقول مثلاً: برح يبرح من باب تعب، وهكذا... ومن أمثلة هذا في كتاب النهاية: أَرَبَ يَأْرَبُ: "بوزن عِلِم"³.

وبعد، فإنه يمكننا القول -وبناء على ما سبق- أنّ ابن الأثير قد اعتمد منهجا تدريجيا في تفسير الألفاظ الغريبة وشرحها كما لاحظنا، فبعد أن يسوق طرفا من الحديث الذي يحتوي لفظ الغريب، يبيّن معناه بوحدة من طرائق التعريف التي سبق ذكرها، ثم يحتج على ذلك المعنى الذي عيّنه بشاهد من القرآن الكريم أو الحديث النبوي أو الشعر العربي الفصيح في غير إسراف، وإذا وجد قولاً لأحد اللغويين، فإنه يأتي به، كما أنه لا يفوته ضبط المداخل المعجمية بأساليب الضبط المختلفة، خاصة إذا كانت هذه المداخل تحتمل أكثر من وجه وهي خلو من الضبط، كما كان ينبّه على الألفاظ التي اعتراها تطور في المعنى تخصيصاً أو تعميماً أو نقلاً بالمجاز إن وجد، وهذا بعد الإشارة إلى المعنى الأصلي للكلمة.

وفي الأخير، يحسن بنا أن نذكّر بأن هذه الدراسة المعجمية لكتاب النهاية هي في المقام الأول محاولة لإبراز أهمية هذا المعجم، وتفردّه بين المعاجم المختصة في التراث المعجمي العربي، من حيث دقّة الشرح وطرائقه المتنوعة ومعايير المتعددة، خاصة في صياغة ابن الأثير الفريدة للمعنى العام لكل جذر إذا ما قورن بعمل غيره من شراح غريب الحديث والأثر، ومن حيث لغته التي جاءت سهلة مأنوسة. وغيرها من الخصائص التي انماز بها كتاب النهاية دون غيره من معاجم الغريب، والتي تمّ إيرادها في مظاهرها من هذا البحث.

1 - النهاية: 95/1.

2 - النهاية: 1301/3.

3 - النهاية: 82/1.

المبحث السادس: مآخذ على كتاب "النهاية"¹:

مهما بلغ الإنسان من الإتقان، ومن سعة العلم والعرفان، فإنه عرضة للخطأ والتسيان، فلا يكاد يخلو تصنيف من خلل، ولا كلام من زلل، فترى أحدنا يخطئ فيصلح خطأه آخرون، بحسن قصد، وسداد نقد، فيستنير الحق، ويتجلى وجه الصواب والصدق، وكتاب "النهاية"، كغيره من الكتب -على جلاله قدره وعلو مرتبته- أصاب صاحبه في جوانب كثيرة، وفاته أشياء، وبمكنا هنا أن نذكر نَتَقًا من بعض المآخذ التي تبه عليها شُراح هذا الكتاب ومحققوه، وهذه بعضها:

✓ امتاز كتاب النهاية بالسهولة في منهج الترتيب وغازة المادة وشموليتها، ومع ذلك، لم يستقص كلَّ أحاديث الغريب، فقد فاته بعض الأحاديث وبعض المواد أغفلها جملة، والدليل على ذلك تلك الاستدراكات التي ألفت حول الكتاب.

✓ جرت العادة عند ابن الأثير في "النهاية" ألا يذكر الحديث كاملاً إلا قليلاً، فتجده يقتصر من الحديث على ذكر العبارة التي ترد فيها الكلمة الغريبة التي يروم شرحها، مخالفاً بذلك طريقة من سبقه في هذا الفن كابن قتيبة والحري والمخشي، مقتفياً أثر صاحبه الهروي في "الغريين" وأبي موسى المدني في "المجموع المغيث في غربي القرآن والحديث" اللذين أدار عليهما كتابه. وربما رأى أحياناً أن الحديث لا يكاد يوقف على معناه إلا بإيراده كاملاً، فيعمد إلى تأخير الكلام عنه إلى موضع آخر يأتي به كاملاً ثم يشرحه ليفهم معناه، ومن ذلك ما فعله مع حديث «إنَّ أخوف ما أخاف عليكم...» حيث قال عنه: "هذا الحديث يحتاج إلى شرح ألفاظه مجتمعة، فإذا فُرق لا يكاد يفهم الغرض منه"².

✓ قد يشرح ابن الأثير ألفاظاً ظاهرة المعنى لا يكاد يختلف فيه اثنان وأمثلتها في النهاية كثيرة منها: لفظ (العاقِر): التي لا تلد. وربما ذكرها لغرض آخر غير الغرابة، كقوله كلمة (الزَّبل):

¹ - ينظر: النهاية (مقدمة المحقق)، تحق: أحمد الخراط، ص 71 وما بعدها. وينظر: في اللغة والأدب، دراسات وبحوث،

محمود الطناحي، ج 1، ص 402 وما بعدها.

² - النهاية: 1187/3 - 789/2.

"هو بالكسر: السَّرْجِين، وبالفتح: زَبَلْتُ الأَرْض: إذا أصلحتها بالزبل... وإنما ذكرنا هذه اللفظة، مع ظهورها، لئلا تصحّف غيرها، فإنها بمكان من الاشتباه"¹.

✓ كان من منهجه الذي اختاره في ترتيب المداخل: أن يُورد كثيراً من ألفاظ الغريب وَفَقَ لفظها المنطوق به، وليس وَفَقَ منهج أصحاب المعاجم في تجريد الكلمة من الأحرف الزائدة، وإيرادها وَفَقَ جذرها الثلاثي، أو الرباعي، مخالفاً بذلك منهج صاحبيه الهروي وأبي موسى. وهو وإن احتجّ على ذلك بدفع اللبس عمّن لا يفرقون بين الأصلي والمزيد من طلبه العلم إلا أنّ هذا المنهج فيه نظرٌ لا يخفى على أرباب الفن، لأنّ الأصل في الترتيب الهجائي لدى مصنف المعجم أن يكون مراعيّاً لجذّر الكلمة، وتجريدّها من حروف الزيادة، فلا تَرِدُ اللفظةُ إلا في موضعها الصحيح، بغضِّ النظر عن لفظها، وينبغي أن يكون لذلك اطرّاً وعنايةً دقيقة، وذلك للوصول إلى طريقة واحدة، يتمّ من خلالها معالجة جميع المفردات اللغوية الواردة في المعجم.

وإذا كان لا بد من ذكرها مراعاةً لمن ليس له معرفةٌ بالتمييز بين الحروف الزائدة والأصلية للكلمة المنشودة - كما ذكر في مقدمة كتابه-، فلا بأس بذلك بشرط ألا يتحدّث عنها بشيء، وإنما يحيل عليها في موضعها الصحيح وَفَقَ قواعد الصرف في المجرد والمزيد من الأفعال. وقد أنكر عليه غير واحد هذا الاضطراب في منهج الترتيب، حتى قال عنه ابن منظور: "غير أنه لم يضع الكلمات في محلّها، ولا راعى زائد حروفها من أصلها". وسيأتي الحديث عن هذه المسألة في عنصر الترتيب في كتاب النهاية.

✓ قد لا يذكر ابن الأثير في بعض الأحاديث اسم راوي الحديث؛ من الصحابة أو التابعين ولا اسم مخرّجه، ولا يخفى ما في ذلك من مشقة للوصول إلى نص الحديث كاملاً في الكتاب الأمّ.

✓ تبين لنا من خلال موازنة كتاب النهاية مع الكتابين الذين استقى منهما مادته أنّ كثيراً من النصوص المسبوقه بعلامة لأحدهما ليست فيه، وإنما هي لغيره أو لصاحبه، كما أنّ كثيراً

¹ - النهاية: 4/1766.

من النصوص التي ليس لها علامة، ويُفترض أنَّها ليست فيهما، هي مودعةٌ في أحد الكتابين، كما تجده أحياناً يخلط بين الرمز (س، هـ)، وفي ذلك يقول محقق كتاب مجموع المغيث: "كثير جداً من الأحاديث خلت من العلامة وهي لأبي موسى، وبعض الأحاديث عليها (هـ) وهي لأبي موسى، وقليل جداً من الأحاديث معزوة لأبي موسى وهي للهروي، وبعض الأحاديث عليها (هـ، س) وهي لأبي موسى وحده...¹".

والسبب في تقديرنا راجع إلى النسخ الذين ربما كانوا لا يميزون بين العلامتين، أو لا يتقيدون بإثباتهما، ثمَّ إنَّ هذه العلامات لا تعني رمزاً لاقتباس المادة العلمية التابعة للتأصيل اللغوي، أو شرح مقاصد الحديث، وإنما تعني اقتباس نصّ الحديث الغريب فقط، وعزوه لأحد الكتابين: "الغريبين"، أو "المجموع المغيث". خلافاً لما يظنه من يقرأ مقدمة الكتاب أن الاقتباس من الكتابين حرفي. ولعلَّ ميله إلى السهولة واليسر هو ما دفع به في كثير من الأحيان إلى تغيير العبارات الغريبة المهجورة إلى عبارات مألوفة مانوسة.

✓ خلطه بين أمثال العرب وحكمهم وأحاديث المصطفى ﷺ، ومثال ذلك، قوله في مادة (خلب): ومنه الحديث: «إِذَا لَمْ تَغْلِبْ فَاخْلُبْ» أي: إذا أعيك الأمر مغالبة فاطلبه مخادعة². والصواب أن هذا مَثَلٌ من أمثال العرب، وقد نصَّ على ذلك الهروي في الغريبين³، وإلى مثل ذلك ذهب ابن منظور في اللسان⁴، وأبو الفضل الميداني في مجمع الأمثال⁵. ولعلَّ ابن الأثير سها هنا، لأنَّ هذا المثل موجود في كتاب الغريبين كما أسلفنا، وهو أحد الكتابين الذين أدرا عليهما كتابه.

✓ عدم تصريحه في بعض المواضع بأسماء العلماء الذين ينقل عنهم، ويكتفي بالقول: "قال بعض

¹ - المجموع المغيث في غريب القرآن والحديث (مقدمة المحقق)، أبو موسى المدني، عبد الكريم العزباوي، جامعة أم القرى، 1986م، 1/44.

² - النهاية، تحق: أحمد الخراط: 1229/3.

³ - الغريبين في القرآن والحديث، الهروي، تحق: فريد المزيدي، ج1، ص579.

⁴ - لسان العرب، ابن منظور، مجلد2، ص1220.

⁵ - مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني، تحق: محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1955م، 1/34.

المتأخرين"، و"كتب بعض المتأخرين"، وغيرها من العبارات المبهمة.

✓ أشار محمود الطناحي محقق كتاب **النهاية** إلى أنّ ابن الأثير قد أفاد كثيرا من الزمخشري في كتاب **النهاية**، مصرّحا بالأخذ عنه في مواضع، وفي مواضع كثيرة جدا يستاق كلامه، ويصنع منه حججه، ويدير عليه تأويلاته، دون أن يصرح بالنقل عنه، أو العزو إليه، وضرب لذلك بعض الأمثلة من كتاب **النهاية** ومن كتاب **الفائق** للزمخشري.¹

✓ إهماله للترتيب الداخلي للمداخل المعجمية.

ورغم هذه الهنات التي وردت في هذا الكتاب، والتي لا يكاد يخلو منها كتاب، يبقى كتاب **"النهاية"** رائدا في بابها بلا منازع، إليه يفزع كل طالب للغريب، وعنه يصدر كل مشتغل بحديث النبي ﷺ. فلله درّ ابن الأثير من عالم فذّ، وقمّن بأن تشدّ إليه الركاب والرحال، وتسمو إلى معرفته السّوقة والأغفال.

¹ - ينظر: في اللغة والأدب، دراسات وبحوث، محمود الطناحي، ص 434 وما بعدها.

خاتمة

خاتمة:

يبدو أنّ الخبرة الواسعة التي صقلت عودَ مؤلّفٍ في القرن السادس كابن الأثير في الصناعة المعجمية، منحتّه خبرة عميقة في هذا الفنّ، وجعلته يتبوأ المكانة المرموقة في هذا الميدان، حيث إنه وافق كثيرا من الطرائق المعتمدة في الصناعة المعجمية الحديثة، فقد أحسن في باب الجمع كما أجاد في باب الوضع، وهذا لا ينفي أنه قد فاتته بعض الآليات والتقنيات التي أقرتها اللسانيات الحديثة في صناعة المعاجم، وإن كانت تلك العيوب لا تنقص من قيمة جهوده المعجمية؛ لأنها خاضعة لسُنّة التطور، ولأنه لا يمكن أن نحاسب أو ننقد من تقدم زمنه بمقاييس اليوم.

وفيما يلي أبرز النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذا البحث:

1. اقتصرت جهود ابن الأثير في الصناعة المعجمية على التأليف في شرح غريب الحديث والأثر، عدا مصنف "المرصع"، ولا شك أنّ هذا النوع من المعاجم الذي يصنف ضمن معاجم المعاني المختصة، قد أسهم في إثراء وإغناء النصوص المعجمية قديما وحديثا.
2. غزارة مصادر ابن الأثير في مدونته خاصة في غريب الحديث، وفي ذلك دليل على سعة اطلاعه، ومع ذلك؛ فقد ذكر بعضها وأغفل ذكر بعضها الآخر.
3. اختيار ابن الأثير لمنهج الترتيب على حروف المعجم لأنه أيسر المناهج في استخراج الألفاظ، مخالفا بذلك لطريقة من نقل عنهم.
4. موافقة ابن الأثير لكثير من طرق الشرح المعتمدة في الصناعة المعجمية العربية الحديثة، كالشرح بالمرادف والشرح بالسياق والشرح العبارة وغيرها من الطرائق.
5. عناية ابن الأثير في معالجته لدلالة الألفاظ بوظائف المعجم الأخرى غير التعريف، كالتأصيل الاشتقاقي وتقديم المعلومات النحوية والصرفية والصوتية وغيرها.
6. تميز كتاب "النهاية" بعمق منهجه في معالجة الألفاظ مبنى ومعنى، حيث قدّم ابن الأثير خدمة

جلیلة لغریب الحدیث من جهتين: التأسیل اللغوی والبیان المعنوی.

7. یتمتع ابن الأثیر بالحسّ النقدي المعجمي، فقد انتقد كثيرا من سبقه في هذا الفن، ویظهر ذلك في ثنايا كتاب "النهاية".

8. لم یُعَن ابن الأثیر بالترتيب الداخلي للمشتقات تحت الجذر الواحد، فتراه یخلط بين الأسماء والأفعال، والثلاثي والرباعي، وبين المجرد والمزید، شأنه في ذلك شأن المتقدمين من المعجميين العرب، ومما یؤخذ علیه أيضا مجانبة الصواب في شرح بعض الألفاظ، وكذلك التقييد بعصور الاحتجاج.

9. یکاد یكون كتاب "النهاية" أحسن كتب الغریب وأجمعها وأشهرها، وأكثرها تداولاً، فقد غطت شهرته علی ما سبقه من كتب الغریب، إذ لم یأت بعده كتاب في الغریب يفوقه من حيث إحاطة الجمع وحسن الوضع.

10. یعد معجم ابن الأثیر "النهاية" من أهم المعاجم المتخصصة في غریب الحدیث من حيث الاستقصاء والشمول.

11. اعتماد ابن منظور لكتاب "النهاية" كمصدر أساس ورافد رئیس فيه أبلغ ردّ علی بعض اللغویین الذین تحفظوا في الاستشهاد بالحدیث النبوی في اللغة بحجة أنه مروی بالمعنی وأن رواته أعاجم.

12. كتاب "النهاية" مصدر لثروة لغویة حدیثية هائلة، خاصة وأن أحادیث المصطفى علیه السلام قد انفردت باستعمالات لغویة قد لا نجد لها نظیراً في النصوص الأخرى، ولا یزال هذا المعجم معیناً لا ینضب لمن یروم البحث في مختلف الحقول المعجمية واللغویة الواردة في أحادیث رسول الله ﷺ.

13. الوصول إلى كثير من النصوص الفصیحة من خلال كتاب "النهاية" التي لا تكاد توجد في غيره من المصادر، وإن وجدت فإنها لم تبلغنا.

14. يمثل معجم "النهاية" مرحلة النضج التي وصلت إليها كتب غريب الحديث، ولو لا إهماله لجانب الترتيب الداخلي للمداخل لكانت أركان المعجم الكامل قد توافرت في هذا المعجم.
15. اهتمام ابن الأثير بإبراز أثر الحديث النبوي وأهميته في إغناء اللغة، وفي تطورها الدلالي والصوتي، وظواهر لغوية أخرى رأى من الضروري ذكرها لإبراز المعنى ومحاصرته، فرصد لها أمثلة من الأحاديث والآثار، وبين موقفه منها على غرار الترادف والمشارك والأضداد والإبدال والمعرب وغيرها.
16. لم يقتصر عمل ابن الأثير في كتاب النهاية على الجمع والترتيب فقط، بل كان عالما مستقلا في تفكيره حرًا في اختياره، غير تابع ولا مقلد لأحد في جميع أحواله، فتارة ينقل آراء اللغويين دون ترجيح، وتارة أخرى يقوي رأيا على رأي آخر، أو يرفض بعضها الآخر بالحجة والبيان.
17. حفظ معجم النهاية لابن الأثير لكرم هائل من الشواهد الشعرية وأمثال العرب.
18. في معجم النهاية صورة حية عن شخصية ابن الأثير العلمية والمنهجية في علوم الحديث الشريف وفقه اللغة العربية.

التوصيات:

لا يزال هذا المعجم يزخر بجوانب لغوية ومعجمية وأسلوبية تحتاج إلى دراسات مستقلة مثل المسائل الصرفية والنحوية والبلاغية والفقهية واللهجات ودورها في شرح المعنى، وبيان لغات العرب في الصيغ والتراكيب، والشرح بالسياق اللغوي والاجتماعي، وغيرها من المسائل التي تصلح أن تكون موضوعا للدراسة والبحث لمن أراد أن يتقن أسوار هذا السفر العظيم، فهو بلا شك حقل بكر خصيب.



المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم (برواية حفص عن عاصم).

كتب الحديث النبوي الشريف وشروحه وعلومه:

الأربعون النووية، الإمام النووي، دار الإمام مالك، الجزائر، ط1، 2006م.

ألفية السيوطي في علم الحديث، تحق: أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية، بيروت، ط1.

الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، لابن كثير (ت774هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1.

تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر)، دار ابن الجوزي، ط1، 1431هـ.

التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير، الإمام النووي (مُحي الدين بن شرف)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1985م.

تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ابن حجر العسقلاني، علق عليه: أبو عاصم حسن بن قطب، مؤسسة قرطبة، ط1، 1995م.

الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، محمد بن جعفر الكتاني (1345هـ)، دار البشائر الإسلامية، ط5، 1993م.

رياض الصالحين، النووي (أبو زكريا يحيى بن شرف)، باب استحباب بيان الكلام، دار الإمام مالك، ط2، 2004م.

سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد بن ماجة، تحق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1952م.

سنن الترمذي (الجامع الكبير)، محمد بن عيسى الترمذي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1996م.

سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، دار المغني، الرياض، ط1، 2000م.

- شرح المنظومة البيقونية، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 1429هـ.
- شرح كفاية المتحفظ، محمد بن الطيب الفاسي، تحق: علي حسين البواب، دار العلوم، الرياض، ط1، 1403هـ.
- شرح نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر، عليّ القاري، دار الأرقم، بيروت، 1994م.
- صحيح مسلم، الإمام مسلم النيسابوري، تحق: فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1، 1991م.
- علوم الحديث ومصطلحه، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، 1984م.
- علوم الحديث، أبو عمرو عثمان بن الصلاح الشهرزوري، تحق: نور الدين عتر، دار الفكر، دمشق سوريا، 1986.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني، البابي الحلبي، ط1، 1972م).
- الغرابية في الحديث، عبد الفتاح البركاوي، مطبعة أبناء وهبة محمد حسان، 1987م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، المكتبة السلفية، القاهرة، مصر، ط1، 1379م.
- فتح المغيـث بشرح ألفية الحديث، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحق: عبد الكريم الخضير ومحمد بن عبد الله آل فهيد، دار المنهاج، الرياض، السعودية، ط1، 1426هـ، ج3.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2001م.
- معرفة علوم الحديث، ابن الصلاح (أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمان الشهرزوري)، تحق: نور الدين عتر، دار الفكر، دمشق، سورية، دط، 1986م.
- معرفة علوم الحديث، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2003م.
- مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث: لابن الصلاح (ت643)، المطبعة العلمية، حلب، 1993م.

نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، ابن حجر العسقلاني، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2006م.

نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، ابن حجر العسقلاني، تحق: عبد الله الرحيلي، مطبعة السفير، الرياض، 1422هـ.

كتب الغريبين:

التأويل في غريب الحديث من خلال كتاب النهاية لابن الأثير، علي السحيباني، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 2009م.

تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عيد الله بن مسلم بن قتيبة، تحق: أحمد صقر، المكتبة العلمية، 1973م.
تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، أبو حيان الأندلسي، تحق: سمير المجذوب، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ.

تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، تحق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1978م.
جامع الأصول من أحاديث الرسول، مجد الدين بن الأثير، تحق: حامد الفقي، السنة المحمدية، القاهرة، 1949هـ، ج1.

الجامع في غريب الحديث، أبو عبد الله عبد السلام بن محمد علوش، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 2001م.
غريب الحديث، ابن قتيبة (مقدمة المحقق)، تحق: عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1977م.
غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحق: محمد شرف، المطابع الأميرية، القاهرة، 1984م.
غريب الحديث، الخطابي (أبو سليمان حمد بن محمد)، تحق: عبد الكريم العزباوي، دار الفكر، دمشق، 1982م.

غريب القرآن رجاله ومناهجهم من ابن عباس إلى أبي حيان، عبد الحميد السيد طلب، جامعة الكويت، 1986م.

الغريبين في القرآن والحديث، أبو عبيد الهروي، تحق: أحمد فريد المزيدي، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ط1، 1999م.

- الغريبين، أبو عبيد الهروي، تحقيق: محمود محمد الطناحي، مطابع الأهرام التجارية، 1390هـ-1970م.
- الفائق في غريب الحديث، الزمخشري (جار الله محمود بن عمر)، تحق: محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دط، 1414هـ.
- المجموع المغيث في غربي القرآن والحديث، أبو موسى المدني، عبد الكريم العزباوي، جامعة أم القرى، 1986م.
- معاجم غريب الحديث والأثر والاستشهاد بالحديث في اللغة والنحو، السيد الشرفاوي، مكتب الخانجي، القاهرة، ط1، 2001م.
- معاني القرآن، الفراء (يحيى بن زياد)، تحق: أحمد يوسف نجاتي وآخرون، دار السرور، بيروت، لبنان.
- المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن الكريم، عبد العزيز السيروان، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط1، 1986م.
- معجم مصنفات القرآن الكريم، عليّ شواخ إسحاق، دار الرفاعي، الرياض، ط1، 1404هـ.
- مفردات القرآن، عبد الحميد الفراهي، تحق: محمد أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2002م.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة، السعودية، 1430هـ.
- منال الطالب في شرح طوال الغرائب (المقدمة)، مجد الدين بن الأثير، تحق: محمود الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين بن الأثير، تحق: أحمد الخراط، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين بن الأثير، تحق: علي حسن الحلبي، دار ابن الجوزي، الرياض، السعودية، ط1، 1421 هـ.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين بن الأثير، تحق: محمود الطناحي و طاهر الزاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين بن الأثير، ومعه التذليل التذنيب للسيوطي، رضوان مامو، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط1، 2013م.

المعاجم اللغوية والمصطلحية:

أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، تحق: محمد عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ج1.

الأضداد، محمد بن القاسم بن الأنباري، تحق: محمد أبو الفضل، دار المطبوعات والنشر، الكويت، 1960م.
تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي (محمد مرتضى الزبيدي)، تحق: إبراهيم التزوي، مطبعة حكومة الكويت، ط1972م.

تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحق: محمد تامر، دار الحديث، القاهرة، 2009م.

تصحيح الفصح وشرحه، ابن دُرستَوِيه، تحق: محمد بدوي ورمضان عبد التواب، القاهرة، 2004م.
تكملة المعاجم العربية، رينهارت دوزي، تر: محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، العراق، دط، 1980م.

تهديب اللغة، أبو منصور الأزهري، تحق: عبد السلام هارون دار القومية العربية للطباعة، دط، 1964م.
الjasوس على القاموس، أحمد فارس الشدياق، دار النوادر، سورية، لبنان، الكويت، ط1، 2013م.
جمهرة اللغة، ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن)، دار المثنى، بغداد، ط1، 1344هـ، ج1.
درة الغواص في أوهام الخواص، أبو محمد القاسم الحريري (ت516)، تحق: عرفات مرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

العباب الزاخر واللباب الفاخر، الصّاغاني، تحق: قير محمد حسن، المجمع العلمي العراقي، ط1، 1978م.
العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الرشيد، بغداد، دط.

- قاموس اللسانيات (عربي-فرنسي، فرنسي-عربي) مع مقدمة في علم المصطلح، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، دط، 1984م.
- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي التهانوي، تحقق: علي دحروج، مكتبة لبنان، بيروت.
- لسان العرب، ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم)، تحقق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة.
- مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني، تحقق: محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1955م.
- مجل اللغة، ابن فارس، تحقق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1406هـ.
- المحكم، ابن سيده، تحقق: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م.
- المرصع في الآباء والأمهات والبنين والبنات والأذواء والذوات، مجد الدين بن الأثير، تحقق: إبراهيم السامرائي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م.
- المصباح المنير، الفيومي، تحقق: عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة، ط2.
- المصطلحات اللغوية الحديثة، رشاد الحمزاوي، م. و. للكتاب، الجزائر، ط09، 1987م.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م، ج1.
- المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983م.
- معجم المعاجم، أحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1993م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2004م.
- المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، الجواليقي، تحقق: ف. عبد الرحيم، دار القلم، دمشق، ط1، 1990م.
- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقق: عبد السلام هارون، دار الفكر، دط، 1979م.
- مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1979م.

كتب التاريخ والتراجم والسير:

- بنو الأثير، الفرسان الثلاثة، محمد بن عبد الله الحمدان، دار قيس للنشر، ط4، 1418هـ.
- أعلام الصناعات المواصلة، السعيد الديوة جي، مطبعة الجمهور، الموصل، 1970م.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي (جمال الدين أبو الحسن)، تحقق: محمد إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1986م، 1406هـ، ج3.
- البداية والنهاية، ابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1987م، ج13.
- تاريخ الموصل، سعيد الديوة جي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، 1982م.
- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقق: محب الدين العمري، دار الفكر، بيروت، 1995م.
- تراجم رجال القرنين السادس والسابع، عبد الرحمان بن إسماعيل المقدسي، تحقق: محمد زاهد الكوثري، دار الجيل، ط2، 1974م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني، دار الفكر، دت.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقق: بشار عواد وهلال السرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1996م.
- شذرات الذهب، ابن العماد (شهاب الدين أبو الفلاح)، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1991م.
- صحيح السيرة النبوية، الألباني (محمد ناصر الدين)، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، ط1، 1421هـ.
- الفهرست، ابن النديم (محمد بن إسحاق)، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دط، دت.
- الكامل في التاريخ، عز الدين بن الأثير، تحقق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط4، 2003م.
- كشف الظنون، حاجي خليفة، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.
- مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي (عبد الواحد بن علي)، تحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نضرة مصر، القاهرة.

معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1993م.

معجم الشعراء، المرزباني (أبو عبيد الله محمد بن عمران)، تحق: عبد الستار أحمد فراج.

الموصل في العهد الأتابكي، سعيد الديوة جي، مطبعة دمشق، بغداد، 1378هـ.

وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحق: إحسان عباس، دار الفكر، بيروت.

الكتب العربية:

ابن الأثير المحدّث ومنهجه في كتاب النهاية، أميمة رشيد بدر الدين، دار النوادر اللبنانية، بيروت، لبنان، ط1، 1914م.

الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحق: مركز الدراسات الإسلامية، السعودية، 1426هـ.

الاستشهاد والاحتجاج باللغة، محمد عيد، دار عالم الكتب، ط3، 1988م.

الاعتصام، أبو إسحاق الشاطبي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، دط، دت، ج2.

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2003م.

الإغراب في جدل الإعراب، أبو البركات بن الأنباري، تحق: سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، 1967م.

الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين السيوطي، تحق: عبد الحكيم عطية، دار البيروتي، دمشق، ط2، 2006م.

الإنصاف في مسائل الخلاف، الأنباري (أبو البركات)، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ج3.

أنماط التأليف في غريب القرآن منذ النشأة حتى الوقت الحاضر، عبد الكريم حسين السعداوي، جامعة الكوفة، العراق، 1999م.

الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزجاجي، تحق: مازن مبارك، دار النفائس، بيروت، ط3، 1399هـ.

البحث اللغوي عند العرب، أحمد عمر مختار، دار عالم الكتب، القاهرة، ط6، 1988م.

البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي، تحق: عبد القادر العاني، وزارة الأوقاف الكويتية، ط2، 1992م.

بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمان الحاج صالح، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، دط، 2012م، ج2.

البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الميراث، القاهرة، ط3، 1404هـ.

البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن حرب الجاحظ، مكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ.

تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، تر: عبد الحلیم النجار، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1961م، ج1،

تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، تر: عرفه مصطفى، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ط(1998م).

تاريخ المعجم العربي بين النشأ والتطور، ابن حويلي الأخضر ميدني، دار هومه، الجزائر، 2009م.

تطور المعجم العربي، من مطلع القرن التاسع عشر حتى عام 1950م، دراسة-تحليل-نقد، حكمت كشيلى، دار المنهل اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 2002م.

تقنيات التعريف في المعاجم العربية المعاصرة، جيلالي حلام، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999م.

جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، أحمد الهاشمي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 2010م.

الحديث النبوي في النحو العربي، محمود فجال، أضواء السلف، الرياض، ط2، 1997م.

الحديث النبوي وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية، محمد ضاري حمادي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط1، 1429هـ.

خزانة الأدب، البغدادي (عبد القادر)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط4، 1997م.

الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت.

الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، محمد حسين آل ياسين، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط1، 1980م.

دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، شحادة الخوري، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، ط3، 1992م.

دراسات في العربية وتاريخها، محمد الخضر حسين، المكتب الإسلامي-دمشق، ط2، 1960م.

- دراسات في المعاجم العربية، محمد جواد النوري وعلي خليل حمد، مطبعة النصر التجارية، نابلس، ط1، 1991م.
- دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح، دار العلم للملايين-بيروت، ط3، 2009م.
- دفاع عن السنة وردّ شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، محمد أبو شهبه، مطبعة الأزهر، دت.
- دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط6.
- دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، عبد الفتاح البركاوي، دار المنار، القاهرة، 1991م.
- دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان (بتصرف)، ترجمة: كمال بشر، ط: مكتبة السبأب، القاهرة.
- ديوان الفرزدق، تحقق: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2.
- رواية اللغة، عبد الحميد الشلقاني، دار المعارف مصر، 1971م.
- الصّاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها، أحمد بن فارس، تحقق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.
- صناعة المعجم الحديث، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 2009م.
- ضحى الإسلام، أحمد أمين، مكتبة الأسرة، القاهرة، دط، 1997م، ج1.
- العربية والغموض-دراسة لغوية في دلالة المبني على المعنى-حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط2، 2013م.
- علم أصول الفقه، عبد الوهاب خَلاف، دار الغد الجديد، ط1 2009م.
- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1996م.
- علم اللغة بين التراث والمعاصرة، عاطف مدكور، دار الثقافة، القاهرة، 1987م.
- علم اللغة وصناعة المعجم، عليّ القاسميّ، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، ط2، 1991م.
- فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط6، 1999م.
- فقه اللغة وأسرار العربية، أبو منصور الثعالبي، تحقق: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، ط2، 2000م.

- فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دار الفكر ط2، 1964م.
- في أصول النحو، سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، ط2، (1957م).
- في الصناعة المعجمية، إبراهيم السامرائي، دار الفكر، عمان، الأردن، ط1، 1998م.
- في اللغة والأدب، دراسات وبحوث، محمود الطناحي، دار الغارب الإسلامي.
- في علم الدلالة، دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات، عبد الكريم محمد حسن جبل، دار المعرفة الجامعية، 1997م، القاهرة.
- القاموسية العربية الحديثة بين تنمية الفصحى وتحديث القاموس والتأريخ للمعجم، عبد العلي الودغيري، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2019م.
- القرارات النحوية لمجمع اللغة العربية بالأزهر، خالد العصيمي، دار التدمرية، ط1، 2003م.
- الكتاب، سيبويه (عمرو بن عثمان)، عالم الكتب، بيروت، 1985م.
- الكلمة في اللسانيات الحديثة، عبد الحميد عبد الواحد، مؤسسة حورس الدولية، مصر، ط1، 2016م.
- اللسانيات واللغة العربية، عبد القدر الفاسي الفهري، دار توبقال، الدار البيضاء، 1985م.
- مجاز القرآن، أبو عبيدة (معمر بن المثنى)، تحقق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1954م، ج1.
- المدارس المعجمية العربية، صلاح راوي، دار الثقافة العربية، القاهرة، ط1، 1990م.
- المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، تحقق: عليّ محمد البجاوي وآخرون، المكتبة العصرية، بيروت، 1986م.
- مسائل في المعجم، إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1.
- مصطلح المعجمية العربية، أنطوان عبود، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ط1، 1991م.
- المعاجم العربية في ضوء الدراسات المعجمية الحديثة، أحمد عمر مختار، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1998م.
- المعاجم العربية، دراسة تحليلية، عبد السميع محمد أحمد، دار الفكر العربي، القاهرة، دط، 2007م.

- المعاجم اللغوية بداءتها وتطورها، إميل يعقوب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1981م.
- المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، محمد أحمد أبو الفرج، ط دار النهضة العربية، 1966م.
- المعاجمية العربية، الجيلالي حلام، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، ط1، 1997م.
- المعجم العربي بين الماضي والحاضر، عدنان الخطيب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط2، 1994م.
- المعجم العربي بين النظرية والتطبيق، إبراهيم بن مراد، جامعة منوبا، تونس، دط، 2009م.
- المعجم العربي، نشأته وتطوره، حسين نصار، دار مصر للطباعة، مكتبة مصر، الفجالة، ط2، 1968م.
- المعجم العلمي العربي المختص حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م.
- المعجمات والمجامع العربية، عبد المجيد الحر، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1994م.
- المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، علي القاسمي، مكتبة لبنان، بيروت، 2003م.
- المعجمية العربية في ضوء البحث اللساني والنظريات التربوية الحديثة، ابن حويلي الأخضر ميدني، دار هومة، الجزائر، 2010م.
- المعجمية العربية، ابن حويلي الأخضر ميدني، دار هومه، الجزائر، 2010م.
- المعجمية: مقارنة نظرية ومطبقة، مصطلحاتها ومفاهيمها، محمد رشاد الحمزاوي، مركز النشر الجامعي، تونس، دط، 2004.
- المعيار في التخطيط والتصويب، عبد الفتاح سليم، دار المعارف، مصر، ط1 (1991م).
- مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، دط، 2003م.
- المقدمة، عبد الرحمان بن خلدون، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 2010م.
- الملل والنحل محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقق: أحمد فهمي، دار الكتب العلمية، ط2، 1992م.
- من المعجم إلى القاموس، إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2010م.
- من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا، رشاد الحمزاوي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1986م.

- مناهج التأليف المعجمي عند العرب، عبد الكريم مرداوي، دار الثقافة، عمان، الأردن، ط1، 2010م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني (عبد العظيم)، دار الفكر-بيروت، ط1، 1996م.
- منهجية المعجمية، جورج ماطوري، تر: عبد العلي الودغيري، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، دط، دت.
- موقف النحاة من الاستشهاد بالحديث، خديجة الحديثي، دار الرشيد، العراق، 1981م.
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع في العربية، السيوطي (جلال الدين)، دار المعرفة، بيروت، 1326هـ.

المجلات:

- أثر كتب غريب الحديث في تأليف المعاجم اللغوية العربية، محمد مبارك وحسين مصطفى، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع3، المجلد 41، 2014م.
- الاحتجاج بالحديث النبوي عند علماء اللغة المتقدمين، حمزة بو خزنة. مجلة المنهل، جامعة الوادي، الجزائر عدد 2، مجلد 5، 2019م.
- التأليف المعجمي التراثي المتخصص، حاج هني، مجلة الأثر، 2015م، العدد 22.
- التصنيف النوعي للمعاجم العربية التراثية، عليّ القاسمي، مجلة الدراسات المعجمية، ع5، 2006م.
- دلالة المصطلح العلمي بين التوسيع والتضييق، زكية دحماني، مجلة المعجمية، تونس، 2008م.
- صناعة المعاجم وعلم المفردات، دراسة في أبستمولوجيا المصطلح، أحمد حابس، مجلة اللسانيات واللغة العربية جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، ع02، 2006م.
- في لغة الحديث الشريف، إبراهيم السامرائي، المجلة الثقافية، الجامعة الأردنية، عمان، عدد3، 1984م.
- قضية الفصاحة في القاموس العربي التاريخي، عبد العالي الودغيري، مجلة المعجمية، ع5-6، تونس، 1990م.
- المصطلحية وعلم المعجم، إبراهيم بن مراد، مجلة المعجمية، تونس، ع8، 1992م.

- معاجم غريب القرآن، مناهجها وأنواعها، عوض بن حمد القوزي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء: 4، مجلد: 78، 2003م.
- المعجم العربي بين المدارس والنظريات، الجيلالي حلام، مجلة المعجمية، تونس، ع: 9-10، 1994م.
- المعجم والدلالة، نظرة في طرق شرح المعنى، أحمد مختار عمر، مجلة المعجمية، تونس، العدد: 12-13، 1997م.
- مقدمة لنظرية المعجم، إبراهيم بن مراد، مجلة المعجمية، تونس، ع 09-10، 1994م.
- من القضايا المعجمية العربية، عفيف عبد الرحمان، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع35، 1988م.
- منهجية اعتماد الشاهد في المعاجم العربية الحديثة، سميرة نورين، مجلة اللسانيات، الجزائر، ع19-20، 2014م.

المنتديات والمواقع الإلكترونية:

- الدقة المتناهية لعلماء الحديث في الرواية، خلدون عبد العزيز، منتدى رابطة العلماء السوريين، 24.06.1434هـ، الرابط:
- (<http://www.m-a-arabia.com/vb/showthread.php?t=14959>)
- غريب الحديث، تعريفه، أهميته، أهم المؤلفات فيه، هوازن الشريف، شبكة شعاع الدعوية للتعليم عن بعد، 19-2-2014م، الرابط:
- (http://www.4shared.com/office/Qs6rWCD3/_____3.html)
- من القضايا المعجمية العربية، عفيف عبد الرحمان، الأردن، منتدى مجمع اللغة العربية.
- الموازنة بين "الفائق" للزمخشري و"النهاية" لابن الأثير (غير مطبوع)، إبراهيم بن عبد الله المديهي، المكتبة الشاملة، النشرة الأولى، 1436هـ، الرابط:
- (<https://shamela.ws/book/145425/39>)

الرسائل الجامعية:

- أثر الحديث في بناء القاعدة النحوية، إبراهيم سلامة، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة بالأردن، (2014م).
- الدلالة المعجمية عند العرب، دراسة نظرية وتطبيقية، ربيعة برباق، رسالة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012م.
- المعيار الصوتي لغرابة الحديث في كتاب النهاية، دراسة في بنية الكلمة العربية، عمر عبد المعطي، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن، 2001م.

المراجع الأجنبية:

- Dictionnaire de Linguistique et Science du Lange**, Jean Dubois et autres, Larousse – Bordas /Her, Paris, 1999.
- Lexicography. a Contrastive Survey**, R-R-K Hartmann, in annual review of applied linguistic, Vol.5, Cambridge, 1984.



الفهارسُ الضئيتة

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس الأبيات الشعرية

فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

رقم الصفحة	الآية/السورة مع رقم الآية (مرتبة بحسب الحرف الأول)
220.....	﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ (البقرة/187)
249.....	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَرِهِمْ﴾ (البقرة/243)
249.....	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ (آل عمران/23)
248.....	﴿وَعَاثُوا النِّسَاءَ صَدَقْتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ (النساء/4)
02.....	﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة/42)
250.....	﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ (الأعراف/201)
105.....	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (يوسف/02)
249.....	﴿لَوْ مَا تَأْتَيْنَا بِالْمَلَكَةِ﴾ (الحجر/7)
72.....	﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر/9)
02.....	﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل/103)
248.....	﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء/20)
249.....	﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ (القصص/8)
244.....	﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ (السجدة/26)
33.....	﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الشورى/11)
69.....	﴿إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾ (الجماعية/32)
249.....	﴿فِيهَا أَنْهَرُ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ عَاسِنٍ﴾ (محمد/15)

- ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (الجن/15).....02
- ﴿وَفَلَكِيهَةً وَأَبَّأ﴾ (عبس/31).....33
- ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ (الفجر/7).....249
- ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَالِ﴾ (الضحى/03).....250
- ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (ص/84).....43

فهرس الأحاديث والآثار

رقم الصفحة	طرف الحديث / الأثر (مرتبة بحسب الحرف الأول)
255	ابتغوا الرزق في خبايا الأرض
190	أتاكم أهل اليمن أرقّ قلوبا وأبجع طاعة.....
226	أتاه قومٌ، فاستأمرّوه في قتل عثمان، فنهاهم
231	أتينا أهلَ خيرٍ حين بزقت الشمس.....
195	اجتاز النبي ﷺ بِنِسْوَةٍ فقال: أظنّك مقلّمات.....
240	أجيزوا الوفدَ بنحوٍ ما كنتُ أُجيزُكم
188	أحسنوا الملاء، كلّكم سيروى
93	اخترُ أربعا منهن، وفارق سائرهنّ
44	أدبني ربي فأحسن تأديبي
234	إذا بعثَ فقل: لا خِلا بةً
239	إذا تُوبَ بالصلاة فأتوها
161	إذا كان الغلام يتيما، فامسحوا رأسه
264	إذا لم تغلب فاخلب
191	أرنّ، أو اعجل ما أنهر الدّم
230	استأذنتِ النبي ﷺ في دخول أبي القُعبس عليها
201	إلى الأقيال العباهلة والأرواح المشاييب، من أهل حضرموت

- 204..... آمروا النساء في أنفسهن
- 71..... أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا
- 204..... أنّ النبي ﷺ أعطى الأهل حظّين، والأعزب حظاً
- 213..... أنّ النبي ﷺ بال قائما لعلّة بما بصره
- 216..... إنّ دنا مّي أحد أبعج بطنه بالخنجر
- 257..... أنّ رجلا قال له: يا نبيّ الله.....
- 188..... إنّ كثيرا من الخطب من شقاشق الشيطان
- 192..... إنّ كلماته بلغت ناعوس البحر
- 72..... إنّ هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم
- 198..... أنا أفصح العرب
- 194..... انطلق جفاء من الناس إلى هذا الحيّ من هوازن
- 221..... إنكم تبايعون محمدا على أن تحاربوا العرب والعجم مجلبة
- 28..... إنّما الأعمال بالنيّات
- 190..... أنه أقبل علينا فقال: أيكم يحب أن يعرض الله عنه؟
- 206..... إنّّه ألبس الحميصه أمّ خالد
- 249..... أنه بعث سرية، فبعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله
- 256..... إنّّه تلده أمه، فيحملن النساء بالخطّائين
- 232..... أنه رأى طلحة حزينا مكبوتا
- 253..... أنه سئل عن السلطان فقال: هو ظلّ الله في الأرض

- 245..... أنه كان يبدو إلى هذه التّلاع
- 189..... أنه كان يُتَرَعُّ غنمه ويحلب ويعلف
- 225..... أنه كان يكره ذبيحة الأرعل
- 193..... أنه نهي عن بيع المضامين، والملاقيح
- 252..... أنه نهي عن قيل وقال
- 255..... أنه وضع النحو حين اضطرب كلام العرب
- 200..... إياك والمخيلة
- 220..... أين المظهر يا أبا ليلي
- 238..... أيها الناس؛ قد فُرض عليكم الحج، فحجُّوا
- 244..... بلغني أن عبد الله بن أبي سليط قال لعبد الرحمن بن زيد
- 255..... بينا نحن عند رسول الله
- 221..... بينا هو يلعب مع الصبيان-وهو صغير
- 234..... تحسب عتي نائمة
- 233..... تميم بُرثمتها، وجُرثمتها
- 195..... ثم انكفأ إلى كبشين أملحين، فذبحهما
- 217..... الجنة تحت ظلال السيوف
- 192..... حافظاه الياقوت المحيب
- 189..... حتى رأيت الأرنبة تأكلها صغار الإبل
- 192..... حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُدْهَبَةٌ

- 91 حَمِيّ الوَطِيسِ
- 45 حُذِّهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ
- 3 23 خَمْسٌ فَوَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ
- 260 خِيَارُ أُمَّتِي أَحَدًاؤُهَا
- 246 الرَّجَالُ ثَلَاثَةٌ: فَرَجْلٌ حَائِرٌ بَائِرٌ
- 251 رَجَبٌ مُضَرٌّ الَّذِي بَيْنَ جَمَادَى وَشَعْبَانَ
- 200 رَفَقًا بِالْقَوَارِيرِ
- 206 الزَّبِيرُ ابْنُ عَمَّتِي وَحَوَارِيٍّ مِنْ أُمَّتِي
- 45 زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ
- 200 سَبَلُ الْإِزَارِ
- 225 سَكَنَ اللَّهُ عُقْبِرَاكَ، فَلَا تُصَحِّرِهَا
- 193 السَّكِينَةُ رِيحٌ خَجُوجٌ
- 193 شَرُّ بئرٍ فِي الْأَرْضِ بَرَهَوَاتٌ
- 219 الشَّهِيدُ فِي خِيَمَةِ اللَّهِ تَحْتَ الْعَرْشِ
- 252 ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ حَرَقُ النَّارِ
- 240 الضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَجَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَمَا زَادَ فَهُوَ صَدَقَةٌ
- 219 فَإِذَا الْمَسْجِدُ يَتَأَزَّرُ
- 238 فَأَقَامُوا عَلَيْهِ مَأْتَمًا
- 191 فَإِنَّ أَيْتَ فَعَلِيكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ

- 231 فانطلقا بي إلى ما بين المقام وزمزم
- 216 فبينما أنا أجول بسببها
- 226 فتخلفنا أيتها الثلاثة
- 213 فقال العباس: إلا الإذخر، فإنه لبيوتنا، وقبورنا
- 252 فقال بثوبه هكذا
- 250 فقال بعض القوم: قد أصاب هذا الغلام لَمَمٌ
- 252 فقال ما يقول ذو اليمين؟ قالوا: صدق
- 232 فمن شاء فليمسكها، ومن شاء فليسمرها
- 246 فهي لهم تالدة بالدة
- 205 في الحرام كفارة يمين
- 225 فيم الرّمْلان، وقد أطا الله الإسلام
- 232 قال عطاء: صلينا معه على دُرْنوكٍ قد طبّق البيت كله
- 245 قال يوم بدر: القتلُ جليلٌ ما عدا محمدا
- 231 قالت عائشة للنبي مالي لم أرك فزعت لأبي بكر وعُمَر
- 203 قد كُنَّ نساء رسول الله ﷺ يحضن فأمرهن أن يجزبن
- 206 قوموا فقد صنع جابرٌ سُورا
- 189 كانوا يتبايعون الثمار قبل أن يبدو صلاحها
- 220 كتابُ الله حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض
- 206 كَخُ كَخُ

- 252..... الكلمة الحكيمة ضالّة المؤمن
- 224..... كلوا وادّخروا وابتجروا
- 205..... كنت مع النبي ﷺ وهو يملي كتابا
- 191..... لا أينقُ بحديثه
- 230..... لا بأس بقتل الأفعو
- 221..... لا تأكلوا من تعاقر الأعراب
- 248..... لا تُغالوا في الصدقات
- 217..... لا تقتلوا عسيفا ولا أسيفا
- 219..... لا تُؤبُنْ فيه الحرم
- 230..... لعن الله السّالقة والحالقة
- 72..... لم يكن الناس يسألون عن الإسناد
- 245..... لما اعترض أبو لهب على النبي ﷺ
- 242..... لما انهزموا قالوا: الرأي أن ندخل في الحصن
- 207..... لما صالح نصارى الشام كتبوا: ألا نحدّث كنيسة ولا قليّة
- 231..... لما مات عثمان بن مظعون على فراشه
- 36..... اللهم فقّهه في الدين وعلمه التأويل
- 205..... اللهم لا مانع لما أنطيت، ولا مُنطِي لما منعت
- 162..... لو كان أبو طالب حيّا لرأى سيوفنا بسبت بالمياثل
- 162..... لو وجد عرقا سمينا أو مرماتين جشبتين لأجاب

- 194..... ليس في الإكسال إلا الطهور
- 74..... ليس من أصحابي إلا من لو شئت لأخذت عليه، ليس أبا الدرداء
- 230..... ليس من أمير امصيام في امسفر
- 250..... لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن على قلوبهم
- 204..... ما إخالك سرقت
- 86..... ما تضعع امرؤ لآخر يريد به عرض الدنيا إلا ذهب ثلثا دينه
- 256..... ما زالت أكلة خبير تعادني فهذا أوان قطعت أبهري
- 239..... المختص بعقائل كراماته
- 242..... مرت بي سحابة
- 45..... ملكتكها بما معك
- 200..... من جر ثوبه خيلاء
- 192..... من صلي نائما فله أجر القاعد
- 74..... من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار
- 253..... من كسب مالا من حرام، فأعتق منه، كان ذلك عليه إصرا
- 199..... من مات حتف أنفه في سبيل الله فهو شهيد
- 224..... من يتجر فيقوم فيصلّي معه
- 79..... الناس معادن كمعادن الذهب والفضة
- 253..... نضب عمّره، وضحا ظله
- 74..... نصر الله عبدا سمع مقالتي

- 200 هُدْنَةُ عَلَى دَخْنٍ
- 200 هذا يوم له ما بعده.
- 246 هي لِشَارِبٍ حِلٌّ وَبِلٌّ
- 240 واجعلني لك محبّتا.
- 204 واغفر لنا حُوبَنَا.
- 218 والبُرْمَةُ بَيْنَ الْأَثَائِيّ
- 232 وَاللّٰهُ لِأَسْتَأْدِيْنَهُ عَلَيْكُمْ
- 218 وَإِنَّ مِنَ الْإِجْهَارِ كَذَا وَكَذَا
- 204 وَأَنَا أَشْرَبُ مَاءَ الْمَلْحِ
- 222 وَعِنَبُهُمُ الْأَرَاكُ
- 216 وَلَا يَظْمَأُ عَلَى التَّقْوَى سِنْحُ أَصْلٍ
- 235 وَلَأَنْزَعَنَّكَ مِنَ الْمَلِكِ نَزْعَ الْإِصْطَفَلِيْنَةِ
- 225 وَلَقَدْ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ عَلَى أَنْ يَعْصَبُوهُ بِالْعَصَابَةِ
- 253 وَمَنْ تَأَخَّرَ وَلَعَا كَانَ لَهُ كَفْلَانٌ مِنَ الْإِصْرِ
- 69 وَهَلْ يَكْبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوْهِهِمْ
- 257 يَا بَنِيَّ، أَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، إِذَا حَكَكَتُ قَرْحَةً دَمِيْتَهَا
- 200 يَا خَيْلَ اللَّهِ ارْكَبِي

فهرس الأبيات الشعريّة

رقم الصفحة	الأبيات الشعريّة
220.....	ولاعبَ في العشيّ بني بنيه كفعل الهَرّ يفترس العظايا
194.....	أَنَّ كسلتُ والحصانُ يكسل عن السّفاد وهو طرفُ هيكلُ
233.....	باسمِ الإلهِ وبــــه بدينا ولو عبَدنا غيره شَقِينا
220.....	بلعنا السماءَ مجدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرًا
255.....	تتبّع خبايا الأرضِ وادعُ مليكها لعلك يوماً أن تُجابَ وتُرزقا
163.....	جُبِ القَلا مُدمِنًا إن فاتك الظَّفِرُ وحُدَّ حدُّ الثرى والليلُ معتكِرُ
164.....	سلاما كنشر الروضِ باكره الحيا وهبّت عليه نسمةُ السّحرِ الأعلى
256.....	على حينَ عاتبْتُ المشيبَ على الصِّبا وقلت ألمّا تصخُ والشَّيبُ وازعُ
164.....	فالعرّ في صهواتِ الخيلِ مركبه والمجد ينتجه الإسرائِ والسّهْرُ
164.....	فجاء بمسكِيّ الهوا متحلّيا ببعض سجايا ذلك المجلسِ الأسمى
254.....	كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حذباءٍ محمول
92.....	هل أنتِ إلا إصبَعُ دَميتِ وفي سبيلِ الله ما لقيتِ
164.....	وإن كانت الأشواق تزداد كلّما تناقص بعدُ الدارِ واقترب المغنى
164.....	وإني لمهدٍ عن حنينٍ مبرِّحِ إليك على الأقصى من الدارِ والأدنى
255.....	وبينا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرنا إذا نحنُ فيهم سوقةٌ نتنصّفُ
254.....	ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن له بوادِرُ تحمي صفوه أن يُكدِّرا

ولكن سليقيُّ أقول فأعربُ.....255	ولستُ بنحويّ يلوكُ لسانه
بحورانَ يعصِرَن السَّليطَ أقاربه.....256	ولكنَ دِيايُ أبوه وأمّه
بالحق كلُّ هدى السَّبيلِ هُداكا.....257	يا خاتمَ النُّبأِ إنَّكَ مُرسَلٌ

فهرس الموضوعات

مقدمت أ-ط

مدخل اصطلاحى ومفاهيمى:

1. المعجم 2
- 1.1. معنى كلمة "معجم" واشتقاقاتها 2
- 2.1. أنواع المعاجم 4
- 3.1. شروط تأليف المعجم 7
2. المعجمية وعلم المعاجم 7
- 1.2. مفهوم المعجمية 7
- 2.2. إشكالية المقابل العربى للمصطلح الأجنبى 9
- 3.2. أسس المعجمية الحديثة وأصولها فى التراث المعجمى العربى القديم 10
- 4.2. المعجمية وعلاقتها بالعلوم المجاورة 12
3. مناحى الدراسة المعجمية 17
- 1.3. الجمع 18
- 1.1.3. المصادر التى تُعتمد فى جمع الوحدات المعجمية 18
- 2.1.3. المستويات اللغوية التى تنتمى إليها المفردات المعجمية 19
- 2.3. الوضع 21
- 1.2.3. الترتيب 21
- 2.2.3. التعريف 21

4. مصطلح غريب الحديث والأثر 23
- 1.4. معنى الحديث النبوي الشريف لغة واصطلاحا 23
- 2.4. معنى الأثر لغة واصطلاحا 24
- 3.4. معنى "الغريب" لغة واصطلاحا 25
- 4.4. بين مصطلحي "غريب الحديث" و"الحديث الغريب" 27
- 5.4. إشكالية تصنيف كتب غريب الحديث 28

الفصل الأول: أهمية كتب غريب القرآن والحديث وأثرها في الصناعة المعجمية العربية القديمة

- المبحث الأول: كتب غريب القرآن، استقراء تاريخي وتحليلي 31
1. غريب القرآن 31
2. أهمية معرفة غريب القرآن والإحاطة به 33
3. التأليف في غريب القرآن 34
4. مناهج التأليف في كتب غريب القرآن 37
5. مرادفات لمعنى غريب القرآن 38
6. الاحتجاج بالقرآن الكريم 41
- المبحث الثاني: كتب غريب الحديث، استقراء تاريخي وتحليلي 43
1. غريب الحديث 43
2. أسباب ظهور الغرابة في الحديث 44
3. دوافع التأليف في غريب الحديث 46
4. منزلة علم غريب الحديث وأهمية التأليف فيه 47

5. جهود العلماء في غريب الحديث بين وضع المناهج وتأليف الكتب.....49
- 1.5.1. مناهج الوضع في كتب غريب الحديث 49
- 2.5. أبرز المصنفات في غريب الحديث..... 52
6. الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف عند اللغويين والمعجميين والنحاة.....62
- المبحث الثالث: أثر كتب غريب القرآن والحديث في الصناعة المعجمية العربية القديمة.....83
- مظاهر تأثر المعاجم العربية بكتب غريب الحديث..... 84
1. من حيث جمع المادة المعجمية..... 85
2. من حيث وضع المادة المعجمية وترتيبها 94

الفصل الثاني: الصناعة المعجمية العربية القديمة، نشأتها

وتطورها وأبرز خصائصها

- المبحث الأول: اللغة العربية بين السّماع والرواية والتدوين 97
- الدوافع إلى الرواية والسّماع.....102
- المبحث الثاني: بواكير النشاط المعجمي عند العرب..... 105
- المبحث الثالث: ظهور الرسائل اللغوية 106
1. دوافع تأليفها 109
2. موضوعاتها 109
3. أهميتها 111
- المبحث الرابع: تطور التأليف في المعاجم العربية 112
- المبحث الخامس: ظهور المدارس المعجمية 120
1. واقع التقسيم المدرسي للمعاجم العربية 121

2. معايير التقسيم المدرسي للمعاجم 137
3. التقسيم المدرسي للمعاجم العربية؛ نقد وتقييم 143
- المبحث السادس: المآخذ على المعاجم العربية 146

الفصل الثالث: ابن الأثير الجزري وكتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر"

المبحث الأول: ترجمة ابن الأثير الجزري (ت606هـ)

1. عصر ابن الأثير 150
- 1.1. الحياة السياسية 150
- 2.1. الحياة الاجتماعية 152
- 3.1. الحياة الثقافية 153
2. حياة ابن الأثير الجزري 154
- 1.2. اسمه ونسبه ومولده 154
- 2.2. نشأته وطلبه للعلم 154
- 3.2. شيوخه وتلامذته 157
- 4.2. عقيدته ومذهبه الفقهي 158
- 5.2. جهوده العلمية واللغوية 160
- 6.2. أمانته العلمية 161
- 7.2. ثناء العلماء عليه 162
- 8.2. مصنفاته 164
- 9.2. مرضه ووفاته 166

المبحث الثاني: بين يدي كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير

1. كتاب "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير 167
2. عنوان الكتاب 169
3. توثيق نسبة الكتاب إلى ابن الأثير الجزري 170
4. مقدمة الكتاب 171
5. دوافع تأليفه 175
6. أهميته 176
7. لغة الكتاب 178
8. ثناء العلماء عليه 179
9. كتبٌ صنّفت حول كتاب "النهاية" 180
10. أثر كتاب "النهاية" في غيره من كتب العربية 182
11. طبعاته 183
12. سبب اختيارنا لطبعة وزارة الأوقاف القطرية 184

الفصل الرابع: منهج ابن الأثير في كتاب "النهاية في غريب**الحديث والأثر"**

- المبحث الأول: كتاب "النهاية" ومبدأ الجمع 187
- 1.1. مصادره اللغوية وغير اللغوية 187
- 2.1. مستويات المادة المعجمية في كتاب "النهاية" 197
- المبحث الثاني: كتاب "النهاية" ومبدأ الوضع 208

1. اختيار المداخل.....208
2. ترتيب المداخل.....209
3. المعنى المعجمي وطرائق شرحه في معجم "النهاية".....215
- المبحث الثالث: أهمّ المعلومات المعجمية في كتاب "النهاية".....223**
1. المعلومات الصرفية والنحوية.....223
2. المعلومات الصوتية.....228
3. المعلومات التأثيلية.....234
4. التطور الدلالي لألفاظ غريب الحديث في معجم "النهاية".....236
5. الظواهر اللغوية في "النهاية".....241
- 1.5. الترادف.....241
- 2.5. المشترك اللفظي.....243
- 3.5. الأضداد.....245
- 4.5. الإنباع والمزاوجة.....246
- المبحث الرابع: منهج ابن الأثير في الاستشهاد في كتاب "النهاية".....247**
1. الاستشهاد بالقرآن الكريم وبعض القراءات القرآنية.....248
2. الاستشهاد بالأحاديث النبوية وبعض الآثار.....251
3. الاستشهاد بالأشعار وبعض الأمثال العربية.....254
- المبحث الخامس: منهج ابن الأثير في ضبط النص المعجمي.....258**
- المبحث السادس: مآخذ على كتاب "النهاية".....262**
- الخاتمة.....266**
- قائمة المصادر والمراجع.....271**

الفهارس الفنيّة

- 287 فهرس الآيات القرآنية
- 289 فهرس الأحاديث والآثار
- 297 فهرس الأبيات الشعرية
- 299 فهرس الموضوعات

الملخص: ترمي هذه الدراسة إلى الحديث عن النشاط المعجمي العربي القديم الكامن في كتب غريب الحديث، والذي يعتبر نشاطا معجميا مبكرا في تاريخ الصناعة المعجمية العربية، حيث سنتناول واحدا من أهم كتب غريب الحديث، ألا وهو كتاب مجد الدين بن الأثير الجزري (ت606هـ) الموسوم: "النهاية في غريب الحديث والأثر" بدراسة معجمية تطبيقية، في ضوء المقاربة المعجمية العربية، نبرز من خلالها أهم الجهود المعجمية لابن الأثير في هذا الكتاب من حيث الجمع والوضع، وكذا أهم المعلومات المعجمية التي تناولها هذا الكتاب.

الكلمات المفتاحية: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، مقارنة معجمية.

Abstract: The aim of this study is to discuss the lexical activity found in ancient Arabic dictionaries hidden in the books of Gharib Al-Hadith, which is considered an early lexicographical activity in the history of Arabic lexicography. We will focus on one of the most important books of Ghareeb Al-Hadith, namely the book "Al-Nihaya fi Ghareeb Al-Hadith wa Al-Athar" by Majd al-Din ibn al-Atheer al-Jazari (d. 606 AH), through an applied lexicographical study, in light of arabic lexicographical approach. We will highlight Ibn al-Atheer's most significant lexicographical efforts in this book in terms of collection and arrangement, as well as the most important lexicographical functions addressed in this book.

Keywords: Al-Nihaya fi Ghareeb Al-Hadith, ibn al-Atheer, lexicographical approach.

Résumé: Cette étude vise à discuter de l'activité lexicographique arabe ancienne présentée dans les livres de Gharib al-Hadith, qui est considérée comme une activité précoce dans l'histoire de lexicographie arabe. Nous examinerons l'un des livres les plus importants de Gharib Al-Hadith, à savoir le livre de Majd al-Din ibn al-Atheer al-Jazari (m. 606 H) intitulé "Al-Nihaya fi Gharib al-Hadith wal-Athar", à travers une étude lexicographique appliquée, à la lumière de l'approche lexicographique arabe. Nous mettrons en évidence les efforts lexicographiques les plus significatifs d'Ibn al-Athir dans ce livre en termes de collecte et d'agencement, ainsi que les fonctions lexicales les plus importantes abordées dans ce livre.

Mots clés: Al-Nihaya fi Gharib al-Hadith, ibn al-Atheer, l'approche lexicographique arabe.